عبد الوهاب مطاوع

# سلامتك من الآه



الدار المصرية اللبنانية

سلامتك من الآه




16 عبد الخالق ثروت - ص .ب 2022 برقيا دار شادو - القاهرة - ت : 3923525 - 3936743 - فاكس: 3909618

جمع وطبع : عربية للطباعة والنشر
تليفون : 3256098 - 3251043

رقم الإيداع : 2001 / 11843
الترقيم الدولى : 1 - 688 - 270 - 977
الطبعة الأولى : شوال 1422 هـ - يناير 2002 م

عبد الوهاب مطاوع

# سلامتك من الآه

الناشر
الدار المصرية اللبنانية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾

صدق الله العظيم

# هذا الكتاب

كتبتُ فصـول هذا الكتـاب على مدى أكثـر من عـامين، وبفـاصل زمنى بين كل مقالة وأخرى لا يقل عن شهـر.. ومع ذلك فلقد شعرتُ حين جلستُ لكى أراجعهـا وأجمعهـا فى كتـاب كما لو كنتُ قـد كتبتُهـا كلها فى جلسـة واحدة متصلة ! فالروح التى تسرى فيها كلهـا واحدة.. والنغمة التى تعـزفها بتنويعات مختلفـة أيضًا واحـدة، وهى الدعوة لأن نتعلم جميعًـا كيف نحيـا حيـاتنا بـالطريقـة الصحيحـة.. وكيف نبتهج بالحياة ونستمتع بها برغم الصعـاب والآلام. وكيف نحاول دائمًا تحديد مساحـة الشر والخسائـر الإنسانيـة فيها، ونوسع مـن دائرة الخير والحق والجمال فى رحلتها.. وأن نؤمن دائمًا بخيريَّة الحياة وبالمثل العليا الجديرة بأن نعتصم بها وسط هدير أمواج الحياة المتلاطمة من حولنا .

إنه كتـاب يؤمـن ببهجـة الحيـاة.. كتبتُ معظم فصـوله للشبـاب، وآمنتُ دائمًا بأن الشباب ليس مـرحلة سِنِّية تنقضى بانتهـائها، وإنما هو حالة وجدانية وعقلية يستطيع الإنسان أن يتعامل بها مع الحياة من بداية

الرحلة إلى نهايتها، وذلك إذا احتفظ بصفة واحدة من صفات الشباب هى «الحماس»!

وبهذا المفهوم الصحيح للشباب نستطيع أن نتفاعل مع الحياة، وأن نتعلق دائمًا بالأمل فى غد أفضل، وألا نفقد أبدًا قدرتنا على تذوق الأشياء الجميلة فى الحياة والابتهاج بها، مهما بدت للآخرين من فاقدى الحماس والمصابين بفشل الروح أشياء بسيطة وعادية ولا تلفت أنظار الآخرين.

أما فصل «سلامتك من الآه» الذى اخترتُ عنوانه لهذا الكتاب؛ فلقد كتبتُه انفعالاً بأحزان شاب وحيد نشرتُ رسالته فى بريد الجمعة بالأهرام.. وكان يشكو لى فيها من وحدته القاتلة بعد رحيل أمه، ومن قبلها أبيه.. ويقول لى إنه يَعْجَب لزملائه الشباب بالجامعة الذين يشكون من قيود الأهل عليهم ومحاسبتهم لهم عن تأخرهم خارج البيت إلى وقت متأخر من الليل، ويتلهفون على اليوم الذى يصبحون فيه «أحرارًا» من كل قيد. ويروى لى إنه يحيا هذه الحياة «الحرة» الآن ويخرج حين يشاء ويرجع حين يشاء، فلا يجد من يسأله عن أسباب تأخره فى الخارج، ويعزف أحيانًا عن مغادرة البيت للذهاب إلى كليته فلا يسأله أحد عن أسباب عدم ذهابه إلى الكلية لسبب بسيط: هو أن أمره لم يعد يهم أحدًا فى الكون كله سواه.. ولهذا فهو يفتقد هذه القيود

العائلية التى حُرم منها بعد رحيل أمه.. والتى لا يقدرها بعض الشباب ولا يدركون أنها قيود الحب والرعاية والاهتمام بأمر الإنسان !

ولقد أثارت هذه الرسـالة تأملاتى وأعادتنى إلى مـرحلة من حياتى عشتُ فيها نفس وحـدته الكاملة بعيدًا عن الأهل ومحرومًـا من «قيود» حبهم واهتمامهم بأمـرى، فكتبتُ هذا الفصل.. ورويتُ فيـه تجربتى مع الوحدة ؛ وافتقادى فى تلك المرحلة من عمرى لمن يهتم بأمرى .

فلعلك يا صـديقى إذا قرأتَ هذا الكتـاب تشاركنى رؤيتى للحيـاة ومحاولاتى للتفـاعل السليم معهـا.. ولعلك أيضًـا تشـاركنى تقـديرى لحب الأهل واهتمامهم بأمر الإنسان.. وإيمانـى بأهمية أن يجد كل إنسان فى حياته من يخفق قلبه له بالحب والعطف والاهتمام، ومن يقول له حين يحتاج إلى التعاطف الإنسانى : سلامتك من الآه !

**عبد الوهاب مطاوع**



# ضَيَّعْتُ الشِّلِنْ

بعض الأحــداث الصغيرة قــد تترك أثرًا كبيرًا فى نفسك وتفكيرك ورؤيتك للحياة !

أما ذلك الحادث العابر الصغير الذى أحـدثك عنه فلقد جرى لى فى طفـولتى وأنا فى السادسـة أو السابعـة من العمـر، أمام البيت بشـارعنا بمدينتـى الصغيرة «دسوق».. فلقد كـان لشارعنا - كغيره مـن شوارع مـدن الأقـاليـم الصغيرة - «شمال غنى» و «جنوب فقير» كما هو الحال الآن فى الكرة الأرضيـة، إذ كـان يتقـاطع أو يصبُّ فى شـارع المدينة الرئيسى، فكانت البيوت الأقرب إلى الشارع الرئيسى فى «الشمال» يقيم بها متـوسطو الحال من التجار والموظفين، والبيـوت التى توغل فى اتجاه الجنوب يقيم بها البسطاء من العمال وأهل الحرف والباعة الجوالين.

أما الطفولة فلم تكن تعترف بالفـوارق الاجتماعية.. فأطفال الجميع يلعبـون معًـا بالكرة وباقـى الألعـاب، ولا أغـالى إذا قلت : إن أبناء

متوسطى الحال كانوا يغبطون أبناء البسطاء على «نِعَم» جليلة عديدة كانوا هم محرومين منها.. أعظمها نعمة «الحرية» التى كانوا يستمتعون معها باللعب فى الشارع بالجلاليب الفضفاضة المريحة من طلعة النهار إلى أن يتأخر الليل، فى حين يجبرنا الأهل - لأسباب غير مفهومة لنا - على أن نحرم أنفسنا من هذه «البهجة»، ويرغموننا على الذهاب كارهين فى الصباح الباكر إلى المدرسة وقد انحشر كلٌّ منا فى بنطلون قصير ضيق، وقميص مزعج يحتاج ارتداؤه إلى معالجة كل هذه الأزرار السخيفة، ناهيك عن الجورب الذى لا معنى له.. وهذا الحذاء الضيق الصلب الذى لابد له أن يكون لامعًا وإلا تعرضنا للعقاب فى طابور الصباح، كما لابد لأظافرنا أن تكون مقصوصة جيدًا وإلا هوت عليها مسطرة الناظر بلا رحمة خلال تفتيشه اليومى على نظافتنا الشخصية، ثم نساق بعد كل هذا «الهوان» فى الطابور إلى الفصول حيث نجلس فى سكون كالمساجين.. ونخضع للأحكام العرفية التى يفرضها علينا مدرس الفصل؛ فلا يتنفس أحد منا إلا بإذنه، ولا يَقصرَنّ أحد منا فى حفظ هذه «الخزعبلات» التى يفرضون علينا نقلها عن السبورة وترديدها ترديدًا جماعيًّا حتى نحفظها ونؤدى الامتحان فيها.

وبينما نقوم نحن بهذه الأشغال الشاقة ونخضع لهذا «القهر» مترقبين بفارغ الصبر انتهاءه كما يترقب المسجون بلهفة يوم الإفراج عنه، يكون رفاق الشارع «الأحرار» فى نفس اللحظة يمرحون فى ملاعبهم

وملاهيهم وعبثهم بفضل بُعـد نظر آبائهم الذين لم يرضوا لهم بما رضى لنا به آباؤنا من إذلال مـدرسى! فمن يستحق إذن أن يحسـد الآخـر على حياته و «حريته» و «حكمة» أولياء أموره؟.. نحن - سجناء المدارس - أم هؤلاء الرفاق الأحرار ؟

لقد كنا نغبطهم حقًا ليس فقط على تحررهم من هذا الذل المدرسى.. وإنما أيضًـا على تحررهم مـن أداء الواجبـات المدرسيـة السخيفــة التى نعجب كيف «تقســو» قلوب الأهل علينا فتحـرمنا من مشـاركة رفـاق الشـارع لعبهم البديع إلا بعـد أدائها.. ونعجب أكثـر لقسوتهم الأشـد علينا حين ينتزعوننا انتزاعًا من حلقة الصغار الملتفة تحت عمود النور فى الشارع تتبـادل رواية الحكايات العجيبة والطرائف المثيرة لكى نأوى إلى فراشنا فى وقت مناسب بدعـوى الاستيقاظ مبكرًا للذهاب إلى المدرسة اللعينة ؛ فى حين يواصل «الأحـرار» سهــرتهم البهيجـة دوننا إلى وقت متأخِّر !

ولو أنك سألتَ طفلاً فى مثل ظروفى وقتها عن أمنية حياته، لأجابك بلا تردد بأنها أن «يتفتـح» عقل والديه ويتفهَّما جيـدًا «حقــائق» الحيـاة ويتنازلا عن بـدعــة التعليم هـذه التى تحرم أولادهما من كل هـذه المتع البهيجة !

لكن هكذا جــرت علينا المقـادير .. ولم نكن فى وضـع يسمح لنا بـ

«المقـاومة» حتى بلوغ النصر ! فـرضينا بها لا حيلة لنا معـه، وتواصلت أيامنا.

وذات أصيل كنتُ ألعب مع بعض الرفاق الكرة أمام البيت، فمرت بجـوارنا طفلة صغيرة من سكان الجنوب فى السـادسة أو السـابعـة من عمرها وهى تحمـل طبقًا فارغًـا، ويبدو من هيئتهـا أنها فى طريقها لكى تشترى فيــه الفـول من الشــارع الرئيسى، فما أن تجاوزتنـا بقليل حتى توقفتْ؛ وراحت تفتش فى مـلابسها وفى الأرض عن القطعـة المعدنيـة من فئة الخمسة قروش - أو «الشلن» كما كنا نطلق عليها - التى أعطتها لها أمها لتشترى الفـول، ويبدو أنها قـد اكتشفت ضيـاعها أو سقـوطها منها فى الطريق ويئست من العثور عليها، وتمثلتْ ما سوف ينتظرها من عقاب بدنى صارم من أمها إذا عـادت إليها بالخيبة، فانفجرت فجأة فى البكاء والولولة.. ولم تكتف بهذا .. بل وصـاحت أيضًا مناديةً أمهـا من اتجاه الجنوب، وقـالت لها فجأة وهى تصرخ وتولول: إن «فـلانًا» - أى محســوبك - قد أسقط الشلن من يـدها وهى فى طريقها لمحل الفـول.. فاختفى فى التراب !

وذهلتُ لهذا الاتهام الظـالم.. وتعجبتُ له كثيرًا وأنـا الذى لم أقترب من هذه الطفلة ولم ألمسهـا ولا أعــرف شيئًا عمّا فقـدت.. وتســاءلتُ مندهشًا :

ـ أنا يا فلانة ؟

فأجابتنى بإصرار غريب : نعم أنت !

كيف يا ربى وقد كنت منهمكًا فى اللعب مع رفاقى ولا شأن لى بهذه الطفلة؟ ولماذا تخصنى أنا وحدى بهذا الاتهام وحولى عدد لا بأس به من رفاق اللعب ؟ لم أفهم ذلك قط ولم أستوعبه فى حينه، واعتبرت المسألة «مسألة شرف»، ولابد لى من الانتصار فيها ودفع هذا الاتهام المجحف عنى!

وقبل أن أتخذ أية خطوة للدفاع عن نفسى، وجدت أم الطفلة تقترب ساحبة إياها فى يدها وهى تعنفنى بصوت «أوبرالى» على إضاعة هذا الشلن بعبثى ورعونتى من يد طفلتها الجادة الملتزمة، فانبريت أدافع عن نفسى وأقسم لها بأغلظ الأيمان على براءتى مما تتهمنى به ابنتها، واستشهدت برفاق اللعب فأيدونى جميعًا فى ذلك.. لكن هيهات أن تقتنع الأم إلا بما قالته لها ابنتها. وبدأ صوتها يعلو أكثر وأكثر، وبدأت أنا أُجَن لهذا الاتهام الفاجر..

وعرضت على الأم أن أرجع للبيت لإحضار مصحف شريف أقسم عليه بأننى لم أضِعْ هذا الشلن المنحوس.. وتحمَّس الرفاق لاقتراحى.. وتصورت أن ذلك سوف ينهى القضية بسلام ويخرجنى منها مرفوع الرأس محفوظ الكرامة، فإذا بى أتلقى «طعنة غادرة» من آخر إنسان فى الوجود أتوقع منه أن يخذلنى فى هذا الموقف العصيب وينضم فيه إلى خصومى بدلاً من الدفاع عنى.. وهو أمى ! فلقد فوجئت بها تتدخل فى

الحديث من شرفة البيت تطيب خاطر أم الفتاة وتعتذر لها عن شقاوتى ورعونتى، وتشهد «شهادة الزور» بأنها قد شاهدت كل شىء من البداية وأننى المسئول فعلاً عن ضياع هذا الشلن، ثم تتبع ذلك بأن تلقى إلى أم الطفلة منديلاً ملفوفًا به قطعة معدنية من فئة الشلن، فتتناوله الأم وتفكه وتخرج القطعة منه، ثم تأخذها وترد إلىّ المنديل وهى تنصحنى لوجه الله بالكف عن مثل هذا العبث الذى يعرضنى للمتاعب، ثم تسحب ابنتها فى يدها وتمضى راضية.. وأنا أكاد أنشق نصفين بالطول من الكمد والقهر والشعور بالخيانة والخذلان من جانب أمى لى !!

وهرولت إلى البيت غاضبًا مطعون الكرامة.. وعاتبت أمى عتابًا مريرًا على «خذلانها» لى بدلاً من أن تدافع عنِّى وتنصرنى على من افترى علىّ ظلمًا ! وسألتها كيف شهدت بأنها قد رأتنى وأنا أرتكب هذه الجريمة، وهى التى لم تخرج للشرفة إلا حين سمعت صوت أم الطفلة «الحيّانى» ؟.. ولم أفهم شيئًا مما قالته لى تبريرًا لموقفها «المتخاذل» هذا منى وأنا فى غمار معركة من معارك الشرف والكرامة !

وظللت مكتئبًا بقية النهار.. وشكوتها لأبى حين رجع من عمله فى المساء، ودافعت عن نفسى بحرارة أمامه . ولا أذكر من رد فعله لما قلته له وقتها سوى ابتسامته الهادئة وتأكيده لى بأنه يعلم عن يقين – وكذلك أمى – أننى برىء مما ادعته علىَّ هذه الطفلة، لكن هناك ظروفًا أخرى

تبرر لأمى - من وجهة نظرها - ما فعلت وما ارتكبت فى حقِّى من «خيانة» .. وحاولتُ قدر جهدى أن أستوعب ما قاله لى بعد ذلك من أن هذه الطفلة ابنة قوم بسطاء يمثل «الشلن» وقتها بالنسبة إليهم شيئًا ذا بال، وأنها كانت قد عرفت جيدًا أنها سوف تنال عقابًا قاسيًا على إضاعته، فتلفتت حولها واختارت «ضحية» تعرف أنها قادرة على دفع هذه الفدية البسيطة التى تفتدى بها نفسها من العقاب الذى ينتظرها، فكنتُ أنا هذه الضحية ! ولا شىء فى ذلك.. ولا يحق لى أن أحزن أو أغتاظ إلخ !

وزادنى هذا المنطق «الفاسد» عجبًا على عجب ! ورأيت فيه بعقلى «الناضج» ضعفًا وتخاذلاً لا يليقان بالشرفاء من الناس ! وأنكرت على أبى وأمى فى أعماقى هذا الضعف المخزى من البُغاة والظالمين !

ثم مضت الأيام فى طريقها المرسوم، ومرت تحت الجسور مياه كثيرة، وتقدمتُ فى السن والتجربة.. فوجدتنى كلما تقدم بى العمر أتفهم شيئًا فشيئًا «حكمة» هذا الضعف والتخاذل من جانب أبوىَّ فى هذا الحادث العابر، واكتشفت عناصر القوة فيه وليس الضعف، ووجدتنى أسترجع موقفهما وكلماتهما بشأنه فى مواقف عديدة فيما واجهت بعد ذلك من تجارب واختبارات، وعرفت يومًا بعد يوم أن من مواقف الحياة ما لا ينبغى لك أن تستسلم فيه لشهوة الرغبة فى الانتصار بأى طريق وإثبات سلامة موقفك.. لأن انتصارك فيها لا يشرفك

كثيرًا، ولأن هزيمتك فيها ربما كانت أشرف لك من الانتصار ! وأنه أيضًا من مواقف الحياة ما لا تشينك فيه الهزيمة أو التنازل عن حقك بنفس راضية، لأن الهزيمة فيها لا تعنى ضعفًا ولا تخاذلاً ، وإنما تعنى تعففًا عن منازلة من هم أضعف منك، أو من لا يشرفك من الأصل الوقوف منهم موقف الخصم والتنازع معهم حول أمر هين من أمور الحياة.. حتى ولو كنت أنت على حق، وهم على خطأ !

إذ ماذا يعنى لك مثلاً «النصر» فى نزاع تخوضه بينك وبين ذوى القربى، أو الأشقاء، أو شركاء الحياة السابقين، أو الأصدقاء القدامى الذين تسببت بعض أمور الحياة فى الاختلاف معهم ؟

وماذا يضير الإنسان إذا تعفف عن منازعة أمثال هؤلاء - ولو كان على حق فى موقفه - حفاظًا على أواصر القربى وعلاقات الأشقاء والأهل، واحترامًا لذكرى العشرة السابقة.. أو الصداقة القديمة؟

إنه أشرف لك فى بعض هذه المواقف أن تعترف كذبًا بأنك قد «ضيَّعت الشلن».. وتتجنب النزاع معهم وترضى نفوسهم بشىء قليل من المرونة والترفع عن الصغائر، فتنأى بنفسك عن أن تقف موقف الخصم فى نزاع علنى مع من هو دونك.. أو مع من تربطك به أواصر الرحم والقربى، أو كانت تربطك به شركة الحياة السابقة أو الصداقة المنقضية.. فإذا كان ذلك «هزيمة» من وجهة نظر البعض؛ فهو على الناحية الأخرى «انتصار» لقيم إنسانية ومعنوية وعائلية جديرة

بالتضحيـة من أجلها بشيء من حقـوقك لو تطلب الأمـر ذلك.. وهو أيضًا تعفف عن منازلة من يسيء إليك أنت - فى المقام الأول - التنازع معهم علنًا على شيء يمكـن تسـويتـه أو الحفـاظ به على بقيـــة الروابط الإنسانية بشيء قليل من التضحية أو المرونة.

وقـد وجـدتنى فيما بعـد أوصـى الآخـرين ونفسى كثيرًا بهذا المنطق «الفاسد» الذى أنكرته فى طفـولتى على أبى رحمه الله، فأنصح قارئًا شكا لى من تعسف شقيقـه واختـلافه معـه حـول تقسيم الميراث، بأن يحاول الاستعـانـة بالأهل وحكماء الطرفين فى حل النزاع بالطـرق الودية، فإذا أعيتـه معـه كل الحيل، فـلا يلجأن بعـد ذلك إلى القضـاء لحسم النزاع، وليسلمن له بما أراد ولو كـان ظالمًا.. لأن وقوفـه أمام شقيقـه فى سـاحـة القضاء لا يشرفه حتى ولو كـان على حق بيّن. ولأن الله بعد ذلك وقبله لا يضيع أجر من أحسن عملًا. وإذا كان شقيقه سادرًا فى غيّه فليسلم له بما ليس من حقه، ولن يبارك له الله فيـه، ولسوف يعوضه ربه هو عنه بما هو خير وأبقى .

واستجـاب الرجل الفاضل لنصيحتى وعمل بها، وسلم لشقيقـه بما أراد.. وكـان الخلاف أصـلاً على تقسيم بعض أصـول الميراث، فحصل الشقيق الظالم على أفضله، وترك لشقيقه ما ظنه هُملًا وخاسرًا.

فلم تمض سنوات حتى زارنى نفس هذا القـارىء وروى لى من أمـر شقيقه الذى فاز بنصيب الأسد من التركـة ما أكَّد لى من جديد أن أعين

السماء لا تنام، وروى لى من أمـره هو ومن نعمـة ربه عليه مـا يشكر الله عليـه آناء الليل وأطراف النهـار، مـؤكدًا لى أنـه ليس شامتًـا فى شقيقـه وحاشاه أن يفعل ذلك، لكنه يشفق عليه من نفسه ومما جَرَّهُ عليه جشعه وطمعه وظلمه لشقيقه من هلاك وديون وأمراض وخسائر .. وما ربك بظلام للعبيد !

وتكرر هذا الموقف معى مـرارًا وتكـرارًا فى تجاربى مع القـرَّاء الذين يستشيروننى فى أمـــورهم، وفى تجاربـى الخاصـــة، ولم أنـدم قط على مشـورتى للآخرين بهذا المنطق «الفـاسد» القـديم ولا على العمل به فى تجاربى الشخصية، بل ووجـدت فيها بعد فى قراءاتـى ما عمّق لدىَّ هذا الفهم الصحيح للحياة الذى عجزت عن استيعـابه فى طفولتى، فقرأت للخليفة العبَّـاسى «المأمون» مثلاً كلمـة غريبـة يقول فيها : «من عـلامة الشريف أن يظلم من فـوقـه، ويظلمـه مـن هو دونه !».. بمعنى أن من عـلامة الشريف أن يصمـد للنزاع والصراع إذا تنازع مع من هو أقـوى منه، وأن يتعفف عنهما إذا اختلف مع من هـو أضعف منه أو أقل شأنًا، ولأن الأشيـاء تعـرف بأضـدادها، فمـن عـلامـة الخسيس أن يتخـاذل ويستضعف أمـام من هو أقـوى منـه، وأن يستأسـد ويتجبَّر على من هو أضعف منه !

كما وجدت فى قراءاتى أيضًا مـا يضيف إلى ذلك إضافة أخرى ثمينة فى قول الإمام «على بن أبى طالـب» كرَّم الله وجهه : «الجبن الحقيقى هو الجُرْأة على الأخ أو الصديق، والنكوص عن العدو ».

وفى قول فيلسوف الصين «لو - تسى» : «قابل الرحمة بالرحمة.. وقابل القسوة بالرحمة أيضًا !».

وإذا كان الفيلسوف «كونفوشيوس» الذى كان معاصرًا له لم يعجبه هذا الرأى وقال : «بل الرحمة بالرحمة.. وقابل القسوة بالعدل».. فلقد كان كلاهما على حق فيما قال برغم ما يبدو لك من اختلافهما فى الرأى، إذ كان «لو - تسى» رجلاً شعبيًّا ، فصاغ مبدأه هذا حسب ما يتعلق بحقوق الإنسان الشخصية.. وكان «كونفوشيوس» رجل دولة وحاكمًا لإقليم، فنظر للأمر من زاوية المصلحة العامة وحقوق المجتمع.

فإذا كان الأمر كذلك.. فلماذا لا تعترف معى بأنك قد ضيعت «الشلن»، فيظنك الجاهل مهزومًا.. ويشهد لك العاقل بالنصر المؤزر، ويعرف لك قدرك وشرفك وتعففك عن الدنايا، ويزداد لك احترامًا، وتزداد أنت رضًا عن نفسك وسلامًا معها.. ومع الحياة ؟!



# إبرة .. وفتلة

كنا فى فجر الشباب، وكان لى صديق طفولةٍ فرّقت بيننا الدراسة الجامعية حين غادرنا مدينتنا الصغيرة بعد الثانوية العامة.. فالتحق هو بجامعة الإسكندرية، والتحقت أنا بجامعة القاهرة.. وتواصلت الصداقة بيننا وتعمقت، وأنهى كل منا دراسته وأقام بشقة صغيرة جميلة فى مدينته، فأصبحنا نتزاور فى مواعيد شبه دورية فنقضى معًا بضعة أيام ليست من حساب العمر . فإذا زارنى فى العاصمة تفرغت لملازمته منذ انتهاء عملى حتى الصباح التالى، وذهبت إلى العمل وأنا أترنَّح من آثار قلة النوم.. وأتعجب لنفسى: كيف استطعت العمل دون أخطاء مع أنى فى غاية الإرهاق ؟!.. ويظل هذا هو شأنى طوال أيام زيارته لى، ومع ذلك فالأوقات سعيدة.. والضحك من القلب لكل لفتة وكل بادرة، والاستمتاع فى قمته بكل شىء نتحدث فيه أو نمارسه. وحين يغادرنى عائدًا إلى عمله ومدينته أعوِّض ما فاتنى من نوم خلال

الزيارة. أما إذا زرته فى الإسكندرية فلقد كنت أشفق عليه من أن تنتهى زيارتى له ذات مرة بفصله من عمله.. فمواعيد عملى بالصحافة كانت تسمح لى بقدر من المرونة والحرية أكبر مما تسمح به مواعيده، وقد كان وقتها يعمل محاسبًا بعقد مؤقت بإحدى الشركات فى انتظار تعيين القوى العاملة.. وما أسهل الاستغناء عنه إذا تكررت أخطاؤه بسبب قلة النوم.. أو إذا تغيب عن العمل بغير عذر. لذلك فقد تنبَّأت له «ببشرى» مؤكدة هى أنه لابد سيفصل من عمله ذات مرة إذا لم يرتب عطلته من العمل مع عطلاتى حين أزوره.

وظل هذا الهاجس - برغم تندرنا به - يهجس داخلى من حين لآخر، حتى اعتدت وأنا فى زيارته أن أفتح باب غرفة نومه فى الصباح حين أستيقظ على هواى فى الظهيرة، فإذا لم أجده فى فراشه «اطمأننت» إلى أن رزقه لم ينقطع بعد وأنه قد ذهب إلى عمله فى سلام!.. ولا يطول الوقت حتى يرجع من عمله مصفر الوجه مرهقًا، فيخطف ساعة أو بعض ساعة من النوم ثم نواصل «الاحتفال»!.. الاحتفال بماذا ؟ لا أعرف على وجه التحديد.. فنحن فى مهرجان دائم لا مناسبة له.. وحديث الذكريات الضاحكة متواصل، ولا هم لنا إلا الاستمتاع بصحبتنا وبمشاغبة صديق طفولتنا الثالث الذى يقيم فى الإسكندرية أيضًا، ويبدو أكثر حرصًا منا على ألا يفقد عمله.. فيختفى فى أماكن

سرِّية بضع ساعات كل يوم لينام ملء جفونه بعيدًا عنا، ثم يلحق بنا لمواصلة الاحتفال بمهرجان الصداقة الصافية والود المتبادل، والقلوب المحبة للحياة.. وكثيرًا ما أشرق الصباح علينا ونحن جلوس على أريكة على كورنيش الإسكندرية وأحدنا يروى للآخرين قصةً انتهى الليل ولم تنته بعد. كما أننا فى حالة «تحالفات» متغيرة باستمرار من يوم إلى يوم بل من ساعة إلى أخرى.. يتآمر فيها اثنان على ثالثنا لتوريطه فى دعوة عشاء، أو إفطار.. أو مكايدته باسترجاع ذكرى معينة لا يحب استرجاعها. ولا استمرار لتحالف أو «عداوة».. فحليفا الأمس قد يصبحان «خصمين» بعد قليل حين تتغيَّر التحالفات.. والنتيجة واحدة فى كل الأحوال، وهى مزيد من الاستمتاع بالصداقة الصافية والقلوب الخالية والمواقف الطريفة.

وذات مساء التقينا نحن الثلاثة، وصديقى المحاسب «غاضب» منى ويشكونى لصديقنا الثالث.. وأنا مبهور الأنفاس من الضحك وأحاول استرضاءه والدفاع عن نفسى وشرح موقفى عبثًا! والحكاية هى أننى استيقظت ذلك اليوم فى الظهيرة بعد سهرة سعيدة مع الأحباء، ففتحت باب غرفة نومه «لأطمئن» على «رزقه» كعادتى خلال زيارتى له، ففوجئت به ممددًا فى فراشه وغارقًا فى النوم ونحن فى الظهيرة.. فماذا يقول لى «عقلى» المشوَّش من أثر النوم سوى أن «أمر الله» قد نفذ، وأنه

قـد فصل بحمد الله من عمله فى اليـوم السـابق ولم يذهب إلى عمله هذا الصبـاح! لقـد شـاء له حظه العـاثـر أن أسمع فى نفس اللحظة وأنا بين النوم والاستيقـاظ - وهـذه الخواطر تلح على - نداء أحـد أصـدقـائنا المشتركين من الشـارع، فخرجت إلى الشرفـة.. فإذا بالصـديق يخاطبنى من الشارع، ويقول لى إنه مر بصـديقى المحاسب فى عمله فلم يجده فيه، ولم يجد من زمـلائـه مـن رآه أو سمع عنه شيئًا منذ أيـام.. فتحـولت «الهواجس» على الفور عندى إلى «يقين».. وصـارحت صديقنا الواقف فى الشـارع بها وقلت له هامسًـا من شرفـة الدور الثالث: يبـدو أنه قـد حدث ما كنت أخشاه.. وفصلوه من عمله !

فلم يسمع صديقنا كـلامى جيدًا لحرصى على ألا أرفع صـوتى أكثر مما يجب مراعاةً لحرج الموضوع.. أو لعله سمعه وأراد أن «يستمتع» أكثر بما سمع.. فاستوضحنـى ما أقول.. فأعدت عليه مـا قلت بصوت أعلى قليلاً: يبـدو أنهم فصلوه !.. فلم يسمع جيدًا أيضًـا - أو هكذا بدا لى - ورجانى أن أرفـع صوتى أكثر وأكثـر وهو يضحك، فلم أجـد مفرًّا من الاستجـابة لرجـاء الصـديق وكررت عليـه الكلمـة المفيـدة من الجملة المقصـودة.. وأكـدت على مخارج الحروف وأنا أنطقهـا لكيـلا أدع مجالاً لأى التباس فى الفهم، وقلت له «هامسًا» بصوت مدوٍّ :

ـ فصلوووه !

فإذا بى أسمع صوت صديقى المحاسب يأتينى من فـراشه صارخًا :
لم يفصلنى أحد .. الله يخرب بيوتكم.. أنا فى عطلة !

ولكن بعد ماذا؟ بعـد أن سمع الجيران كلهم فى «همستى الخافتة» نبأ فصله من عمله بسبب عدم انتظامه فى الذهاب إليه.

ونهض صديقى من نومـه ساخطًا.. وصعد إلينا الصـديق الآخر من الشـارع وشاركنى «مـواساته» وتخفيف وقع ذيوع الخبر الكاذب عليـه، وكـلانا يؤكد له وهو يتكتـم ضحكه أنه لم يسمعه سـوى سكان العمارة والعمارات المجاورة فقط! وكلما ازداد سخطًا ازددنا نحن مرحًا.. ولومًا له لأنه لم يبلغنا نبأ تعطله وانتقـالـه من مكتب الشركـة الرئيسى - الذى سأل عنه فيه صديقه - إلى فرع آخر من فروعها .

وفى المساء انعقدت جلسة العتاب بحضور صديق طفولتنا الثالث.. وفُجع فيه صـديقى المحاسب من البداية حين ضحك للقصـة باستمتاع شـديد بدلاً من أن يغضب لها كما توهـم أنه سيفعل.. واضطر الصـديق المحـاسب فى النهـاية إلى الضحك من الموقف كله.. وقـال - وهو ينفخ من الغيظ- إنه يسلم بحسن نيتى وقلقى عليـه فيما قلت، لكنه «مغتاظ» فقط من «الإخـلاص» الزائد فى مـد حرف الواو فى كلمـة « فصلووه » لكى يفهم من لم يفهم أنه قد تعرض للفصل من عمله، «فابتهجنا» أكثر

بما قـال وضحكنا له، وأضيفت القصـة إلى تراثنـا الضـاحك وتناقلناها عبر الخطابات.

أما أنا فقد تعلمت منها درسًا ثمينًا من دروس حياتى.. ووجدت له ترجمة أمينة فى كلمـة حكيمـة لكاتب أمريكى يقـول فيهـا : لا يكفى أن يكون الإنسان أمينًا ونيـاته طيبة تجاه الآخـرين، بل يجب أن يكون أيضًا متمتعًـا بحسن الإدراك والفهـم.. لأننا قـد نسىء إلى الآخــرين بعـدم الإدراك وبعدم الفهم أحيانًا، أكثر مما قد نسىء إليهم بالقسوة والظلم !

وهذا صحيح تمامًـا.. فلقـد أسأت إلى صـــديقى هذا بعـدم إدراكى لحساسية الحرج الشخصى فى الموضوع وبعدم التحفظ أكثر مما أحسنت إليه باهتمامى بأمره !

ومع هذا الصديق نفسـه شهدت حكاية أخرى بعـد عامين أو ثلاثة تعلمت منها درسًا آخر من دروس الحياة وأضفته إلى خبراتى العملية.. فلقد ساءت عـلاقته - لأسباب لم أعد أذكـرها - بصاحب العمارة التى يقيم بها، وبدأ كلٌّ منهما يكيـــد للآخـــر ويستـدعيـــه لقسم الشرطة فى ادعاءات مختلفـة. وأحسَّ صديقى المحاسب بحاجتـه إلى الحماية، فوثق علاقته بوكيل نيابة شاب من معارفه البعيدين، وأصبح يكثر من زيارته ومن عودته للزيارة، ويكثر من الحديث عنه وعن صداقته له مع البواب والسكان وصاحب العمارة، ويردد اسمه دائمًا متبوعًا بلقب «بيه» فيقول

بلا مناسبـة : «جاءنى أمس فـلان بيه وكيل النيـابة»، أو «كنت أمس فى زيارة فلان بيه وكيل النيابة».. وهكـذا كأنما يقول لمن يعنيه الأمر إنه إذا توسل صـاحب العمارة بمعـارفه من الشرطة لإيـذائه، فسـوف يجد من يدفع عنه هذا الاعتداء من أصحاب الشأن .

ورأيت وكيل النيـابة هذا مع صـديقى فيما بعـد، وكان شـابًّا مهـذبًا ومتزنًـا.. وكان صديقـى يبالغ فى مجاملتـه واحترامه إلى حـد المغالاة فى ذلك أملاً فى مسـاعدته له عند الضرورة، حتى اقترحت عليـه ذات مرة مداعبًا أن يرفع اللافتة النحاسيـة التى تحمل اسمه ووظيفته كمحاسب من باب الشقـة، ويضع بدلًا منهـا لافتـة أخـرى مكتوبًا عليهـا «فـلان الفلانى.. صـديق فلان بيـه وكيل النيابة ».. إمعـانًا فى الاحترام للنيابة ورجالها !

واستمر الموقف على ما هو عليه بينه وبين صاحب العمارة، إلى أن كنا جميعًا - نحن أصدقـاء الطفولة الثلاثة وصديقـه الجديد فلان بيه وكيل النيـابة - فى مسكنه ذات مسـاء.. ففـوجئنـا بطرق شـديد على البـاب، وفتحنا فوجـدنا صاحب العمارة والبـواب وشرطيًّا جاء يدعـو صديقنا للذهاب إلى قسم الشرطـة للتحقيق فى بلاغ كيـدى جـديد مقـدم من صاحب العمارة! واحتدّ صديقى على صاحب العمارة.. فهجم كلٌّ منهما على الآخر يريد الاشتباك معه، وأسرعنا نحن بالحيلولة بينهما، وتجاذبنا

هذا بعيــدًا عــن ذاك، وتدافعنا جميعًــا شمالاً ويمينًــا حتى استطعنا التفـريق بينهما بصعـوبة بالغـة.. ثم دعـونا صـاحب العمارة ومن معـه للتفـاهم بالحسنى وإنهاء هذا النزاع الذى لا طائل تحتـه.. وقبل الرجل التفـاهـم إكـرامًــا لنا، وتعهـد بأن يرضـى بحكمنا فى النزاع بينه وبين صديقى، فناشـدت الجميع الهدوء وأن يشرح كلٌّ منهما مبرراته لما فعل، فتنازعـا على من يبدأ منهما الكلام.. وكـادا يتشـابكان مرة أخـرى حتى نجحنا بجهد جهيد فى تهدئـة الموقف وإقناع صاحب العمارة بأن يسمح لصـديقنا بالكلام أولًا، فما إن همَّ وهـو فى قمـة الانفعـال والتـوتر بأن يتحدث؛ حتى فوجـىء بصديقه وكيل النائب العام - وكـان جالسًا إلى جواره - يقول له هامسًا :

- إبرة .. وفتلة !

فـالتفت إليه صـديقى المحـاسب متصـورًا أنه يلفت نظره إلى شىء مهم فى موضوع النزاع المعروض وسأله بعصبية : ماذا تقول ؟

فأجابه الآخر بنفس الهدوء والرزانة : إبرة .. وفتلة !

فلم يفهم شيئًا وكرر عليه التساؤل : ماذا تقول ؟

فأجاب وكيل النيابة فى ثبات بأنه فى حاجة إلى إبرة وفتلة ليخيط بهما زرارًا انفـرط من قميصه خـلال عملية فض الاشتبـاك بين المتنازعين،

لأنه لا يستطيع الخروج إلى الشـارع بقميص «مفركش» بعـد انفراط أحد أزراره على هذا النحو !

فإذا بصـديقى المحـاسب الذى طالما حرص على المبـالغـة فى مجاملة وكيل النائب العام الشـاب واحترامه، ينفجر فيه فجأة بلا مـراعاة لأى اعتبارات ويقول له صائحًـا بانفعال شديد: وهل هذا وقته ؟ وهل هذا مـا تساهم به فى فض هذا النزاع؟.. ألا تقـول شيئًا ؟ ألا تفعل شيئًا؟.. ألا ...؟

وبهت وكيل النيـابة الشـاب، وغضب مـن صـديقى غضبًـا هائـلاً وانتفض واقفًـا يريد الخروج ومغـادرة الشقـة.. فسـددنا عليـه الطريق ورجوناه ألا يستسلم للانفعـال، وأن يقدر لصديقنا الضغـوط العصبية الشـديدة الواقعـة عليه فى هذه اللحظة ! ولكن هيهـات.. فلقـد أحس وكيل النائب العام بأن كرامتـه قد جرحت.. وظل عابسًـا صامتًا طوال الجلسة، ثم انصرف غاضبًا وفترت علاقته بصديقى بعد ذلك .

تأملت هذا الموقـف بعـد ذلك طـويلاً.. وسـاءلـت نفسى: ألم يكن مطلب وكيل النيابة من صديقـه عادلاً.. ومشروعًا.. وضروريًّا؛ لأنه لا يستطيع فعـلاً أن يغـادر المكان بمظهـر غير لائق به وبكرامـة منصبـه؟ ووجدت الجواب دائمًا إنه كان كذلك بالفعل !

إذن فلماذا ثار عليه صديقنا هذه الثورة الهائلة؟.. بل ولماذا استأنا نحن أيضًا من مطلبه هذا لحظتها ؟

ووجدت الجواب فى عبارة شبيهة بعبارة ذلك الأديب الأمريكى وهى : «إنه لا يكفى أن يكون مطلبك عادلاً ومشروعًا لكى تناله أو تحصل عليه.. وإنما ينبغى أيضًا أن تتخير الوقت المناسب الذى تتقدم فيه به إلى من يملك تحقيقه.. وإلا بدا طلبك له سخيفًا وسمجًا ومرفوضًا ، وتلقيت الرد عليه.. كالصفعة !». والمطلب كان مشروعًا مائة بالمائة.. لكن التوقيت كان خاطئًا أيضًا مائة بالمائة.. فوقعت الأزمة بين الصديقين وفترت الصداقة مع أن النية كانت طيبة.. والمطالب كانت عادلة.. لكن النية الطيبة وحدها لا تكفى ؛ فلابد أيضًا من حسن الإدراك وحسن الفهم وحسن اختيار الوقت الملائم لكل مقال ، ولكل كلام ..

وما زلنا نتعلم كل يوم من دروس الحياة وتجاربها التى لا بداية لها ولا نهاية .. وشكرًا !

# تحت المظلة

تعلمت من ذكريات طفـولتى البعيدة درسًا عجيبًـا هو أن أبتعد عن «المشاهير»، وأن أتكتم أية صلة شخصية أو عائلية لى بهم إن وجدت .

تسألنى كيف ؟.. أجيبك بـأن هكذا قـد علمتنى التجـربة المؤلمة وأنا طفل صغير ! فلقد كان لمدينتى الصغيرة التـى نشأت فيها فريق «شهير» لكرة القدم ، كان أبطاله نجـومًا تلمع فى السماء فى مخيلتنا .. وننظر إليهم نحن الصغـار وكأنهم آلهة تمشى على الأرض ! وقد كـانوا -بالضرورة- يمشون فى الأرض ليسعوا على أرزاقهم لأن الكـرة وقتها لم تكن تعرف المرتبـات والمكافـآت وهدايا المشجعين ، وكـان الجميع هواة يعملون فى حـرفهم المختلفـة ، أو يدرسـون فى مـدارسهم .. فكـان من بينهم بائع الفـاكهـة فى السـوق ، والحداد الذى يطرق الحديد السـاخن بالمطرقـة، ونجار الموبيليـا .. وكهربائى المنازل .. والطالب بالمدرسـة الثانوية .. أو بالمعهد الأزهرى الثانوى .

وكـان الجميع يمضـون النهـــار فى أعمالهم أو مـدارسهم ؛ حتى إذا

فرغوا منها توجهـوا إلى ملعب المدينة الوحيد، أو بالأحرى إلى «سوقها» المملوكة لشركة الأسواق الإنجليزية .. والتى تتحول كل يوم خميس إلى مكان لبيع وشراء الماشية . وفى الملعب يبدأ «الأبطال» فى الثـالثة من بعد ظهـر كل يـوم تدريبهم اليـومى ليستمـر حتـى مغيب الشمس وحلول الظلام. ولم تكن هناك تدريبـات ليـاقـة بدنيـة ، ولا تدريبًـا على خطط اللعب ولا غير ذلك من هذه «التقـاليع» الكروية الحديثـة ، وإنما كـان التـدريب عبارة عن مبـاراة حـاميـة بين فريقين من اللاعبين تستمـر ٣ سـاعـات على الأقل، وتنتهى بمنـافسـة بين اللاعبين على التسـديد على المرمى .. ونحن الأطفال نتحلق حـول الملعب واقفين - حيث لاتوجد مقاعـد ولا أماكن للجلوس - نتابع «التـدريب» باهتمام شديد، ونرقب «الآلهة الأبطال» بانبهـار، ونستجـدى منهم بعـد نهاية اللعب كلمـة أو إشارة تُظهر للآخرين معرفتهم الشخصية بأحدنا لكى يتيه بها فخرًا بين الرفاق !

ويستمر هذا البرنامج اليـومى إلى أن يجىء موعـد المباراة المنتظر كل أسبـوعين أو ثلاثة .. ونترقب نحن هذا الموعـد التاريخى بصبر نافـد .. ونتلمس مقـدمـاته ومـؤشراته السعيـدة بلهفـة شـديدة . وكـانت هذه المقدمات تبدأ دائمًا بفـرقة من كنّاسى البلدية تقوم بكنس الملعب وإزالة روث الماشيـة ومخلفـات السـوق منـه ، ثم يجىء اثنان أو ثلاثـة من

«الأبطال» أنفسهم صباح يوم المبـــاراة وهم يحملون دِلاءً مملوءة بالجير الأبيض ليقـومـوا بإعـادة تخطيط الملعب ورسم دائـرة الوسط ومنطقـة الجزاء ، وتركيب الشباك فى المرميين العاريين .

ثم يجىء عمال الفِــراشـــة.. فيقيمـــون على جـــانب خط التّماس فى منتصف الملعب سرادقًا أو مظلة كبيرة .. ويضعون المقـاعد المؤجرة من دكـان الفـراشـــة استعـدادًا لاستقبـال كبـار شخصيـات المدينة الذين سيشاهدون المبـاراة ، وكان فى مقدمتهم دائمًا مأمـور الشرطة وضباطه، وقـاضى المدينة، ووكلاء النيـابة، وطبيب المستشفى، ومهندس البلدية، وأعيـان البلدة من كبـار الملاك والتجـــار .. وهؤلاء سـوف يشـاهدون المباراة جلوسًـا فوق المقاعـد تحت المظلة التى تقيهم من لهب الشمس .. بل إنهم أيضًـا ـ ويـاللحظ السعيـد ـ سـوف توزَّع عليهم زجـاجـات الكوكاكـولا المجانية بين الشـوطين مثلهم فى ذلك مثل لاعبى الفريقين الذين سيمضـــون فترة الراحـة بين الشـــوطين فى أرض الملعب لأنه لا مكان آخر لذلك.. ولا غرف لخلع الملابس ولا حمامات للاعبين !

أمـا «العامـة» من أمثـالنا وباقى سكان المدينة؛ فلسـوف يشـاهدون المباراة وقـوفًا حـول الملعب من كل الجوانب .. وبلا أدنى تعب أو كلل من الوقـــوف الطويـل لسـاعتين أو ثـلاث! ولا مشكلة فى ذلك ، وإنما ستكون المشكلة الحقيقيـــة هى مشكلة حكم المبـــاراة الذى سيقـــاسى

الأَمَـرَّيْن طوال المبـاراة لإبعـاد الجمهـور إلى مـا وراء خطوط التماس ، وسيستعين فى ذلك بَخيّالَة الشرطة عدة مرات ، فيستجيب الجمهور كل مرة ويرجع للخلف بضع خطوات، ثم لا يلبث أن يُنسيـه حماسه حدود الملعب فيعود لاجتيازها ومشـاهدة المباراة من داخل الملعب وليس من خـارجـه؛ حتى ليحتـاج اللاعـب الذى يرمى رميـة التماس إلى إرجـاع المشجعين بضع خطوات للوراء كل مرة !

ولا بأس بذلك .. فـالسيطرة على الجمهـور المتحمس بجنون للكرة ولفـــريق بلده «الشهير» مستحيلة.. ونحـن فى الملعب منذ الصبـــاح الباكر.. وقد تعلمت من درس التجـربة أن أجر ورائى مقعدًا من البيت إلى الملعب لأجلس عليه بين الواقفين كما يفعـل بعض الأعيان الذين لا مكان لهم تحت المظلة .

واللحظة الحاسمــة ستأتى حين يصـل إلى الملعب مــوكب الأبطال الفــاتحين - وهم بمـلابـس اللعب - ومعهم الكرة والحكام ولاعبــو الفريق الضيف وهو غالبًا من إحدى المدن المجاورة . والنادى الرياضى الذى يلعب هؤلاء الأبطال له اسمه «نـادى فاروق الرياضى» على اسم «فاروق الأول» ملك مصر قبل ثورة يوليو ١٩٥٢، ومقـره شقة أرضية من غـرفتين ببيت قديم بالطرف الآخـر من المدينة !.. والنظام المتبع هو أن يخلع اللاعبون أصحـاب الأرض والضيوف مـلابسهم فيه ويرتدوا

ملابس اللعب، ثم يسيروا على الأقدام من مقر النادى إلى الملعب وسط «زفـــة» كبيرة من أطفـــال المدينة والمشجعين تجوب شـــوارع المدينة وأسـواقهـا وسط تشجيع البـاعـة الجائلين وعمال المحـال حتى تصل للملعب ، ولا سيـارات أتوبيس مكيفـة الهواء تنقلهم إلى أرض المبـاراة ولا أى شىء آخر من هذه «الخزعبلات» الحديثة .

وبوصـول الأبطال إلى أرض الملعب يرتفع حماس الجمهـور الواقف إلى السماء، ويبـدأ التشجيع الجنونى للاعبين خلال التسخين .. ثم تبـدأ المباراة، ويقف مسـاعدا الحكم وسط الجمهـور الواقف على الخط أو فى «أحضـانه» بمعنى أصـح.. وهما دائمًا من أنصـاف الآلهة لأنهما لاعبـان قدامى. أمـا «الراية» التى يشيران بها للحكم خلال المبـاراة فهى المنديل الأبيض الخاص بكلٍّ منهما، وهما يشيران بـه لاحتســاب الأخطاء عند اللزوم، ويجففان به عرقهما باقى الوقت !

أمـا الحكم فهو غـالبًا مـوظف الإسعاف بالمدينة، وهو لاعب كـرة سابق أيضًا وشديد العصبية ويخشاه الجميع.

ثم تبدأ المباراة.. ويبدأ معهـا حماس الجمهور فى التصاعد شيئًا فشيئًا حتى يصل إلى حد الجنون .

وفى كل الأحـوال فـلا مفـر من الفـوز أو التعـادل على الأقل.. أمـا الهزيمة فعار لا يمكن القبول به، وقد تؤدى إلى كارثة أمنية يطيح خلالها

خيالة الشرطة فى الجمهـور الغاضب لتفريقـه أو لإبعاده عن لاعبى الفريق الضيف حتى لا يفتك بأحدهم !

ومع كل ركلة قدم تتصـاعد آهات الاستحسـان وعبارات التشجيع من الجمهـور الذواقـة لفنون اللعـب.. وحين يتصـدى «بُرهامى» نجم خط الدفـاع لهجوم «الأعـداء» ويفسـده مبعـدًا الكرة بقوة عن منطقـة الخطر؛ تتعالى صيحات الجمهور بانفعال شديد : يا ولد .. يا دَكر !

وحين يرتمى حـارس المرمى - الحداد « محمـد حسن »- على الكرة ويقتنصها من بين أقـدام المهاجمين؛ أسمع من يقسم بـأن «محمد حسن» هذا راضـع من ثـدى أمـه حتى الشبـع وليس مـن أبناء جيـل اللبن الصناعى الهش !

وحين يجرى «الشيخ عبـد العـزيز» بـالكرة؛ يثير عـاصفـة من الاستحسـان والضحك فى نفس الوقت للتنـاقض الواضح بين بدانتـه وقصره وبين سرعتـه الفـائقـة فى الجرى.. فأسمع من بين الجمهـور من يقسم بأنه أسرع لاعب فى مصر، وأنه لو كـانت الأمـور تجرى بالعـدل لكان أبرز لاعبى منتخب مصر !

أمـا حين يتلقى نجم الهجـوم - نجـار الموبيليـات «يونس» - الكرة ويراوغ المدافعين أمام المرمى؛ فقـد كان حماس الجمهـور يصل حقًّا إلى

حد الهوس، وأسمــع من يقسم بالطلاق بأن «يونس» هذا لم تسحب وَلّادَة طفــلاً مثله من بطون الأمهـــات !.. وســواء نجــح «يونس» فى التسجيل أم أخفق .. فهو موضع إعجاب الجميع.. ولابد أن ينال منهم عبارات الاستحسان والتمجيد!

لاعب واحـد فقط فى الفـريق كان لسوء حظه - وحظى معـه - لا ينصفـه الجمهـور المتحمس أبدًا ولا يعفيـه من اللوم والسخط والسب واللعن طوال المبـاراة ســواء أجـاد أم أخفـق .. وكـان هذا اللاعب هو سبب عقدتى الطفولية من «المشاهير» وقرابتهم ! فقد كان ابن عم أبى، وكـــان ضئيل الجســم ضعيف البنيـــة ، ومن أولئك الــلاعبين الذين لا يبذلون جهدًا كبيرًا فى الملعب؛ ومع ذلك يتمسَّك بهم المدربون لارتفاع مهـاراتهم الفنيـة ولقــدرتهم على اقتناص هدف فى أية لحظة من المبـاراة يغفل فيهـا عنه الدفـاع . وهذا النوع من اللاعبين يحظى غـالبًا بسخط الجمهور وغضبـه، لأنه بسبب حـرفيته ومهاراتـه العالية يصنـع لنفسه فرصًا عديدة للتسجيل ، وبسبب ضعف لياقتـه فقد يضيعها تباعًا ، ولا ينجح فى التسجيل إلا بعــد أن يكون قد نال من سبـاب الجمهور مـا لا يمسح عنه «عاره» تصفيق المشجعين للهدف الذى أحرزه!

وحين شاهدت أول مباراة يشارك فيهـا قريبى هذا الذى كان يلعب دائمًا فى مركــز الجناح الأيمن؛ حرصت على انتهاز أول فرصــة لإعلان

قـرابتى له للجمهـور الواقف حـولى مترقبًا مـا سـوف أناله من احترامٍ وتكريمٍ يليقـــان بمن ينتسب بصلـة القـــرابة لأحـــد هؤلاء «الآلهة» المحبـوبين، ولم ألحظ لغفلتى نظرات السخـرية المكتـومـة فى عيـون من تفـاخرت أمـامهم بقـرابتى له .. أو لم أفهمهـا بمعنى أدق .. ثم لم تمض دقائق على المبـاراة حتى بدأ قريبى النجم يضيّع فـرص التسجيل واحدةً وراء الأخرى، وبدأ الواقفـون من حولى ينهالون عليـه بأفحش السباب دون مـراعـاة لمشـاعـرى ولا لقـــرابتى لهذا «الإله» الذى تصـورت أن الانتساب إليـه شرف ما بعـده شرف .. فشعرت بحرج شـديد وخجل أشد، وتبخر مـن نفسى إحساس الفخر والاعتزاز مع تصـاعد السباب واللعنات .. وزاد من حـــرجى وخجلى أن الجمهـــور كـــان يسب هذا اللاعب بلقب الأسرة الذى أشاركـه فيه وليس باسمه الأول .. فتضرج وجهى بالاحمرار حين سمعت أحدهم يصيح بأعلى صوته : خربت بيتنا يا «مطاوع» الله يخرب بيتك يا بـن ..! فتلفتُّ حـولى محاذرًا أن يكون من بين الواقفين أحـدٌ من أصـدقـاء الطفولـة حتى لا يرانى فى هذا الموقف «العصيب» !

ولسـوء حظى فقـد لازم النحس قـريبـى النجم طوال هذه المبـاراة بشكل عجيب، فـازدادت جرعـة الشتائم والسبـاب الفاحش إلَى مـا لا نهاية، ولم أجـد مفرًّا من الانسحـاب، فتسللت من المكان الذى أجلس

فيه ساحبًا ورائى مقعدى إلى موقع آخر من الملعب لا يعرف فيه أحد «سرى» هذا !

ولم يكن الحال فى الموقع الجديد بأحسن منه فى القديم، فلقد تواصلت عبارات السباب الفاحش حتى ندمت على مجيئى للملعب من الأصل، وتوهمت أن الواقفين حولى سيفتكون بى لو عرفوا صلتى العائلية بهذا اللاعب.. ودعوت الله من أعماقى أن يفك نحسه لكى أسترد بعض كرامتى الضائعة. واستجابت السماء لتوسلاتى الصامتة، فنجح قرب نهاية المباراة فى تسجيل هدف التعادل، وهاج الجمهور فرحًا وانفعالاً ورقصًا.. فتأهبت لأن أبوح للواقفين حولى بالسر العائلى الذى تكتمته عسى أن أسمع كلمة تشجيع أو استحسان ترد علىّ بعض كرامة أسرتى الجريحة، فإذا بأحدهم يصيح بأعلى صوته : كفَّارة يا مطاوع.. كفَّارة يا بن..! يقصد بذلك أنه قد كفّر بهذا الهدف عن بعض خطاياه خلال المباراة وليس عنها كلها، وأن هدفه الذى تصورتُ أنه سيعيد الود المفقود بينه وبين الجمهور لم يَمْحُ جرائمه السابقة.. فانكتمت فى موقعى وازددت انكماشًا وتخاذلاً، ورجعت إلى بيتى أجرّ أذيال الخيبة، وتجنبت الحديث عن المباراة وما جرى فيها مع أصدقاء الشارع.

وتعجبت حين جاء هذا اللاعب بعد ذلك بأيام لزيارة أبى وبدا

واثقًا من نفسه!.. كيف لم يستشعر كل هذا السخط الجماهيرى عليه؟.. وكيف يرضى لنفسه ولـ «عائلته» بهذه «المهانة» ؟!

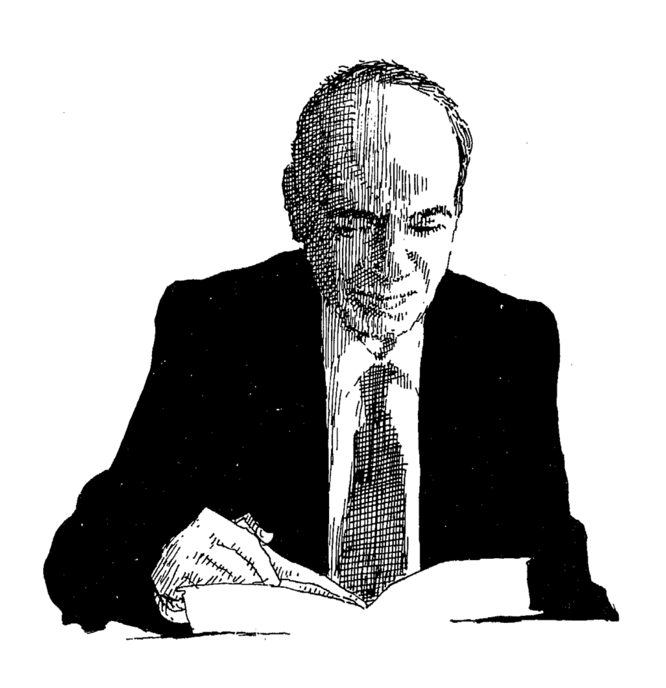
وبرغم حبى الشخصى لهذا القريب؛ فقد تعلمت من «المحنة» بنفسية طفل صغير أن «مجابهة الجماعة ليست من الحكمة» كما يقول الدكتور «محمد حسين هيكل» فى مذكراته، وتعلمت ألا أفخر بقرابة أى إنسان ما لم أتأكد من قبول الآخرين له ونيله رضاهم. وظللت طوال طفولتى وصباى أشهد مباريات فريق الآلهة بغير أن أشير من بعيد أو قريب إلى صلتى العائلية بأحد نجومه.. رضى عنه الجمهور أم سخط !

ثم هجرت مدينتى الصغيرة هذه وأنا دون السابعة عشرة لألتحق بجامعة القاهرة، وتخرجت وعملت بالصحافة، واستقرت حياتى بالعاصمة القاهرية.. فإذا بى أقرأ ذات يوم خبرًا عن عودة فنان شاب اسمه «كرم مطاوع» من بعثته الدراسية فى إيطاليا وبدئه نشاطه الفنى فى السينما والمسرح والتليفزيون، فاستيقظت الذكريات القديمة فجأة فى أعماقى وقلت لنفسى : تانى ! قريب آخر من المشاهير يتعرض لرضا الجمهور على عمله أو سخطهم عليه وأسمع «بأذنى» عبارات الاستحسان أو اللعن له !

لكن خبرة السنين كانت قد علمتنى شيئًا ثمينًا آخر، وهو أن «الشخص العام» الذى يطرح عمله على الآخرين لابد أن يخضع

لأحكامهم عليــه وتقييمهم لعمله بغير أن يثير ذلك أيـة حسـاسيـات شخصيـة أو «عـائلية» لأحـد! ولا غـرابة فى ذلك لأنه قـد ارتضى من البداية بخـروجه من دائـرة المغمورين إلى دائـرة المعروفين أن يكون كل شىء فى عمله - بل وفى حيـاته الشخصيـة أيضًـا - قـابلاً للنقـد أو الاستحسان، فيصبح من حق الآخـرين أن يعجبوا به أو يلعنوه دون أن تشعر أنت بالفخر الشخصى لإعجابهم، ولا «بالعار العائلى» للعناتهم.. ولو كنت قد أدركت هذه الحقيقة فى طفولتى لما أفسدت على نفسى متعة مشاهدة مباريات فريق الآلهة بتأثـرى بلعنات الجمهور لقريبى صاحب الجناح الأيمن المسكين رحمه الله، ولا كنـت قـد كتمـت قـرابتـى له عن أصدقائى الصغار بضع سنين .

وأيًّا كـان السبب فى تخلصى من آثار هذه العقـدة الطفـوليـة، فلقـد اعتـززت دائمًا بفن الفنان «كـرم مطاوع» ابن عم أبى وإن كنت لم أكتب كلمـة واحـدة عنه أو عن أعماله الفنيـة التـى نالت إعجـابى دائمًا طوال ثلاثين سنة أو أكثر.. ربما استشعارًا للحرج الشخصى من أن أكتب عنه وهو قريبى؛ فيتشكك البعض فى موضوعية ما أكتبه عنه وحياده.. وربما تأثرًا «بالعقدة» القديمـة التى أورثنى إياها ابن عمه لاعب الكرة القديم رحمه الله .. الله أعلم !



# نقطة تحوُّل

فى حياة كل إنســان منا لحظة أو لحظات قدرية غيرت - من حيث لا يحتسب - مجرى حيـاته، أو كـان لها أبلغ الأثـر فيها اتخذ من طريق بعـد ذلك فى الحياة. قد تكون هذه اللحظة موقفًـا استفز فيه شرارة التحدى، وقد تكون كلمة شاردة سمعها فـوقعت من نفسه موقعًا أعمق كثيرًا مما بدا للآخـرين.. وقـد تكون إنسـانًـا التقى به على غير انتظار؛ فكان لهذا اللقـاء الطارىء أبعد الأثر فى شخصيتـه وأفكاره ورؤيته للحيـاة.. فإذا توقف بعـد سنوات طويلـة ليراجع حيـاته ذات يوم، استطاع أن يقـول صـادقًا عن تلك «اللحظة» : إنها كـانت نقطة تحول أسـاسية فى حيـاته. وربما تسـاءل أيضًـا : تُرى فى أى اتجاه كـان يمكن أن يمضى طريقى فى الحياة لو لم أستمع إلى هذه العبارة الشاردة، أو لم ألتق بهذا الإنسان .. أو لم يستفزنى ذلك الموقف ؟

ولأننى من هواة قراءة السير الذاتية للمفكرين والعلماء الناجحين فى كل مجالات الحياة، وأجد فيها دائمًا ما أستفيـد به، فقد اعتدت - خلال

قراءاتى لقصص حياة هؤلاء المشاهير - أن أتوقف دائمًا أمام نقطة التحول هذه فى حياتهم.. وأتأملها طويلاً متعجبًا من تصاريف القدر، ومجددًا إيمانى الدائم بأن للأقدار دائمًا كلمتها العليا فى حياة الإنسان، وأنه ليس للمرء إلا أن يعمل بإخلاص ويكافح بإصرار فى الحياة، وعليه أن يدع بعد ذلك أمره لخالق الكون يَصَرِّفُهُ كيف يشاء .

خذ مثلاً ما رواه الأديب والفيلسوف الراحل الدكتور «زكى نجيب محمود» عن حياته فى كتابه العذب «قصة نفس». لقد كان صبيًّا ضعيف النظر؛ يعانى أشد المعاناة من ضعف إبصاره.. ومع ذلك فهو يواصل دراسته الابتدائية بلا كلل.. وبلا تفوق أيضًا.

ثم حدث ذات يوم وهو فى الرابعة عشرة من عمره أن جاء صديق لأبيه لزيارته، فجلس الصديقان يتجاذبان أطراف الحديث فى شئون الحياة المختلفة، والصبى الصغير يتحرك فى الجوار بحيث يسمع ما يقولان.. فإذا الصديق ينصح الأب نصيحة مخلصة بأن يكف عن تعليم ابنه هذا بالمدارس لأن ضعف إبصاره سوف يحرمه من فرصة التعيين ذات يوم فى وظائف الحكومة، وهى هدف التعليم الوحيد فى رأيه.. فإذا لم يكن من سبيل إليها ذات يوم فما معنى العناء فى الدراسة.. وما معنى الإنفاق على تعليم هذا الفتى فى المدارس الحديثة ؟

ولقد كانت وجهة نظر هذا الصديق «منطقية» من الناحية النظرية،

وكـان من غير المستبعـد أن يستجيـب لها الأب، أو يسلم بها الفتى نفسه بعد قليل وهـو يعانى ما يعانيه من ضعـف النظر خلال دراسته.. لولا أن هذه النصيحة نفسها كانت هى نقطة التحوُّل الأساسية فى حياة الدكتور «زكـى نجيب محمود»!.. وقد كتب عنهـا وعن هذه «اللحظة» بعد خمسين عامًا أثرى خلالها الحياة الفكرية فى بلده والوطن العربى كله بالعـديد من المؤلفـات الأدبيـة والفلسفية فقـال : «فإذا بهذه النصيحـة تؤلمنى أشد الألم.. وبدلاً من أن تكون سببًا فى إحباطى وتثبيط عزيمتى، إذا بها تصبح حـافـزًا لى على مضاعفـة القـراءة لكى أثير الغيظ فى نفس قـائلها، حتـى أصبحت القراءة من حيـاتى بمثـابة الروح من الجسـد». وواصل الفتى دراسته بتفـوق حتى تخرج فى الجامعة وأوفـد فى بعثة إلى بريطانيـا وحصل على الدكتـوراه فى الفلسفة، وأصبح من أكبر وأشهـر أساتذتها بالجامعات العربية.

وخذ أيضًـا ملحمة كفـاح أستاذة الأجيـال الدكتـورة «عائشـة عبد الرحمن» مع التعليم وقـد تعـددت اللحظات القدرية فيهـا، ابتـداءً من رفض أبيها الشيخ التحـاقها بالمدرسـة الأولية بدميـاط، حتى استعانت عليـه والدتها بشيخه وإمـامـه فى التصوف الذى لا يرد له كلمـة، فقبل كارهًا التحـاقها بالمدرسة بعـد تجاوزها سن القبول ببضع سنوات.. إلى اصطحاب أمها لها من دمياط إلى المنصورة لكى تحاول إلحاقها بمدرسة

المعلمات هناك، فترفض المدرسة أيضًا لتجاوزها السن المقررة.. وبدلاً من أن ترجع الأم يائسة إلى مدينتها؛ إذا بها تتجه إلى محل صائغ فى المنصورة لتبيع فيه أسورتها الذهبية.. ثم تصطحب ابنتها المنذورة للعلم والفقه والأدب – بغير أن تدرى – وتتوجه إلى القاهرة لتحاول إلحاقها بمدرسة حلوان.. إلى أداء «بنت الشاطىء» لامتحان الكفاءة سرًا – بغير علم أبيها – من منازلهم، فتجىء الأولى على القطر كله وبفارق ١٥٠ درجة عمن يليها فى الترتيب.. إلى استجابتها لنصيحة ممتحنيها بالاتجاه إلى التعليم الحديث لكى تستطيع الالتحاق بالجامعة ذات يوم. وكان ذلك يتطلب منها معرفة اللغة الإنجليزية التى لا تدرى عنها شيئًا، فتجهد نفسها فى محاولة دراستها، وتدخل امتحانها وهى تعتمد اعتمادًا أساسيًا فى ذلك على موضوع الإنشاء الذى حفظته عن ظهر قلب وكان عن كتاب «السندباد البحرى».. ويبدأ الامتحان، فإذا بها تنسى معنى كلمة «نسر» بالإنجليزية، وهى كلمة تتردد كثيرًا فى الموضوع، فتسلم باليأس من اجتياز الامتحان وتحقيق أمل الالتحاق بالجامعة ذات يوم، فإذا عينُها تقع عَرَضًا على قلم الرصاص الذى تستعين به فى تسطير الإجابة فتجد عليه كلمة «نسر» باللغة الإنجليزية EAGLE لأنها علامته التجارية! وإذا غيوم اليأس تنقشع فجأة.. فتعود لمواصلة الإجابة بحماس وابتهاج لتنجح فى الامتحان، وتواصل طريق التعليم الحديث حتى نهايته.

ثم تكتب «بنت الشاطىء» بعد ٦٠ عامًا أو تزيد عن هذه اللحظة القدرية فى حياتها، فتقول : إنها لم تكن تعرف ماذا يدفعها إلى طريق الجامعة وهى الغريبة تمامًا على بيئتها الأزهرية، لكنها - وبعد هذه المسيرة الطويلة فى الحياة - تعرف الآن جيدًا ما الذى كان يدفعها إليها.. وهو أن تلتقى فيها بقدرها الذى ينتظرها فى رحاب الجامعة، وهو أستاذها ومعلمها وزوجها ووالد أبنائها الأستاذ الإمام «أمين الخولى» أستاذ الأدب العربى بكلية الآداب - رحمه الله - والذى حصلت - كما تقول هى - «برعايته على الماجستير والدكتوراه عن أبى العلاء المعرِّى ورسالة الغفران، وتعلمت عنه منهجه السليم فى البحث والنظر العلمى فى القرآن ».

ترى.. فى أى اتجاه آخر كانت ستمضى حياتها لو لم تقع عينها عرضا على كلمة «نسر» بالإنجليزية على مؤخرة قلم الرصاص الموضوع أمامها على مائدة الامتحان ؟

خذ أيضًا قصة حياة الشاعر المعروف باسم «أبى همام» وهو الأستاذ الجامعى بكلية دار العلوم الدكتور «عبد اللطيف عبد الحليم». لقد كان مقدرًا له أن يواصل طريق التعليم الأزهرى حتى نهايته ليصبح ذات يوم أستاذًا أو شيخًا لأحد المعاهد الدينية.. لكنه كان - إلى جانب دراسته الأزهرية - يقرض الشعر ويهوى الأدب، فقربه إليه أحد

أساتذة المعهد النموذجي للأزهر الذى يدرس به - وهو الأستاذ «محمد خليفـة التونسى» - وشجعـه على كتـابة الشعـر، وكان «التـونسى» من مريدى الأستـاذ «العقاد» ومن رواد ندوته الأسبوعية صبـاح كل جمعة، فـاصطحبه ذات يوم إلى نـدوة «العقاد»، وقـدمـه إليه وشجعـه على أن يسمعه بعض أشعـاره.. فتهيب الفتى أن ينشد شعره أمـام «العقاد»، ثم استجمع شجـاعتـه فى النهـايـة وأنشـده إحـدى قصـائـده، فطرب لها «العقاد» وأثنى عليها، ثم سأله عرضًا بطريقته المألوفة فى الكلام :

ـ أين تدرس يا مولانا ؟

فأجابه الفتى بأنه يدرس بالمعهد النموذجى للأزهر تمهيدًا للالتحاق بكليـة الشريعة.. فإذا «العقـاد» يقـول له فى هدوء : ادخل دار العلوم يا مولانا !

وإذا بهذه النصيحـة العـابرة تغير مجرى حيـاة هذا الشـاب تغييرًا جـذريًّا؛ فيحسم الصراع المحتـدم فى نفسـه بين ميله المكتـوم لدراسـة الأدب، وبين توجهه الطبيعى لدراسة الفقـه والشريعة، فيقرر الالتحاق بدار العلوم بالفعل، ويمضى سنواته الأولى بها منصرفًـا إلى الشعر أكثـر من انصرافه للدراسة، وينتقل من سنة دراسيـة إلى أخرى بلا تفوق، إلى أن يجيء عامه الجامعى الأخير، فيحثـه أساتذته على الاجتهاد لكى يُعيَّن معيدًا بالكليـة، ويستجيب للنصيحة لكيـلا يفارق بيئة دار العلوم التى

وجد فيها نفسه .. فيتخرج متفوقًا ويعين معيدًا بالكلية، ويوفد فى بعثة إلى إسبانيا ويتعلم الفرنسية والإسبانية، ويحصل على الدكتوراه فى الأدب المقارن.. وينظر إلى حياته بعد ٤٠ عامًا أو أكثر من هذا اللقاء الأول مع «العقاد» فيجدها قد تغيرت من حال إلى حال، ومن طريق إلى طريق آخر مخالف تمامًا لما كانت تنبىء به البدايات.. ويجد السر وراء كل ذلك فى تلك اللحظة القدرية التى أنطقت أستاذه «العقاد» بهذه الكلمات المقتضبة :

- ادخل دار العلوم يا مولانا !

أما الأديب المحقق والمؤرخ العظيم «أحمد أمين» الذى أثرى المكتبة العربية بالعديد من المؤلفات القيمة - وأشهرها سلسلة (فجر الإسلام، وضحى الإسلام، وظهر الإسلام، ويوم الإسلام)- فلقد جاءته هذه اللحظة القدرية التى غيرت مسار حياته فى أحد مقاهى القاهرة ذات أصيل وهو يجالس أستاذه «أحمد بك أمين»، وكان من كبار رجال التعليم فى زمانه ويحمل أيضًا نفس الاسم ! وكان «الشاب أحمد أمين» قد نشأ أزهريًا وتخرج فى مدرسة القضاء الشرعى وعمل معيدًا بها، فكان يلقى على طلبته دروس علم الأخلاق معتمدًا فى ذلك على مذكرات ترجمها عن الإنجليزية أستاذه وعميد المدرسة «عاطف بركات»؛ لأنه لا إلمام له بأية لغة أجنبية. ثم حدث أن التقى بصديقه

وأستاذه «أحمد بك أمين» ذلك اليوم فى أحد المقـاهى؛ فراحا يتسامران.. وأشـار «أحمد بك» فى حديثـه عـرضًا إلى أنه قـد عثـر على كتاب باللغـة الإنجليزية لمستشرق أمريكى اسمه «ماكدونالد» عن التاريخ الإسلامى ونظام الحكم فى الإسـلام والفقه الإسـلامى، وأنه كتـاب قيم ومنصف للإسلام. فإذا هذا الحديث العارض يستثير مشاعر الشاب «أحمد أمين» ويجدد أزمتـه مع نفسـه وهو يرى زمــلاءه من أسـاتذة العلوم الحديثـة بمدرسـة القضاء يستفيدون فى إعـداد محاضراتهم بما يقرأون فى المراجع الإنجليزية والفرنسية؛ فى حين لا يعرف هو إلا المراجع المترجمة.

وإذا بهذه اللحظة يكون لها أبلغ الأثر فى حيـاته؛ فيكتب عنهـا بعـد أربعين عـامًا فى كتـابه الممتع «حياتـى» فيقول : «فـاستفزنى الموضـوع، وقلـت لــ «أحمد بـك أمين» : هـل تستطيـع أن تـذهـب معـى الآن إلى المدرسة «برليتـز» لأرتب دروساً لى فى الإنجليـزية؟.. فقبل ، وأقسمت أن أتعلم وأن أقرأ هذا الكتاب بلغته. وذهبنا إلى المدرسة، ورتبنا دروسًا ثلاثة بمائة وخمسين قـرشًا فى الشهـر . واشتريت الكتاب الأول، وتولت تعليمى سيـدة إنجليزية يظهـر عليهـا أنها فقيرة الحال ، وبذلتُ فى ذلك مجهـودًا شـاقًّـا.. فكنت أقـرأ فى البيت وأحفظ فى الطريق.. وأذاكـر إذا كنت مـراقبًا فى الامتحـان ، أو مشرفًـا على حصة ألعـاب رياضيـة . ثم وُفِّقْتُ بعـد ذلـك إلى سيـدة إنجليـزية أخـرى كـان لها أعظم الأثر فى

نفسى.. وكانت مس «بور» فى الخامسة والخمسين من عمرها، ومثقفة وفنانة. وتوثقت الصلة بيننا فكأننى كنت من أسرتها. ولم تكن تعنى بى من ناحية اللغة الإنجليزية وآدابها فحسب ، بل تشرف أيضًا على سلوكى وأخلاقى! وقد لازمتها أربع سنوات استفدت خلالها كثيرًا من عقلها وفنها ، ولكننى لا أظن أننى استفدت كثيرًا من تكرارها على مسمعى أن أتذكر دائمًا أننى شاب !

فماذا كنت لو لم أجتز هذه المرحلة ؟ لقد كنت ذا عين واحدة (يقصد ثقافة عربية واحدة) فأصبحت ذا عينين : عربية وأوروبية . وكنت أعيش فى الماضى، فصرت أعيش فى الماضى والحاضر .. فأنا مدين فى إنتاجى الضعيف فى الترجمة والتأليف والكتابة لهذه المرحلة بالذات بعد مراحلى الأولى».

ولقد كانت الشرارة الأولى لهذه المرحلة فى حياته وما تلاها من مراحل بلغ خلالها كرسى الأستاذية بكلية الآداب ـ جامعة القاهرة ، ثم كرسى العمادة بنفس الكلية، ومنصب مدير إدارة الثقافة بالجامعة العربية، إلى جانب ما صار له من شأن أدبى وفكرى لا يقارن به أى منصب .. كانت الشرارة الأولى فى كل ذلك هى جلسة المقهى تلك وحديث أستاذه العارض فيها عن كتاب ذلك المستشرق الأمريكى !

وشبيه بذلك أيضًا ما رواه عميد الأدب العربى، الدكتور «طه

حسين» فى رائعتـه «الأيام» حين بدأ يتحـول عن الأزهـر يائسًـا من نيل شهادة العالمية ، وراح يختلف إلى الجامعـة المصرية القديمة ، ويستمع إلى محاضراتها كمستمع حـر ، فلقد كان يحتـاج دائمًـا إلى مـن يصطحبه إلى الجامعة ، وكان حرسها يرفض دخـول غلامه معه، فيتسابق زملاؤه إلى أن يأخذوا بيده إلى قـاعة المحاضرات ، وكان أكثـرهم حرصًا على ذلك صـديق أزهرى لـه.. فأخطأ قيـادته ذات مـرة إلى قـاعـة المحـاضرات الصحيحة ودخل به خطأً محاضرة عن الأدب الفرنسى باللغة الفرنسية، ولم يكن الاثنان يعرفـان منها حرفًا واحـدًا .. فوقع الحديث من نفسيهما مـوقعًا غـريبًـا، ولم تَعِ ذاكـرتيهما سوى كلمـة واحـدة ترددت كثيرًا فى المحاضرة هى كلمـة «لافونتين»، وهو شـاعر رومـانسى فرنسى كبير.. فراحا يترقبـان انتهاء المحاضرة على أحر من الجمـر، ثم انطلقا خارجين منها بعـد انتهائهـا وهما يتندران على حالهما، ويسميـان قاعـة المحاضرة تلك باسم سجن «لافونتين» لأنهما سجنا فيه بلا ذنب ساعتين كاملتين.

كـانت هذه المحـاضرة هى آخـر عهـد هذا الصـديق بمحـاضرات الجامعة المصرية .. فانصرف عنهـا يائسًا . أما «طه حسين» فكان له شأن آخـر ؛ إذ قـرر فى تلك اللحظة التى غـادر فيها القـاعـة ألا يرضى بهذا السجن مرة أخرى، وأن يتعلم الفرنسية حتى يفهم ما يقال بها . وبحث لنفسه عن مـدرس يعلمه مبادئها الأوليـة، ثم واصل الطريق إلى نهايته

بعد ذلك حتى حصل على الدكتوراه من الجامعة المصرية ، ثم أوفد إلى جامعة «السربون» ليحصل منها على الدكتوراه أيضًا ، وهناك فى العاصمة الفرنسية يلتقى بقدره الذى كان ينتظره ؛ حيث قابل الفتاة الفرنسية «سوزان» التى قدر له أن تشاركه حياته حتى اللحظة الأخيرة، وأن تشهد صعود نجمه إلى السماوات العلا فى عالم الأدب والفكر والسياسة .

وكانت شرارة البداية أيضًا فى هذا الطريق الطويل هى خطأ الصديق فى تحرى قاعة المحاضرات الصحيحة ودخوله «سجن لافونتين»، فكان لهذا الخطأ الباهر أجمل النتائج فى حياة «طه حسين» وتاريخ الأدب الحديث على السواء !

ولا ينتهى الحديث عن مثل هذه اللحظات القدرية والمصيرية فى حياة الإنسان .. فابحث أنت أيضًا يا صديقى عن هذه اللحظة التى سوف يتغير عندها مجرى حياتك، وترقبها فى وعى ويقظة لكيلا تفلت منك.. لكى تحقق بها – ومنها –أفضل النتائج وأكثرها خيرًا وفائدة لك.. وللحياة معًا .



سجاير وحلويات
شكاوى
الجمهور

# الأستاذ « ديكارت »

من بين ذكريات طفولتى البعيـدة، تقفز صورة هذا الرجل وتتراءى لى فى مخيلتى فى بعض الأحيـان ! أما الرجل فقد كـان - حين سمعت به ورأيته لأول مرة - فى العشرينيات من عمـره . وقد عرفت من أمره أنه فشل فى دراسته فشلاً ذريعًا وحـار أهله معه ، إذ بلغ سـن الشباب ولم يحصل على أية شهـادة ترشحه لأية وظيفـة ، ولم يتعلم حرفـة تضمن له عملاً ، وحتى لو كـان قد تعلم حرفة فهيهات أن يقبل بـالعمل حِرَفيًّا ، وهو مـن يعتبر نفسـه «أفنديًّـا» برغم فشلـه الدراسـى، ومن «ذوى الأمـلاك» مع أن الأسرة كلها لم يبق لها من مـوارد العيش سوى قطعـة أرض زراعيـة صغيرة لا ترى بـالعين المجـردة، ولا تفى باحتيـاجـاتها الأساسيـة. ولولا البيت القديم الصغير الذى ورثتـه الأسرة وتقيم به ، لانكشف المستور وهتكت الأستار التى تحميها عن أنظار الآخرين !

وقد سـاهم تعثره الـدراسى عامًـا بعد آخر وتـردى أحوال الأسرة الاقتصادية مع تقدم زملائـه السابقين فى طريقهم الدراسى حتى بلغوا

المرحلة الجامعيــة، فى تعقيــد شخصيته إلى أقصى حــد.. فأصبح شــديد الحســاسية لأية مقــارنة بينه وبين غيره من الناجحين ، وشــديد التحفــز لأية كلمــة أو إشــارة من هؤلاء الــزمــلاء الســابقين يشتم فيهــا رائحــة الاعتزاز بتفــوقهم الدراسى أو المعايرة له بالفشــل ، حتى ثقلت صحبته عليهم بعد طول صبر عليه . ولولا تخوفهم من تفسير ابتعادهم عنه بأنه لم يعد جــديرًا بصحبتهم بعد أن أصبحوا طلبــة جامعيين، لما اقترب منه أحد أو تحمله .

ثم أخطأ أحــدهم - وكــان قــد التحق بقســم الفلسفــة من كليــة الآداب- وحيّاه حين رجع فى إجازة الصيف مداعبًا :

ـ أهلاً يا أستاذ « ديكارت » !

فاعتبر تشبيهه بالفيلسوف الفــرنسى إهانةً كبرى له ، وإيماءةً إجرامية من زميله لتذكيره بأنه يدرس الفلسفة.. فــانفعل انفعالاً جنونيًّا، وانهال عليه سبًّا ولعنًا وتحقيرًا ، على الرغم من محاولات زميله الاعتذار وتأكيد حسن نيته له !

وتكررت مــواقف مشــابهة لذلــك بينه وبين زمــلاء آخـــرين حتى أصبحت صحبته عبئًــا نفسيًّا لا يطيقونه ، فــانصرف عنه بعضهم آسفين على ما تدهور إليه من حساسية مفرطة وعدوانية غير مفهومة تجاههم.. فقابل هو ذلــك باعتزال الجميع؛ معلنًا أنه لم تعد تليــق به صحبة هؤلاء

التلاميـذ «المفاعيص» ، وهو رجل ناضج من «ذوى الأمـلاك» خليق به ألا يصاحب إلا الرجـال من كبار التجار والمحامين والأطبـاء وموظفى الحكومة !

وتعـويضًـا لما يشعـر به من نقص وضـآلـة شأن ؛ ربى شـاربًا غليظًا اكتملت له به - مع نظرة الغطرسـة والترفع التى اكتسبهـا - هيئة رجل خطير ! وأصبح وكأن لا عمل له فى الحياة سـوى تأكيد أهميته وخطورة شأنه؛ فـراح يمشى فى الطريق بوقار مفتعل وهو يحمل صحيفـة الأمس أو صحيفة الأسبوع الماضى ؛ لأنه لا يقدر على شراء الصحيفة كل يوم! ويدخل كل مأتم يصادفه ليقدم العزاء لأهله ولو لم يكن يعرفهم ، وكل فـرح يقـام بالمدينة ليقـدم التهنئـة لأصحـابه، فيجلس بين المدعـوِّين فى كبرياء ويتحدث عن «مشاغله» العـديدة والمجهود الكبير الذى يبذله فى الإشراف على أرض الأسرة الزراعية .. أو «العزبة» كما كـان يقول عنها .. إلخ . ثم ينصرف بعد قليل معتذرًا «بضيق الوقت» ، ويخرج فى جلال تشيعه الابتسـامات السَّاخـرة من وراء ظهره ؛ لأن الجميع يعـرفون أن «العزبة» ليست سوى فتات قطعة ميكروسكوبية من الأرض .. وأنه لا عمل له ولا دور فى الحياة .

وقد استنام إلى حيـاة الفراغ هذه بعض الوقـت، وكلما طال عهده بها ازداد تعقـدًا .. وتعـاظمًا .. وحسـاسيـةً فى التعـامل مع الجميع ، حتى

خشيت عليــه أمـه الجنون ، وراحت تلح عليـــه بضرورة أن يعمل أى عمل لينشغـل به، ويسهـم فى تحسين أحـــوال الأسرة المتردية.. وكلما استعانت عليه بأحـد فى هذا الشأن؛ رد عليه فى تكبُّـر : وأين هو العمل الذى يليق برجل مثلى ؟ هل أعمل عاملاً فى محل .. أو فى ورشة ؟

وأخيرًا جـاء الحل الموفـق السعيـد، وهو أن يعمل تاجــرًا فى تجارته الخاصة فـلا يكون لأحد سلطان عليـه سواه .. فإذا كـانت الظروف لا تسمح باستئجار محل ملائم فى شارع رئيسى.. إذن فليُهدم حائط الغرفة الأمامية بالدور الأرضى من بيت الأسرة لتصبح محلًّا مناسبًا له .. وأما السلع وتكاليف إعـداد المحـل، فلسـوف تتكفل بها الأم بعـد بيع آخـر قطعـة من حليِّهـا الذهبية .. فـلا يبقى بعـد ذلك سـوى أن يوظِّف هو عبقريته فى هذه التجارة ويصنع نجاحه بنفسه، ويشعر بأهميته وجدارته.

وتم ذلك بالفعل ..

وخلال وقت قصير كـان قد تم إعـداد المحل وشراء السلع البسيطة التى تكون رأس مـال تجارته ، ولم تكن قيمتها تزيد وقتهـا على ستين أو سبعين جنيهًـا على الأكثر، ولا تتعـدى بعض علب البسكويت الشعبى والحلوى الرخيصـة والسجائر وبعض الخردوات .. وبرغـم ذلك فلقد حرص على أن يميـز محل تجارته بشيئين «يتناسبان» مع وضعـه المميز فى

الحيـاة ومستـواه «الثقـافى» المختلف عن مستـوى أمثـاله من أصحـاب الحوانيت الصغيرة. أمـا الشىء الأول فهــو مكتب أثرى ضخم مطعَّم بالصـدف ويصلح - برغم رثـاثتـه - لأن يكون مكتبًـا لرئيس محكمـة النقض، ولعلَّه كان مملوكًا لجده الأزهرى .. وقـد وضعه فى صدر المحل فبدا غريبًـا وسط هذه البضائع التافهة .. ووضع عليـه لوحة تحمل هذه العبارة الشهيرة : اتق شر من أحسنت إليه !

وأما الشىء الثانى فهو صندوق بريد خاص فى حجم صناديق البريد العمـومية ، ولا أعـرف كيف حصل عليه أو كيف صنعـه .. وقد علقـه على الحائط إلى جـوار باب المحل وكتـب عليـه بفـرشـاة الطلاء عبـارة عجيبة هى : «شكاوى الجمهور» ! وكأن الرجل حاكم ديمقراطى يحكم هذه المدينة الصغيرة ويحل مشاكل جماهيرها ويسمع لآرائهم ! وهيهات أن يجرؤ أحـد على ســؤاله عن معنى هـذا الصندوق أو ضرورته.. ولو تجرأ أحــد وفعل ذلك؛ لأجــابه برزانة تليق بـرجل خطير مثله - وكما شرح هو بعـد ذلك - بأنه ما دام قـد اختـار العمل بالتجارة ، فلسـوف يتعامل مع «الجمهور» كل يوم، وسيكون لهذا الجمهور بعض الشكاوى بالضرورة من سـوء الخدمـة أو من نوعيــة بعض السلع أو من طريقـة التعامل إلخ .. واحترامًـا منه لآراء الجمهور ومـلاحظاته؛ فقد خصص هـذا الصنـدوق لتلقـى هـذه الآراء والملاحظـات ودراستهـــــا

بعناية، ثم الرد عليها بما يحقق مطالب الجمهور ويرضى الجميع ! ولا غرابة فى ذلك لأن هذا هو الفارق بينه وبين التاجر الجاهل الأمى الذى لم يُعَمِّرْ فى المدارس مثله لـ ١٥ عامًا أو يزيد !

ولأن البلاغة هى ملاءمة الحال لما يقال .. فلقد بدا صندوق شكاوى الجمهور هذا قمةً فى التعبير «البليغ» عن جنون العظمة والانفصال عن الواقع اللذين تملَّكا هذا الشاب البائس بالرغم من سلامة المبدأ نفسه كمبدإ مهم من مبادىء علم التسويق والتجارة، إذ إن من سيتعاملون معه لن يعدو أن يكونوا من الأطفال الذين يشترون منه بالقرش ونصف القرش ، أو من السيدات الأميّات اللاتى سيشترين منه بكرة خيط بقرشين ! فماذا يدعو هؤلاء ـ حتى لو استطاعوا ـ لأن يسطروا ملاحظاتهم وشكاواهم له على الورق ويلقوا بها فى الصندوق، وصاحب المحل يجلس أمامهم لا يجد ما يفعله معظم النهار ، ويستطيعون مواجهته شفويًّا بما يريدون من ملاحظات !

لقد كان هذا الصندوق العجيب هو قمة الانفصال حقًّا عن الواقع ، والإحساس بمركب النقص ومحاولة تعويضه بادعاء الأهمية والمسئولية أمام «جماهير» البونبون والعسلية الغفيرة !

وبالطبع؛ فلقد ظل الصندوق خاويًا من يوم تركيبه إلى ما لا نهاية، كما ظل المحل نفسه - ولا عجب فى ذلك وعقلية صاحبه هكذا -

كاسدًا لا يكاد يربح شيئًا ، ولا تحمل رفوفه من السلع إلا أقل القليل .. كما ظل «الأستاذ ديكارت» قابعًا وراء المكتب الفخم معظم ساعات اليوم بلا عمل يشغله سوى قراءة الصحيفة القديمة ، أو التظاهر بمراجعة حسابات المحل باهتمام شديد فى دفتر أسود كبير لا يتناسب مع وضع المحل البائس كلما مر به أحد من معارفه أو زملائه القدامى .

وراح العمر يتقدم به وحاله يتدهور من سيىء إلى أسوأ، وقد ازداد مع الأيام تعقيدًا وتكبُّرًا حتى أصبح ينظر للجميع فى ازدراء وتعالٍ غير مفهوم .. ولا يتناسب أبدًا مع منظره المثير للرثاء وهو وسط المحل الخالى وخيوط العنكبوت تتدلى حوله من السقف والرفوف كصورة مجسمة للخيبة والعجز عن فهم حقائق الواقع والتواؤم معها .. وكصورة مثيرة للتأمل أيضًا لجنون العظمة الذى ينطوى دائمًا – وفى نفس الوقت– على نقيضه، وهو جنون الشعور بالاضطهاد.. لأنه – ببساطة – لو لم تكن «عظيمًا» لما اضطهدك الآخرون – كما يتوهم دائمًا المصابون بهذا الداء!

أما الصندوق فلقد رأيته فى مكانه بجوار باب المحل آخر مرة منذ ثلاثين عامًا وفتحته مسدودة بالتراب والطين الذى تخلف عن المطر عامًا بعد عام .

وأما الرجل نفسه فلا أدرى ماذا صنعت به الأيام بعد ذلك، وهل

واصل الاستسلام لجنون العظمة والكبر حتى النهاية؛ أم علمته الأيام مالم يكن يعلم .. فعرف أن الكبر قرين الكفر لأنه اجتراء على مقام الله سبحانه وتعالى.. «المتكبر» الوحيد الذى يحق له حقًّا وصدقًا أن يتكبر ! وبرغم ذلك فهو - جل فى علاه - الرءوف الرحيم بخلقه . أما باقى البشر - ومهما بلغ بهم شأنهم - فهم أفراد ضعاف تهزمهم بعوضة حقيرة ، أو فيروس تافه لا يرى تحت الميكروسكوب المكبِّر.. ويبكون كالأطفال أمام الألم، ولا يملك أحدُهم لنفسه شيئًا ، فإن كان لبعضهم ما يعتزُّ به من مزايا، «فمن مدحك فإنما قد مدح مواهب الله عندك.. فالشكر لمن منحك وليس لمن مدحك» ، كما قال صادقًا «ابن عطاء الله السكندرى» فى «الحكم العطائية».

وأما لماذا أتذكر هذا الرجل وتقفز صورته إلى مخيلتى فى بعض الأحيان ؛ فلأنه صاحب فضل شخصى عَلَىَّ من حيث لا يدرى ، لأننى قد رأيت فيه نموذجًا مجسمًا لما يفعله التكبر والغرور والانفصال عن الواقع بالإنسان ، وكيف يحيله إلى سخرية للآخرين فى نفس الوقت الذى يتوهم فيه أنه موضع احترامهم!.. كما أتذكره أيضًا لأننى قد أرى فى الحياة نماذج مكررة له تتعامل مع الدنيا بنفس منطقه .. وأوهامه .. وغروره .. فأسترجع على الفور صورة الأستاذ «ديكارت»، ومشهد

صندوق بريـده الذى ظل ينتظر شكاوى الجمهـــور بلا طـائل سنوات طوالًا !

وأبتسم للذكـــرى .. وأردد وراء شـــاعـــر الإنجليـزيـة الأعظم «شكسبير» كلمتـه الحكيمـة : «إن الغـرور هو نعمـة الله على أصحـاب النفـــوس الضعيفـــة» !.. وأقـــول لنفسى إن هــذا صحيح تمامًـــا لأنه يعوضهم عن ضعف نفوسهم ، وفقر معنوياتهم وفضائلهم .. فيمضون فى الحيـاة وهم يتـوهمون أنهم «كـائنـات جليلة الشأن» لا يجود الزمـان بمثلها إلا قليـلًا ، وهم فى الحقيقة أشخاص تافهـون .. وبؤساء معنويًّا ونفسيًّا.. وحالهم يصعب على كل صاحب قلب حكيم !



# لا تَنْسَ وضع الغطاء

شكا لى صديق من بعض تصرفات ابنه الشاب التى تثير سخطه عليه وأعيته الحيل معه لكى يقلع عنها !

أصغيت باهتمام شديد لما ينكره صديقى على ابنه من سلوكيات وعادات خاطئة، فروى لى عنه إنه شاب «مستهتر» و «غير منظم» و«غريب الأطوار».. مما يثير قلقه ومخاوفه بشأن مستقبله ونجاحه فى الحياة. أما علامات استهتاره وغرابة أطواره- كما حكاها لى الأب الصديق - فهى أنه لا يلتزم أبدًا «باللائحة الداخلية» غير المكتوبة لنظام الحياة داخل البيت؛ فى حين يلتزم بها الأبوان وشقيقته الصغرى وشقيقه الطفل . وفى حين يرجع الجميع من أعمالهم أو مدارسهم فيخلعون أحذيتهم بجوار باب الشقة ويضعونها فى الدولاب المخصص لذلك، فإن فتانا الشاب يخلع حذاءه فى أى مكان، ويلقى بجوربه عليه.. وقد بح صوت أبيه وأمه من رجائه كل يوم أن يضع حذاءه فى دولاب الأحذية !.. وعلى عكس ما تفعل أخته أو أخوه، فإنه يخلع ملابسه

ويلقيهـا أيضًـا فى أى مكان حيثما اتفـق؛ مع أن الشماعـة إلى جـواره ويستطيع بغير عناء أن يعلق ملابسه عليها ليحافظ على النظام فى بيته !

أمـا فى الصباح حين ينهض من نومـه؛ فإنه يغسل أسنانه بالفرشـاة، ولا يمكن أبدًا – مهما كـررت عليه أمـه وأبوه الرجاء – أن يعيـد غطاء أنبـوبة معجـون الأسنان إلى مكانه .. مع أنه يعـرف أن تركهـا مفتوحـة يؤدى إلى جفـاف المعجـون وتلفه ! كما أنه يرجع مـن كليته متلهفًـا على تناول طعام الغداء، وبدلاً من أن يشارك الأسرة غذاءها حول المائدة كما يفعل الأبناء «الصـالحون»؛ فإنه يملأ طبقـه مما يحتاج إليه مـن طعام، ثم يجلس على الأرض ويتناوله بتلذذ شـديد عازفًا عـن الجلوس إلى المائدة مع باقى أفراد الأسرة؛ ومبررًا ذلك بأنه يستريح هكذا !

ويفعل نفس الشىء أيضًـا حين يستـذكـر دروسـه.. فـلا يجلس إلى المكتب المخصص له؛ وإنما يذاكر دروسه فى أى مكان من الشقـة جالسًا على الأرض أو فوق السرير، أو مضطجعًا على «الفوتيل».. وكلما طالبته أمـه بالجلوس إلى المكتب لأن هذا أفضل من الناحيـة الصحيـة؛ أجـابها بأنه «سعيد هكذا».

ومع إنه متـوسِّط القامـة أو يميل إلى القصر، إلا إنه يرفض نصيحـة أبويه بتجنب ارتداء الملابس الواسعـة المتهـدِّلة عليـه حتى لا يبدو فيهـا مثل «فطوطة» الذى يرتدى ملابس أخيه الأكبر ، ويفضل دائمًا الملابس

المتهدلة ؛ لأنها مريحة.. ولأنه أيضًا «يستريح هكذا» ولا يرى بأسًا فى أن تبدو ملابسه واسعة بغض النظر عن اتفاقها مع بدع الملابس الشبابية أو تعارضها معها!.. كما إنه يكره ارتداء البدلة الكاملة مع أن لديه بدلتين اشتراهما أبوه له لحضور المناسبات العائلية وأفراح الأسرة، ويكره ارتداء ربطة العنق أيضًا كراهية التحريم، وفشلت معه محاولات أبويه لإقناعه بارتدائها فى مناسبة مهمة كعرس أحد من الأهل. كما إنه متقلِّب الهوى والمزاج أيضًا.. ففى كل سنة له هواية جديدة تستغرقه وينشغل بها حتى يظن الأهل أنها قد أصبحت هوايته الأساسية، فإذا به يزهدها فى الصيف التالى وينبهر بهواية جديدة ونشاط آخر! وبعض هواياته غريبة وغير مألوفة، فأحيانًا يجمع أغطية زجاجات المياه الغازية، وأحيانًا يجمع علب السجائر الفارغة مع أنه لا يدخن أبدًا والحمد لله.. وأحيانًا يجمع أغلفة قطع الشيكولاتة والبسكويت ويصنع منها أشكالاً مختلفة.. وهكذا!

وسألنى الأب الصديق وسُحُب القلق تتجمع داخله : تُرى؛ هل تنصحنى بعرضه على طبيب نفسى ليساعدنا فى توجيهه إلى ما فيه خيره وصلاح أمره ؟.. فابتسمت وأنا أستعيد فى مخيِّلتى صورة هذا الابن الشاب الذى التقيت به أكثر من مرة وترك فى نفسى انطباعًا طيبًا من اللحظة الأولى . ثم سألت الأب المهموم :

- هل تنكر على ابنك هذا شيئًا فى دينـه وخلقه أو التـزامـه بدراستـه ورؤيته للحياة ؟

وفــوجىء الأب بســؤالى للحظـات، وبدا لى كما لو كـــان يراجع فى مخيلتـه «حساب» ابنه مع الحيـاة قبل أن يجيبنى، ثم قـال لى مترددًا إنه لا ينكر عليه شيئًا من ذلك فى الحقيقة، فـالحق إنه على الناحية الأخرى من كل هذه «الأطوار الغـريبـة» شـاب متــدين تدينًا صحيحًـــا باعتـدال وسماحة، ويؤدى صلواته ويصوم شهره، وينفر من الحرام بكل أشكاله؛ وأولها الكذب والخداع وإيذاء الغير. كما إنـه دمث الطبع ورضىُّ النفس ويتعـامل مع الآخـرين بحب واحترام، وينطوى على قلب عطوف تجاه أخويه الأصغر منه وأبويه وأهله والضعفـاء من الناس بصفة عامة.. كما إنه يحترم من هو أكبر منه سنًّا ولا يناديه باسمه إلا مسبوقًا بكلمة «يا عم فلان» ولو كـان أقل الناس شأنًا.. فهو لا يعـرف الكبر والاستعلاء على من هم أدنى منه درجة اجتماعيًّا، ولا يشعر - فى الوقت نفسه - بالنقص تجاه من هم أكثـر منه ثراء ومكانة اجتماعية، ولا يعـرف الحقد عليهم أو على أحـد، وإنما - على العكس من ذلك - يـرى فى أبيـه أعظم الرجـال مهما كـانت قـدراته الماديـة، وفى أمـه أفضل النسـاء مهما كـان وضعهـا الاجتماعى.. وينجذب تلقـائيًّا وبخيط سحرى خفى إلى أهل أبيـه وأمه ويحبهـم مـن قلبـــــه. كما إن رؤيتــــــه للحيـــــاة فى إجمالها

سليمة، فهو لا يرى غاية الدنيا الأولى فى الشراء الفاحش والملابس الغالية والسيارة الفخمة، وإنما يراها فى السعادة والحياة بين من يحبهم ويحبونه مهما كانت الأوضاع المادية والاجتماعية لهم. كما إنه أيضًا «كريم» بما فى يده، و«شهم» لا يتأخر عن أداء واجب مجاملة لأحد من الأهل أو الأصدقاء ولا عن زيارة مريض، أو الوقوف مع صديق له فى محنة طارئة. وحين يكون «ميسورًا» فى أول الشهر فإنه لا يبخل على أخويه بإعانة صغيرة أو سلفة لا ترد.. أو هدية بسيطة.. وحين ينفد مصروفه قبل نهاية الشهر فإنه لا يطلب المزيد ولا يتذمر أو يتسخط؛ وإنما يحبس نفسه فى البيت فقط ويستغنى عن نزهته الخارجية إلى أن «يقبض» مصروفه ويرجع لممارسة نظام حياته المعتاد !

نظرت إلى محدِّثى الذى نسى هواجسه ومخاوفه السابقة فى غمار حديثه عن سمات ابنه الطيِّب المستقيم، واتسعت ابتسامتى أكثر وأكثر وأنا أقول له لائمًا : وماذا تريد فى ابنك الشاب هذا من فضائل جليلة، ومثل عليا عائلية وإنسانية وأخلاقية أكثر من هذا ؟.. وماذا تطلب منه لكى يحقق لك الصورة المثلى لشاب فى مثل سنه وظروفه وعصره؟.. إنه شاب طيب القلب، رضىّ الخلق، مستقيم الطبع، سليم الوجدان.. يحيا فى طاعة الله، وضميره الأخلاقى والدينى حىّ ومتيقظ، وإحساسه العائلى قوى وحار، ورؤيته للحياة صحيحة وسليمة وحكيمة !..

أما بعض العـادات الشخصية ، والسمات التى تنكرهـا عليه، فحتى لو كـانت غير صحيّـة أو مخالفـة للائحـة الحيـاة داخل الأسرة، فإنها فى النهـاية هنّات هامشية ولا تمس الجوهر الأصيل فيـه، ولا ينبغى لها أبدًا أن تنقص من جـدارته بفخـرك واعتـزازك به.. فـالكمال لله وحـده يا سيدى، وليس فى الحياة كلها إنسان «كامل الأوصاف» تمامًا إلا فى شعر الشعـراء وغـزل المحبين. ولابد دائمًا من القبـول ببعض الاختـلاف فى طبائع الشباب وعاداتهم الشخصيـة لأنهم مختلفون أصلاً عنًّا ولا يمكن لهم أن يكرروا صورتنا بكل تفـاصيلها فى الحيـاة، ولا هو من العدل أن نطلب منهم ذلك .. وبالتـالى فـلابد أن تختلف بعض عـاداتهم وسماتهم وطباعهم عن طباعنا وعاداتنا الشخصية .

وفى هذا الاختـلاف نفسـه سر تجدد الحيـاة وتدفق الميـاه الجديدة فى نهرها، وعنصر أصيل مـن عناصر تفـردهم وتميـز شخصيـاتهم عن شخصياتنا.. فالبشر ليسوا كقوالب الطوب المتماثلة فى كل شىء، ولابد دائمًا من أن تختلف بعض عـادات الكبار وطبـائعهم عن بعض عـادات الشباب وطبائعهم وأسلوبهم فى الحيـاة.. وما دام هذا الاختلاف فيها لا يمس جوهر الالتزام الدينى والخلقـى والإحساس بالواجب؛ فلا ضير فيـه ولا ملام.. إذ مـاذا يجدى الإنسان لو كـان ابنه الشـاب منحرفًـا أو مستهترًا فى قيمه الدينية والأخلاقية أو فاشلاً مثلا فى دراسته، وكان على

الناحية الأخرى ملتزمًا تمام الالتزام بنظام الحياة داخل الأسرة، فيخلع ملابسه ويعلقها على الشماعة، ويضع حذاءه فى المكان المخصص له، ويغلق أنبوبة معجون الأسنان بعد استعمالها ؟

وماذا يعوض الإنسان عن مثل هذا النقص الأخلاقى لو كانت كل عاداته بعد ذلك متوافقةً مع النظام فى البيت ومريحةً للأهل والأسرة ؟

أما هذه العادات التى تراها «غريبة الأطوار»؛ فإن تمسك بعض الشباب بها برغم انتقاد الأهل الدائم لها قد يعبر فى أحد وجوهه عن رد فعل عكسى لخطأ بعض الآباء والأمهات فى انتقاد كل ما يصدر عنهم من سلوكيات وتصرفات ولو كانت هيِّنة وبسيطة كهذه التصرفات. إلى جانب أن هناك تأثيرًا لا شك فيه لنزعة جبر التكرار التى قد تسيطر على العقل البشرى أحيانًا؛ وتدفع الإنسان لتكرار بعض ما ينكره عليه الآخرون.. أو بعض ما لا يرضى هو نفسه عنه ويود لو يتخلَّص منه . لكن الانتقاد الدائم لا يعينه على ذلك، وإنما يدفعه من حيث لا يدرى إلى تكراره.. أو نسيان تعليمات الأهل بشأنه كنوع من احتجاج العقل الباطن على جعله هدفًا دائمًا للانتقاد من جانب الأهل بحق وبغير حق.

إن بعض الشباب فى الخارج يعبرون عن نزعة الاحتجاج هذه بتعمد الإغراب فى مظهرهم وأشكالهم ووجوههم.. فيحلقون رءوسهم بالموسى، أو يهملون قصها نهائيًّا حتى يصبح شعرهم مثل شعر

البنات.. أو يرسمون على وجوههم دوائر وأشكالاً سيريالية عجيبة، أو يطلون وجوههم بلون أبيض كلون الدقيق، أو يتخـذون شكلاً شيطانيًا فى حواجبهم وقرون الشعـر المدببة فى رءوسهم.. لكن هذا بلاء آخر لا وجه لمقارنته بمظاهر الاحتجاج النفسى البسيطة المألوفة عندنا؛ كنسيان تعليمات الأهـل بشأن خلـع الحذاء فى المكان المخصـص لـذلك. ومـن ناحيـة أخرى؛ فإن لكـل إنسان عـاداته وطبـاعه وتفـرده الخاص الذى ينبغى لنا أن نعترف له بحقِّـه فيه ونتسـامح معه فى ذلك مـا دام لا يؤثر على التزامه الخلقى والدينى.

أما «النقـائض» و «العيوب» والهوايات الغريبـة المختلفة التى يتنقل بينهـا ابنك الشاب من سنة إلى أخـرى، فـلا شىء فى كل ذلك، ولا هو مـؤشر لأى انحـراف نفسى أو خطر محتمـل يمكن أن يؤثر على نجـاح الشاب وتحقيقه لأهدافه وطموحه فى الحياة . وما أكثر الأمثلة على أشباه تلك «العيـوب» و «النقائض» التى أنكرها بعض الآباء والأمهـات على أبنائهـم وتخوفـــوا من تأثيرهـا عليهم فى المستقبل، فـإذا بهؤلاء الأبناء أنفسهم يحققـون فى الحياة من النجـاح والتألق ما لم يحققـه هؤلاء الآباء أنفسهم!..

فـالرئيس الأمـريكى « إبراهام لنكولن» مثـلا (١٨٠٩ - ١٨٦٥م) كـان لا يرتدى إلا الملابس الواسعة المتهـدلة كـابنك تمامًا، وكـان رث

الهيئة وبشع الشكل والمنظر، وقـد عجـزت زوجتـه عن أن تخلصـه من مظهـر المحـامى الريفى الذى يبـدو به.. ومع ذلك فلقـد فـاز برئـاسـة الولايات المتحدة الأمـريكية، ودخل التـاريخ من أوسع أبوابه، وارتبط اسمه بمشروعه العظيم لتحرير العبيد فى أمريكا .

و «عبد الناصر» نفسـه كان لا يهتم كثيرًا بمظهره. وكـانت بدلته من طراز تقليـدى لا يسـاير البـدع السـائـدة فى زمنه، وبنطلونـه واسعًـا فضفاضًـا حتى ليتهدل وينزل عن وسطه كل حين؛ فيرفعه مـرة أخرى. ولم يكن الناس يتعاملون مع ملابسه، وإنما مع شخصيته.. وكانت هيبته تسكن القلوب .

والرئيس الراحل «أنور السـادات» كـان قصيرًا كابنك أيضًـا.. على عكس ما يعـرف الكثيرن عنه، وعلى عكس ما كانـت توحى به صورته فى الصحف ووسـائل الإعـلام المختلفـة. ولم يَـحُلْ قصره بينه وبين أن يقوم بما قام به من أدوار فى تاريخ بلاده وتاريخ المنطقة كلها.

و«نابليون بونابرت» كان قصيرًا كـذلك قصرًا ملفتًا للنظر، فعوض قصره بالتفوق العسكرى، وأصبـح قائدًا لأحـد جيوش فـرنسا وهو فى العشرينات من عمره .

والكاتب الألمانى «تومـاس مـان» (١٨٧٥ - ١٩٥٥م) كـان لديه

مكتب فخم للكتـابة كـالمكتب الذى تخصصه لمذاكـرة ابنك ويهجـره.. ومع ذلك فلم يكن «تومـاس مـان» يكتب عليـه أبدًا، وإنما كـان يكتب على مـائدة السفـرة، أو وهو مسترخ على «شيـزلونج» طويل.. وفشلت معـه أيضًـا كل جهـود الأهل لأن يجلس إلى مكتبـه فى وضع صحِّى ويكتب ما يريد من مؤلفات ومقالات!

و «نجيب محفـوظ» لا يحب كـابنـك ارتداء ربطات العنـق.. بل يكرههـا.. ويذهب إلى أى مكان وأية مناسبـة بالبـدلة والقميص بدون كرافت.. وقـد شهد حفل تكريم الدولة له بمناسبـة فوزه بجـائزة نوبل عام ١٩٨٨م، وألقى كلمتـه أمام الرئيس «مبـارك» وهو بالبدلـة وتحتها بلوفر صوفى بلا كرافت.

أما هوايـات ابنك التى تراها غريبـة ويتقلَّب بينها من عـام إلى آخر؛ فلو حكيت لـك عن هوايات العظماء الغـريبـة وبعض عـاداتهم غير المألوفة لاحتجـت إلى صفحات طوال لأعدِّد لك بعضهـا.. لكن يكفى أن أقول لك فقط إن تجدد الهوايات وتعددها - بل وغـرابتها أيضًا - لا شىء فيـه ولا خطر.. فرئيس الوزراء البريطـانى العتيد الذى قـاد بلاده للنصر على الألمان فى الحرب العـالمية الثـانية «ونستـون تشرشل» لم يكن يحلو له وقتٌ وسط أعبائـه الجسام إلا وهو يمارس هواية البناء بالطوب والأسمنت و«المسطرين» فى ضيعته ببلدة تشارتويل، وقد بنى سور بيته

الرِّيفى فيهـا بنفسه. كما كـان يمارس الرسم أيضًـا، ويجمع «قصافـات» السيجار من كل الأنواع.. ويقضى بعض الوقت فى تنظيفها وتأملها !

والعالم الألمانى العبقـرى «أينشتاين» كـان يهوى العزف على الكمان، ويحب مشاركـة العازفين المحترفين عـزفهم فى الحفلات الخاصـة برغم تذمرهم من مشـاركته لهم فى ذلك لعجزه عن مـلاحقة أدائهم المحترف للعـــزف الموسيقى !.. والجنرال «دوايـت أيزنهاور» رئيس الـولايات المتحـدة الأمـريكية فى بداية الخمسينـات، كان يحتفظ فى حـافظة نقـوده بسبع قطع من العملة البرونزية التى لا تزيد قيمتها عن ملاليم، ويعدُّها من حين لآخر ويلهـو بها، ثم يعيدها لحافظته ويتفاءل بها.. وقـد رافقته معظم مراحل حياته !

ومعظم هؤلاء - بل ومعظم الناجحين فى حيـاتهم- لم تَـخْلُ حياتهم من انتقـاد ذويهم لبعض تصرفاتهم وعـاداتهم وسلوكيـاتهم. ومع ذلك فقد دخلوا التـاريخ من أوسع أبوابه.. فلماذا تريد لابنك أن يكون مثالًا نادرًا للانضبـاط العسكرى فى كل شىء.. مع أنه - والحمد لله - شـاب ملتـزم دينيًّا وخلقيًـا ومتفوق فى دراستـه، وطيب القلب، ومحب للناس وللحياة ؟..

وتوقفت عن الحديث برهة لأدقق فى اختيـار كلماتى حتى لا أجـرح مشاعر صاحبى، ثم قلت له :

- إننى أقـدر مشاعـرك الأبوية ورغبتك الطبيعيـة فى أن يكون ابنك أفضل الأبناء وأجدرهم بالسعادة والنجاح فى الحياة.. لكننى أخشى أن تكون قد انجـرفت كما ينجرف كثيرون إلى «الفخ» الذى عبر عنه المفكر الفـرنسى «فولتير» حين قـال على لسان «كـانديد» فى الرواية التى تحمل نفس الاسم : «ثمـة متعة فى انتقـاد كل شىء.. وفى كشف الأخطاء فيما يراه الآخرون جميلاً !».

فـالحق إننا كثيرًا مـا نقـع فى هذا الفخ إذا لم نحترس له.. فنتـورط فى انتقـاد كل شىء فى أعـزائنا والمقـربين منا وفى الآخرين جميعًـا، ونسعـد بكشف الأخطاء فيما يراه غيرنا جميلاً ولا ضير فيـه.. فتكون النتيجة هى أن نتصـادم مع من نتمنـى لهم «الكمال» -ولا كمال إلا للخـالق العظيم وحـده -وتحدث فجوة نفسيـة ومعنوية بيننا وبين من نحبهم ونريد لهم أفضل الأشيـاء فى الحيـاة.. فـإذا بنا بدلًا من أن نحقق ذلـك نرهقهم بالانتقـاد بالحق والبـاطل، ونكلفهم مـن أمـرهم رهقًـا، ونطالبهم بأن يكونوا ملائكة من ذوات الأجنحة لا بشرًا كالبشر !

وأطرق صديقى بـرأسه مفكرًا ومتأملاً للحظات، ثـم رفع رأسه إلىَّ وقد انبسطت ملامحه واختفت منها آثار القلق السابق وقال لى متسائلاً :

- إذن بماذا تنصحنى أن أفعل ؟

فأجبتـه بأننى أنصحه بأن يشكر ربَّه كثيرًا آناء الليل وأطراف النهـار وفى الأسحار على مـا أنعم به عليه مـن نعمةٍ يفسد على نفسـه التمتع بها بتركيز انتباهه على التـوافه من الأمور حتى لو كانت صـائبة، وبأن يجعل من عادات ابنه التى يستنكرها هذه نادرةً من نوادر الأسرة الخاصة التى تتندر بها وتضحك لها على الابن، لا أن تتسخط عليها وتجعل منهـا سببًا للمـلاحـاة والنزاع والشجـار معـه.. وبذلـك فقط قـد يتخلَّص الابن تدريجيًّـا منهـا أو من بعضهـا مـع تعمق خبرته بالحيـاة، ومع اقتنـاعـه الذاتى- وليس الخارجى - بأن حيـاته سوف تصبح أفضل وأكثـر يسرًا لو ازداد إيمانًا بأهمية النظام لتحقيق النجاح.

ومددت يدى لصـديقى وهو يغادرنى راضيًا، فتـذكرت فجأةً ذلك البيت القديم من الشعر المدرسى الذى كان مدرس اللغة العربية يكرره علينا وقتها كثيرًا:

نِعَمُ الإِلٰهِ عَلَى الْعِبَادِ كَثِيرَةٌ ... وَأَجَلُّهُنَّ : نَجَابَةُ الأَبْنَـاءِ

و «النجـابة» لغـويًّا هى «النبـاهة وظهـور فضل الولد على أترابه».. لكننا للأسف لم نكن - ولا كـانت أعمارنا - تسمح لنا وقتهـا بأن نفهم هذا البيت حقِ فهمـه، ولا أن نقدر هذه النعمة الجليلة حق قـدرها.. ثم علمتنا الأيام وتجربة الحيـاة ما لم نكن نعلم، وعرفنا كـم كان هذا البيت

الذى كنا نتندر به أحيانًا صادقًا وجميلًا ومعبرًا عن أعظم المعانى والنعم الحقيقية .

وإذا كنت أرجو الآباء والأمهات دائمًا أن يقبلوا ببعض السمات والعادات الهينة التى يتصورونها غريبة فى طبائع أبنائهم.. فلا بأس بأن أرجوك أنت أيضًا يا صديقى ألا تنسى إعادة غطاء أنبوبة معجون الأسنان إلى موضعه لكى تكتمل سعادة الآباء والأمهات «بنجابة» أبنائهم ويستريح الجميع !

# لكنه شخص آخر

دعيت إلى هذه الجلسة الطارئة على وجـه السرعة، وأكَّد عليّ الداعى ضرورة الحضـور، وإلا فلن يكتمل نصاب الجلسـة ! أكَّدت له صـدق نيتى فى الحضور والمشاركـة فى أعمالها، وتوجهت إليها بالفعل فى الموعد المحدد .

كـان مقـر الاجتماع بيت أحـد الأصدقـاء.. وكـان جـدول الأعمال يقتصر على موضوع واحد ، هو الفصل فى خلاف مؤسف بين صديقين حميمين والانتصـاف لأحـدهما من الآخـر ! أمـا المحلفـون الذين سيسمعون دفـاع كل منهما عن نفسه وادعاءاته على الآخر .. فقـد كانوا ثلاثة من الأصـدقـاء المشتركين تراضى الطرفـان على الاحتكام إليهم، وقبلوا مقدمًا بما سوف يحكمون به .

وفى الموعـد المحدد جـاء المتقـاضيـان أحدهما وراء الآخـر، ونهضنا للترحيب بكل منهما.. وتصـافح الخصمان بأدب، ولكن بمشـاعـر حيادية، ثم جلس كل منهما فى ناحية.

تبادلنا الحديث لبعض الوقت قبل أن تبدأ الجلسة، فلاحظت أن كلا الصديقين يتجنَّب النظر ناحية الآخر، وأنه يبدو فى جلسته كطفل غاضب ينتظر من ينصفه ويسترضيه. وتذكرت وكلاهما يجلسان فى مواجهتنا - أحدهما إلى اليمين والآخر إلى اليسار - ما حدث حين جاء يهودى إلى أمير المؤمنين «عمر بن الخطاب» ليشكو له «عليًا بن أبى طالب» فى دين أو نزاع بينهما، وكان إمام المتقين «علىٌّ» يجلس إلى جوار «عمر».. فحرص العادل «عمر» على أن يساوى بينه وبين خصمه فى مجلس القضاء، فطلب منه أن ينهض من جواره ويقف إلى جوار خصمه لكى يتحدث كل منهما بما عنده قائلاً له : سَاوِ خصمك يا «أبا الحسن». فظهر الغضب على وجه «علىٍّ»، ونهض فوقف إلى جوار اليهودى، وعرض الرجل ادعاءه.. وعرض «علىٌّ» دفاعه، فقضى «عمر» بينهما بما رآه عدلا. وبعد انصراف المدَّعى راضيا، سأل «عمر» «عليًا»: أكرهت أن تساوى خصمك يا «على» ؟

فأجابه إمام المتقين عاتبًا : بل كرهت أن تميزنى عنه فتنادينى أمامه بكُنيتى ( يا أبا الحسن ) !

فتساءلت صامتًا وأنا أسترجع هذه القصة: وأين لنا بعدل «عمر».. وتقوى «علىّ» ؟

وبعد قليل تحدث صاحب البيت عن عمق الصداقة التى تجمع بين

هذين الصـــديقين المتقـاضيين، وواجبنا فى إنقـاذهما مـن الانهيـار بفعل أسبـاب عارضـة. فتعجبت لما آل إليه الحال بينهما فى الشهـور الأخيرة، وقد كان كل منهما نعم الصديق المخلـص لصديقه معظم سنوات العمر .. حتى لينطبق عليه قول «أبى العتاهية» :

صَدِيقِى مَنْ يُقَاسِمُنِى هُمُومِى

وَيَـرْمِى بِالْعَـدَاوَةِ مَنْ رَمَـانِى

وَيَحْفَظُنِى إِذَا مَـا غِبْـتُ عَنْهُ

وَأَرْجُوهُ لِنَـائِبَـةِ الزَّمَـــانِ !

فقد جمعت بينهما الصداقة منذ مـرحلة الدراسة الجامعية، وتشابكت خيوط حياتهما وذكـرياتهما معًا بعد ذلك فى كل مراحـل العمر، وتساندا فى كل مـواقف الحياة واختبـاراتها.. وكـان كل منهما شديد الإعجـاب بفضـائل الآخر ومـواهبه وقـدراته، ويتحدث عنه فى غيبتـه بأفضل مما يتحدث عنه فى مواجهته، «ويرمى بالعداوة» من يرمى بها صديقه؛ حتى لا تكاد تفرق بين خصوم هذا وذاك إن كان لهما خصوم. وهما فى الحقيقة شخصـان فاضـلان ومسالمان، ويتهم كل منهما الآخـر دائمًا بالسذاجـة و«الخيبة»، ويؤكـد للجميع أنه لولاه لكان صديقه قد غـرق فى أكثر من ورطة شديدة. وهذا صحيح فى إجماله، فقـد كان كل منهما يكمل نقص الآخر ، ويجبر كسره !

وبرغم عمق الصداقة وشدة الحب المتبادل بينهما، فقد كنت أشعر بأن كليهما يتهيَّب الآخر ويعمل له ألف حساب.. ويحرص إذا أوقعته سذاجته فى عثرة من عثراته، ألا يعلم بها صديقه الآخر لكيلا يسلقه بلسانه الحاد ناعيًا عليه خيبته قبل أن ينهض لإقالة صديقه من هذه العثرة!.. ولم أكن أعجب لأمرهما فى ذلك، فالصديق الحق إنما يتهيب بالفعل صديقه إلى حد يكاد يقترب به من إحساس الخوف الإيجابى منه. وأقصد بالخوف الإيجابى هنا ذلك الإحساس الإنسانى النبيل الذى يدفعك للحرص على عدم إغضاب من تحب، وإلى الخوف من أن تفقده.. فتحرص على أن تروى شجرة صداقتك له بماء الحب والاهتمام والرعاية.

وأذكر فى هذا المجال أن أحدهما - وسوف أرمز له باسم «مجدى»- قد أقرض زميلاً له فى العمل مبلغًا كبيرًا، على وعد منه بالسداد فى موعد محدد لكى يسدد «مجدى» قسط شقة اشتراها لابنه فى تاريخ معين. وحل موعد سداد الدين، فراوغ المدين دائنه وفشلت معه كل محاولاته.. ووجد «مجدى» نفسه فى موقف حرج، وقد تأخر عن موعد سداد القسط.. فسألنى عن محام أمين يساعده فى اقتضاء دينه. وتعجبت للطلب ؛ إذ أعرف أن شقيق زوجة صديقه المخلص - والذى أرمز له باسم «صالح»- محام أمين .. فسألته لماذا لم يستعن به ؟ فإذا به يجيبنى

وهو يتلفت حـوله كأن أحـدًا يتلصص علينا، بأنه يخفى هذا الأمـر عن صديقـه؛ لأنه كان قد حـذره من إقراض هذا الزميل المراوغ فلم يستمع لنصيحته !

وضحكت مما بدا عليه من جزع لاحتمال أن يعـرف «صالح» بالأمر ويسلخه بلســانه اللاذع لومًا وتقريعًـا وسخريةً من سذاجتـه وخيبته .. وحماقته !

وعرَّفته بمحام أمين بالفعل ، ومع ذلـك فلقد علم «صالح» بالأمر ، ولم يضيع وقته فى لوم صديقه هذه المرة، وإنما توجه إلى البنك وسدد عن صديقـه قسط الشقة قبل أن تتضاعف عليه الفـوائد، ثم ذهب إلى ذلك الزميل المراوغ وهدده بالويل والثبـور وعظائم الأمـور إن لم يسـدد دينه خـلال ٤٨ سـاعـة.. فإذا بهذا الزميل يسـدد دينـه بالفعل ؛ لأن تدخل «صالح» فى الأمـر قد أخافه ودفعـه للكف عن المماطلة ! وبعد ذلك نال «مجدى» من صديقه ما يكفيـه من كلمات اللوم والتوبيخ .. وكان منظره وهو يجلس بين يديه كـالتلميذ المذنب يتلعثـم ويدافع عن نفسه بأعـذار واهيـة، يثير الشفقة والاحترام فى نفس الوقت لهذه العـلاقـة الإنسانيـة النبيلة التى تجمعهما !

وعلى هذا النحـو مضت حيـاة الصـديقين.. وقـد جمع بينهما تناسب المزاج النفسى وتشـابه الرؤية للحيـاة، حتى أنى كثيرًا مـا تذكـرت وأنا

أرقبهما كلمة «أرسطو» الشهيرة : صديقك هو أنت؛ غير أنه شخص آخر !

فهاذا جدَّ عليهما إذًا حتى يتغاضبان ويتباعدان ويسعى بينهما الأصدقاء المشتركون لعقد هذه الجلسة.. والفصل فى نزاعهما !

أما القصة فلقد رواها كل منهما من وجهة نظره قبل ذلك.. لكننا قررنا أن نعمل فى هذه الجلسة بمبدأ « ألا يحكم القاضى بعلمه.. وإنما بما يعرض عليه من وقائع وبراهين ».. فدعوناهما للحديث أمامنا.. ودعا كل منهما الآخر فى أدب لأن يتحدث قبله !

وتبادلنا نحن النظرات الباسمة متفائلين بهذه البداية المشجعة.. ثم حللنا الإشكال بدعوة «مجدى» للكلام لأنه البادىء بالشكوى من صديقه.. فتردد قليلاً، ثم روى لنا بصوت خافت كيف أن صديقه قد انشغل عنه خلال العامين الأخيرين بعد أن تولى منصبه الكبير، فلم يعد نفس الصديق الذى كان، وإنما تغيَّرت روحه فأصبح رجلاً خطيرًا مشغولاً بعمله عن الجميع، ولا يهتم بأمر أحد، ويتوقع من الآخرين فى نفس الوقت أن يهتموا بأمره ويجاملوه فى مناسباته المختلفة بغير أن يرد عليهم مجاملاتهم أو يهتم بأمرهم على خلاف طبيعته المجاملة السابقة وإخلاصه القديم. ولقد قدر هو فى البداية ظروف عمله وتجاوز عن تقصيره فى حقِّه لأن من واجب الأصدقاء أن يتحملوا ظروف

أصدقـائهم، ويتفهموا أسبابهم، فلم يعتـب عليه فى شىء، وتمنى له دائمًا التـوفيق والسـداد فى عمله وحيـاته. واكتفى بالاتصـالات التليفـونيـة المنتظمة، وبزيارته له من حين لآخـر حيث كان يجده دائمًا شاكيًا وعـاتبًا عليه هو إهماله له مع أنه الذى يسعى إليه.

وحـدث أن توفى شقيق «مجدى» منذ شهور؛ وتلفت «مجدى» حـوله فلم يجد خِلَّه الوفى إلى جواره يشد من أزره فى هذه المحنة الأليمة كسابق عهدهما معًا فى كل مناسبات الحيـاة الحزينة والسعيدة على السواء.. ومع كل ذلك فقـد التمس إليه العـذر فى مشاغل عمله، وتغـاضى متألمًا عن افتقاده لصـديقه فى هذا اليوم العصيب.. ففـوجىء به يجىء فى المساء إلى سرادق العزاء كالغـرباء، ويقف إلى جواره بعض الوقت؛ ثم يستأذن فى الانصراف لأنه سيسـافر فى مهمـة عمل فى فجـر اليوم التـالى.. فودعـه متمنيًا له التـوفيق وهو يترقَّب عودتـه من سفره بصبر نافـد ليجد عنده العزاء والسلوى والسند المعنوى له فى محنة فراق شقيقه الذى كان بمثابة الأب الروحى للصديقين معًـا منذ سنوات الجامعة.. فإذا بالأيام الثقيلة تمضى ببطء مـرير، والصديق مـا زال غائبًا عنه وهـو يظنه على سفر، إلى أن علم مشـاغـل العمل ودائـرة العـلاقـات الاجتماعيــة الجديدة التى انخـرط فيهـا بعـد أن تولى منصبـه.. ومضى شهـر طويل ولم يرجع إلى صـديقه أو يسأل عنه، وهنا فقط توقف «مجدى» لمراجعـة علاقتـه به فى

العامين الأخيرين، واكتشف أن صـديقه قد اعتـاد هذا التقصير فى حقه منذ أن شغل منصبـه الخطير، فانفجـر بركان الغضب الكامن فى نفســه، وقـاطعـــه، ولم يقبل اعتـذاره لـه حين اتصل به بعـد أســابيع. واختتم الصــديق مرافعـة الاتهام متسائـلًا : هل أكـون مخطئًا إذا عاملتـه بنفس الطريقة وبادلته إهمالًا بإهمال ؟

ولم يجب أحـدنـا على هذا التسـاؤل؛ وإنما تلفتنا إلى الصـــديق المتهم ننتظر كلمته.. فنظر إلى صـديقه عاتبًـا ومتألمًا، ثم تحدث حديثًا عـاطفيًا طويلاً عن عمق صـداقتهما معًـا منذ شرخ الشباب، وكيف أنه لم يشعـر طوال حيـاته بمثل هذا الحزن الذى يشعـر به الآن وصـديقه يتهمـه فى إخلاصه وفى صداقته، ويدعى عليـه تغيُّر روحه بعد توليه منصبه، وهو الذى لم - ولن - يتغير بالنسبـة لأصدقائـه مهما شغل من مناصب، لأن المنصب لا يدوم ولا يغنى الإنسان عما يحتـاج إليه من زاد نفسى صادق لا يجده إلا لدى أصـدقائـه المخلصين. أمـا عن تقصيره فى حق صديقـه خلال محنة وفـاة شقيقه، فلقـد كانت له أسبـابه وظروفه، وقـد شرحها مرارًا لهذا الصـديق الظالم والتمس لديه العذر فيها، لكنَّه كـان قد أغلق باب التســامح فى قلبـه فلم يقبل بها، مع أنه كـان دائمًا يجد لديه الصـدر المتسامـح والقلب الغفور فى كل مـواقف الحياة المختلفـة.. فماذا جدَّ إذًا على «روح» صـديقـــه ؟.. ولماذا أصبح ضيق الصـــدر تجاهه هكذا؟..

وكيف يحمل له هذه المشاعر السلبيـة وهو الذى لم يحمل له طوال العمر سوى أصدق مشاعر الحب والإخلاص والاحترام؟.. وكيف يتهمه فى مبادئـه وأخلاقياتـه، فيدعى عليه أنه قـد نسى أصدقـاءه القدامى؛ تأثرًا بمنصب زائل ومشاغل لن تدوم ؟!

ثم اختتم مرافعته موجهًا حديثـه إلى صديقه قائلًا: إننى أفضل كثيرًا مما تظن بى وبأخـلاقى.. ومن المؤسف حقًّـا أن يكون هذا هو حكمك على شخصيتى بعـــد هذه السنوات الطوال.. ولا تفسير لـذلك عندى سـوى أحـد أمريـن: إما أن يكون كـلانا قـد خـدع فى الآخـر كل هذه السنين، وإما أن يكون كلانا يظلم الآخر ويتجنَّى عليه بعد هذه الرحلة الطويلة من الصداقة والوفاء !

وتكهـــرب الجو فى الجلسـة فجأةً مـع هذه الكلمات الأخيرة، ورفع الصـديق الآخـر رأسـه وقـال مـوجهًـا حـديثـه «لصـالح» متسـائـلًا وباستنكار:

- أنت خدعت فىَّ كل هذه السنين ؟.. إذا كان ثمـة خداع فى الأمر ، فـلابد أن المخـــدوع هو أنا ولست أنت .. وعلى أية حـــال فيكفى هذا القدر من الإهانة .. وشكرًا لك !

ثم نهض غاضبًا؛ ففزعنا إليه وأعدناه إلى مقعده بجهد جهيد.. وكان

أكثرنا جهدًا لإرجاعه لمقعده والتمسك بعدم انصرافه هو الصديق المتهم نفسه الذى سكت قليلًا ثم استأنف مرافعته؛ فكان ختامها مناقضًا تمامًا لبدايتها؛ إذ تنازل فجأةً عن مجادلة صديقه حول من الذى تغيَّر منهما، ومن الذى خُدع فى الآخر.. إلى آخر هذا الحديث الثقيل. والتفت إلينا مستنجدًا قبل أن يقول لصديقه : وهبْنى قد قصرت فى حقك فى محنة وفاة شقيقك وطوال الفترة الماضية، وهَبْ أن كل أعذارى لذلك ليست مقبولة لديك، ألم يكن فى تاريخى معك ما يشفع لى عندك فى التجاوز عن هذا التقصير ؟.. يا سيدى إننى أتنازل عن الاحتكام للأصدقاء ، وأقر بخطئى وتقصيرى فى حقك أمامهم.. وأطلب منك العفو والسماح .. وأعدك ببدء صفحة جديدة من صداقتنا التى صمدت لعوامل الزمن كل هذه السنين.. فلماذا لا تصفح عنى وأنت الرجل المتسامح مع الجميع ؟ ولماذا تصر على عقابى ومقاطعتى بهذه القسوة الغريبة عليك ؟

وسرت أحاسيس الارتياح فى نفوسنا لهذه النغمة العاطفية المختلفة، وتوقعنا أن يجيبه الصديق بكلمات طيبة وينتهى الموقف، لكنه ظل حانى الرأس صامتًا على عكس المتوقع.. فإذا بالصديق المتهم ينهض من مقعده ويتجه إليه مستأنفًا حديثه أو استعطافه له : إننى أعرفك أكثر ما تعرف نفسك.. وأعرف أنك تعيس بهذا الجفاء بيننا مثل تعاستى به

وأكثر.. فلماذا تقسو على نفسك وعلىّ بهذا الموقف الغريب ؟ وماذا تريد من ترضيـة أقـدمها لك أمـام الأصـدقـاء لكى ترضى وتصفح؟.. هل تريدنى أن أقبل رأسك أمام الإخوان ؟ ها أنذا أفعل .. وأقبل لا رأسك فقط ؛ بل ويدك أيضًا !.. ثم اندفع إلى صديقه فقبل رأسه، وانحنى على يده يريد تقبيلهـا، فـانتفض الصـديق الآخـر مـرتبكًا كـأنما قـد لدغـه العقرب، وسحب يده بسرعة قبل أن يقبض عليها الآخر.. بل وتراجع للوراء وصـديقه يطـارده مصرًا على أن يقبل يده وهو يخفى يديه خلف ظهره ويتمتم مـرتبكًا : العفو .. العفو .. ودموعـه تسيل على خده ، كما تترقرق الدموع فى عيون الصديق المتهم وعيوننا جميعًا !

وفضضنا الاشتبـاك بينهما أخيرًا، وأعـدنـا كـلا منهما إلى مقعـده؛ فجلس مبهور الأنفاس مضطربًا بالانفعال تأثرًا بهذه المشاعر النبيلة، ثم تمالك أحـدنا نفسـه بعـد قليل فضحك - أو تضـاحك بمعنى أصح - ليغير من جو الجلسة، وقال موجهًـا حديثه للصديقين : لعنة الله عليكما معًـا، هكذا أنتما منذ عـرفتكما فى أيـام الجامعـة «تتنافـران» وتتراشقـان بالاتهامات حتى نظن أنه الفـراق الذى ليس بعده تلاق بينكما، ثم يقبل أحدكما رأس الآخـر فى النهاية وتصفـو لكما الصداقة وتـرجع أقوى مما كانت !

وضحكنا جميعًا للمداعبة، وتنفسنا الصعـداء بعد عودة الصفاء بين

الصديقين، ومضت الجلسـة بعد ذلك بهيجة وممتعـة. ولاحظت منتشيًا أن الصديقين قد رجع كل منهما بعد قليل إلى طبيعتـه مع الآخر ، فراحا يتبادلان الحديث الودى.. بل و «النقـار» المعتاد بينهما. ثم آذنت الجلسة بالانتهـاء، فتحـركنا للانصراف، وودَّعنا صـاحب البيـت عند باب الشقـة.. ولاحظنا أن الصـديقين قـد راح كل منهما يدعـو الآخـر لأن يتقـدمه فى الخروج.. فـابتسمنا للمفارقـة بين حرارة العـواطف فى نهاية الجلسة، وبين جفافها وبرودها فى بدايتها. وعلق أحدنا مداعبًا «صالح» و«مجدى» على هذا «الأدب» المفـاجىء فى تعـامل كل منهما مع الآخـر، فإذا بـ «صالح» يقول وهو يرمق صديقه بحذر :

- إنه ليس أدبًـا.. وإنما خـوف ونفـاق رخيـص لهذا الوغـد الذى خاصمنى بلا ذنب لعدة شهور .. عسى أن يجدى معه «ويثمر» فيه !

فإذا بـ «مجدى» يجيبـه قائلاً لنا : هكـذا هو منذ ثلاثين عامًـا.. تحسبه للسـانه الحلو وقدرته على التأثير فى الآخـرين مظلومًا، وهو فى الحقيقـة ظالم.. ومفترى.. وابن ستين فى سبعين !

وتحركنا فى اتجاه الخروج مبتهجين بهذا الختـام السعيـد، وفى أعماقى تتردد كلمـة الدكتـور «أحمد أمين» البليغـة : مـا أكثـر أسفى لو فقـدت صديقًا، وما أكثر فرحى إذا عثرت على صديق بمعنى الكلمة !

# كن عبقرياً.. واصنع ما شئت

أمتعنى هذا الكتاب وأدار رأسى !

إن مـؤلفـه يحذرك قبل أن تبـدأ قراءتـه من أنك ستندهش وتتعجب وربما تضحك لبعض ما تقرؤه .. لهذا فهو يقول لك فى مقدمته :

«عزيزى القارىء : اكتم أنفاسك واستفـد بقدر ما تستطيع بقراءتك لهذا الكتـاب؛ فكل كلمة من كلماته عمـل من أعمال العبقرية ! وسـوف يوضح لك هذا الكتـاب أن الحياة اليوميـة للعبقرى ابتـداءً من نومه إلى هضمه إلى ابتهاجه ونشوته وأظافـره.. إلخ - تختلف تمامًا عن حياة بقية البشر ! فهذه أول يوميات - يقول لك المؤلف - يكتبها عبقرى كان من حسن حظه أن قد تزوج من امرأة فذَّة أسطورية فريدة !».

فإذا كنت قـد كتمت أنفاسك بالفعل واستعـددت للقراءة؛ فسـوف أختـار لك بعض فقــرات وسطور مما كتبـه المؤلف فى يوميــاته.. لكى تشاركنى متعتى بقراءتها.

أمـا المؤلف فهو الفنان الإسبـانى العـالمى العبقرى «سلفـادور دالى» الذى مات منذ سنوات، واشتهر خلال حيـاته بتقاليعه العجيبة.. ابتداءً من طـرفى شـاربه الطـويلين المنتصبين إلى أعلى كإيريال السيـارة، إلى ملابسه «الفضائية» الخاصة التى كـان يصممها لنفسه ويبدو فيها كرواد الفضاء.. إلى سيـارته أو قوقعتـه الزجاجيـة التى صممها أيضًـا لنفسه، وكان يركبها ويظهر بها فى المناسبات الرسمية لكيلا يحرم البشر العاديين من رؤية العبقـرية على الطبيعة إذا ما تـوارى داخل سيارة عاديـة كباقى البشر.. إلى مفاجآته الصارخة؛ كـذهابه إلى جامعة السوربون فى باريس لكى يلقى فيها محاضرة راكبًا سيارة رولز رويس ثمينة مملوءة عن آخرها بثمار الكرنب الكبيرة، بحيث لا يبدو منها سوى رأسه !.. إلى ما لا نهاية له من أمثـال هذه التصرفـات والأفعـال غير المألوفـة التى يعترف لك بشجاعة وصدق فى يومياته بأنه كـان يفتعلها لكى يشد انتباه العالم إليه، وذلك لأنه يؤمن بأن مـا يلتزم به البشر العاديون فى حيـاتهم الخاصة من مراعاة الأعـراف السائدة؛ لا ينبغى أن يلتزم به العبـاقرة.. لأن العبقرية فى رأيه ضـد القيـود ؛ ولأنه لا يهم مـاذا سيقـول عنك الناس؛ وإنما أن «يقـولوا» ويظلوا يقـولون دائمًا مـدحًـا أو نقـدًا، لكى تبقى فى بؤرة الاهتمام!

ولأن الأهم هو أن تكون عبقـريًا - أى متميـزًا - فى مجالك بالعمل

والكفاح الطويـل، وبعد ذلك لك أن تفعل مـا تشاء ثمنًا لما أسـديته إلى البشرية من ثمار عبقريتك وعملك. ويقـول لك فى ذلك : «أجد عملك وفقًا للقـواعد السـائدة فى البـداية، وتفوق فيـه كما لا يستطيع غيرك أن يفعل .. وبعد ذلـك تحرر من كل هذه القواعـد وافعل ما تشـاء .. فلقد أصبحت عبقريًّا !».

أما المرأة الأسطورية التى يشير إليهـا فى مقدمة يوميـاته فهى زوجته «جالا» التـى يتغزل فيها طوال اليـوميات ويعتبرها هبـة الله الثمينة له.. ويشير إليها فى أكثـر من موضع من يومياته بكلمة «كنزى». وقـد كانت قبل أن يعرفها زوجة للشاعر الفـرنسى السيريالى «بول أيلوار ١٨٩٦ - ١٩٥٢م» وطلقت منه ، ثم أحبَّها «دالى» وتزوجها زواجًا مدنيًّا رفضت الكنيسة الكاثوليكيـة الاعتراف به لموقفها المعـروف من عدم الاعتراف بالطـلاق الأول، فظل «دالى» يكـافح سنوات طـويلة حتـى استطاع أن ينتزع مـوافقة الكنيسـة الكاثوليكية على زواجـه منها، واحتفل بـزواجه الدينى بها بعد أكثر من عشرين عامًا !

ولا أريد أن أستطرد فى الحديـث عن شخصيــة «سلفـــادور دالى» وزوجتــه - أو «كنزه» الثمين- «جالا» لكيـلا أحـرمك من متعة قـراءة بعض سطور يوميَّـات هذا الفنان العبقرى الذى بيعت لوحـاته بملايين الدولارات، والذى يقول «بفخر» فى هذا الكتاب :

«الفرق الوحيد بينى وبين المجنون هو أننى لست مجنونًا !».. يقصد بذلك أنه يستمتع بكل ما يستمتع به المجنون من حرية أن يفعل أى شيء يريده وفى أى مكان بغير أن يلام على ما يفعل ؛ لأنه ليس على المجنون حرج.. ولا على العبقرى أيضًا مع فارق مهم.. فالعبقرى على خلاف المجنون يعى جنونه.. ويفخر به .. ويستثمره لصالح فنه !

وهذه شذرات اخترتها لك بعناية من كتابه الممتع، وتجنبت فيها إثارة «قرفك» بما كتبه بصراحة فريدة وعجيبة عن «شئون العبقرى المختلفة» حتى فى دورة المياه .. بل وعن حركة الأمعاء الطبيعية لكل إنسان التى يصر «سلفادور دالى» على أنها لديه مختلفة عنها لدى البشر العاديين !

كان «دالى» قد انضم فى شبابه إلى جماعة السيرياليين فى باريس، وكانت تضم إذ ذاك مجموعة من الفنانين والكتاب الذين يدعون إلى تحرير الفنان من قواعد الفن والأدب الصارمة، وتحرير الإبداع من المنطق والعقل والمعقول، وإلى النفاذ إلى عالم اللاوعى والأحلام والتهويمات الغامضة. ثم اختلف مع هذه الجماعة فطردته بسبب لوحة رسمها للزعيم الشيوعى السوفيتى «لينين» مستخدمًا وجهه على جسم مشوه. وفى يومياته العجيبة هذه حكى كيف واتته فكرة العبث بجسم «لينين» .. وكيف استغرق فى تخيلها.. فقال :

● «وانغمست فى رؤيةٍ تأملية عميقة.. وكما يحدث لى مرارًا حين أكون مندمجًا فى مثل هذه الرؤية التأملية .. فقد بللت سروالى !»

ولم تنزعج «جالا» التى كان قد عرفها فى هذا الوقت من «أثر» الاستغراق فى الرؤية التأملية عليه !.. وإنها أيدته فى فكرة اللوحة السيريالية، ودافعت عنه حين اشتد هجوم أعضاء الجماعة عليه، وحين هجرها مطرودًا.. ونادى بالتحرر حتى من قواعد السيريالية نفسها !

وتتوالى بعد ذلك غرائب هذه اليوميات بقلم «دالى» المفتون بنفسه وبعبقريته بلا حدود :

● فى كل صباح ينتابنى بمجرد الاستيقاظ فرح غامر حرت فى تفسير أسبابه؛ حتى اكتشفت سره اليوم فقط.. وهو كونى «سلفادور دالى» وإنى لأسأل نفسى كل يوم: ما هى الأعجوبة التى سيحققها «دالى»! هذا النهار .. وكيف يستطيع الآخرون أن يحتملوا حياتهم بغير أن يكونوا «دالى» أو «جالا» ؟

● مات رجل فى المكسيك عن عمر يناهز المائة والخمسين عامًا تاركًا وراءه «يتيمًا» فوق المائة من العمر ! إننى أود أن أعيش أطول من هذا الرجل، وأعتقد أن العلم قادر بمشيئة الله بالطبع على إطالة عمر الإنسان إلى هذا الحد !

● سمعت ثلاثة أشخاص يتحدَّثون عن غوامض الكون؛ فقلت لهم: إنه لا شىء مما يحدث فى الكون يدهشنى. فقال لى أحدهم: تخيل

أنـك رفعت رأسـك الآن ونحـن فى منتصـف الليل ورأيـت الشمـس تشرق على غير انتظار .. ألا يثير ذلك دهشتك؟ إننى لو حـدث لى ذلك لاعتقـدت على الفور إننى قـد جننت! فقلت له بهدوء : بالنسبـة لى فإن الأمر يختلف .. لأنى سأعتقد لحظتها أن الشمس هى التى جنت !

● أثناء بحثى فى أحد الكتب عن صورة أسد لكى أرسمه فى إحدى لوحاتى؛ سقط من الكتـاب مظروف قديم.. فتحته فوجـدت فيه بطاقة شكر من «ريمـوند روسل» (وهـو صـديق له انتحـر قبل فترة وتألم دالى لموته).. فغلبنى الانفعال لذكراه، وشاهدت «جـالا» عائدة من النافذة، فخرجت إليهـا لأحتضن «كنزى» الذى أرسله الله لى .. فـرأيتها فى هذه اللحظة أكثر شبهًـا بأسد «مترو جولدوين ماير»، وشعـرت بأنى أحبها بشكل جـارف.. فطلبت منى «أن تبصـق على جبهتى» لكى تطرد منهـا أفكار الموت، ففعلت ذلك على الفور !

● دلقت القهوة على قميصى !..

رد الفعل الأول لمن هـم ليسوا عباقرة مثلى هو أن يمسحوها.. أما أنا فعلى العكس من ذلك!.. فحتى فى طفـولتى كنت أتحين الفـرص لأدلق القهـوة التـى أشربها بين قميصى وجلدى حتى أستمتع بالبهجـة التى أحس بها والقهـوة تنساب من صـدرى إلى بطنى .. وأترقب باستمتـاع اللحظة التى يجف فيهـا القميص وينفصل عن جلدى، وتفيض علىَّ فى

لحظة الانفصال هذه مشاعر وأفكـار فلسفية تستمر طوال اليوم.. وهذا جانب مجهول من مباهج حياتى السرية التى لا يعرفها أحد !

● اعتدت أن أنظر للصحف بالمقلوب.. وبدلًا من أن أقرأ الأخبار؛ فإنى أتخيلها «وأراها» بوضـوح باصطناع بعض الحول فى عينى. واليوم وأنا أمسك بالجرائد بالمقلـوب رأيت أشياء رائعة تتحـرك، فقررت على الفور – وبإلهام رفيع من فن «دالى» الشعبى – أن أقوم بتلوين أجزاء من هذه الجرائد !

● الأغبيـاء يريدون منى أن أتبع النصائـح التى أسديها للآخـرين.. وهذا مستحيل بالطبع لأنى مختلف تمامًا عنهم !

● عند الغسق رجعـت «جـالا» من العيـد، وأرسلت إلىَّ الخادمـة تطلب منى أن أنظر مـن نافـذة مـرسمى لأرى غـروب الشمس الذى يلون البحـر باللون البنفسجى ثم باللون الأحمر الصـارخ.. فأشرت لها من النافـذة أننى قد لاحظت ذلك.. ورأيت «جـالا» فى هذا اليوم أجمل من أى يوم آخـر؛ فـركعت ثانيـةً لأشكـر الله على جمال «جـالا» الذى يصعب على أحد غيرى أن يدرك كل أعماقه !

● جاءنى شاب يطلب نصيحتى قبل سفـره لأمريكا، فنزلت لمقابلته بالزى الرسمـى – أى بمـلابس الفضـاء – وسألتـه عن طمـوحـه.. فأجابنى إنه يستطيع تحمل الحياة بأقل قدر من التكاليف وأن يعيش على

الفاصوليا والخبز الجاف. فقلت له : لكى تحقق النجاح وتأكل الكافيار يجب أن تكون شخصية مختلفة عن تلك التى جئتنى بها .. فها هى أظافرك قذرة فى حين ارتديت لمقابلتك زيًّا رسميًّا .. وقميصك الذى ترتديه لونه كلون السبانخ ، وهذا هو بالضبط اللون الذى يميز الفاشلين مثلك من الناجحين مثلى !

والآن عزيزى القارىء .. هل دارت رأسك مثلى بما فيه الكفاية ؟

على أية حال فإن الانطباع الذى خرجت به من قراءة هذه اليوميات العجيبة ومن قراءة كثير مما كتب عن مؤلفها؛ هو أن «دالى» لم يكن مجنونًا فعلاً، ولا يمكن أن يكون كذلك برغم كثير من تهويماته وشطحاته عن نظرية النقد الفنى المبنى على الهلوسة التى ابتدعها وغيرها من الأفكار العجيبة.. وإنما كان فنانًا عبقريًّا يعى عبقريته إلى حد مذهل كما قال عنه أحد النقاد ، وهو كذلك شديد الإعجاب بنفسه وشديد الفخر والتعالى بها؛ دون أن يرى فى ذلك أى تعارض مع الفضائل . ويتخذ هذا الموقف من الحياة والآخرين متعمدًا؛ مسميًا إياه «انتفاش الفنان العبقرى» الضرورى على من يحاولون إشعاره بأنهم أفضل منه أو يفهمون أكثر منه ! وبسبب هذا «الانتفاش» طرد من أكاديمية الفنون الجميلة بمدريد وهو شاب صغير حين قال لأعضاء لجنة الامتحان إنه يعتقد إنه يعرف عن موضوع الامتحان «رسام عصر النهضة رفائيل» أكثر مما يعرفه كل أعضاء اللجنة مجتمعين !

وطرد من الجماعة السيريالية أيضًا بعد ذلك بسنوات فى ظروف لا تختلف كثيرًا عن هذه الظروف. لكنه - للعجب - كان من ناحية أخرى متواضعًا وبسيطًا، بل وشبه متصوف فى حياته الخاصة ومع الأشخاص العاديين والبسطاء والطلبة والشباب والمعجبين بفنه! وقد حقق مجده الفنى بالعمل الشاق اليومى لعشر ساعات كل يوم على الأقل فى مرسمه الذى يحتل جناحًا من بيته المطل على البحر فى إحدى قرى الساحل القريبة من برشلونة، وببعده عن العبث واللهو والشراب الذى يبدد طاقة الإنسان فى حياة الكسل والتراخى.. فعاش حياة ثرية حافلة بالعمل والإبداع.

ولم يقتصر نشاطه على الرسم؛ فعمل فى النحت وتصميم الديكور والأزياء وزجاجات العطر ونظم الشعر وتأليف الكتب.. بل وأخرج وأنتج فيلمين مع صديق له. وقد روى فى يومياته العجيبة هذه أنه كان قد تعاقد مع شركة لإنتاج العطور على تصميم زجاجة عطر جديدة لها واختيار اسمه؛ ولكنه نسى كل ذلك.. حتى فوجىء بموعد المؤتمر الصحفى الذى سيعلن فيه عن تصميمه.. وأحاط به المصورون بكاميراتهم وفلاشاتها وسألوه عن اسم العطر الجديد.. فنظر إلى كاميرات المصورين وقال لهم من وحى اللحظة : «فلاش» - أى وميض. فصرخ الصحفيون إعجابًا وسألوه عن شكل زجاجة العطر

الجديد.. فأخـذ من أحـد المصـورين مصبـاح فـلاش محروق «وبططه» قليلاً بيده ثم قال لهم : هكـذا ! فتعالى الإعجاب والاستحسان، وقبض «دالى» المبلغ المتفق عليـه من الشركـة. ونزل العطر الجديد إلى الأسـواق بهذا الاسم وبشكل فلاش الكاميرا !

وقد كان العبقرى متدينًا بقـدر ما كان متمردًا على كل شىء تقليدى ومألوف فى الحياة !

وقد رسم وكتـب وصمم وأبدع وهو فى رعاية زوجتـه «جالا» التى أحبها وأحبته وفهمت شخصيته كما لم يفهمها أحد فى حياته.. وتفهمت كل أطواره الغـريبـة؛ فكانـت لا تجرؤ على الاقتراب من مـرسمـه وهو منشغل بالرسم حتى لا تشتـت تركيـزه. وترسل له وهو يعمل رسـائل حب ملتهبة من حين لآخـر مع الخادمة، وتدير نيـابةً عنه أعماله وحياته وكل شئونه المالية والأدبية والاجتماعية. ويسلم هو لها بأنها أكثر حرصًا على مصلحته منه هو، حتى ليصعب عليه تخيل الحياة بدونها .

وذات يوم كان على مـائدة العشاء مع بعض الأصدقـاء ودار حديث عن الموت، فقالت «جالا» إنها لا تخشاه.. ولا يزعجها فيه إلا أن تتخيل صعوبة حياة «دالى» وحيدًا بعدها. فإذا الفنان العبقرى «المنتفش» ينفجر فى البكاء كـالأطفـال. وكـان حين دار هذا الحديث فـوق الستين من عمره! ولقد طال به العمر وتحقق ما خشيته «جالا» ذلك المساء، فسبقته

إلى العالم الآخر عام ١٩٨٢ .. فاختلت حياة «دالى» وزهد الدنيا، وتكالبت عليه الأمراض، وأصيب بالشلل الرعاش، وفقد القدرة على الإمساك بفرشاة الرسم، إلى أن مات بعد زوجته الحبيبة بسبع سنوات عن ٨٤ عامًا، وخلَّف وراءه مئات - إن لم تكن آلاف - اللوحات الجميلة العبقرية التى تزين جدران المتاحف العالمية وبيوت هواة الفن الجميل . فهل أدركت - عزيزى القارىء - الفارق الحقيقى بين العبقرية .. والجنون ؟



# سلامتك من .. الآه (١)

من أين جاء هذا الشاعر الشعبى المجهـول بكل هذه الرقة والعذوبة والفهم العميق لحقائق الحياة ؟!

ومن الذى ألهمه كل هذه الحكمـة؛ فعرف بفطرته أن السعادة ليست فى النهـاية سـوى فى راحـة القلب وسكونه إلى من يحبّـه منْ البشر .. ويحبونه ؟

لقد تغزّل فى حبيبه .. وتشكى من بُعـده عنه وتشوق إليه.. ثم رقَت مشـاعره لكل البشر؛ فـاختتم قصيـدته العـامية بهذا الـدعاء الإنسـانى الجميل : يا رب .. كل من له حبيب لم تحرمه منه !

فأى نفس محبة للبشر وأى قلب حكيم ؟

إنه يتعذب ببعـد حبيبه عنه.. ويعـرف لسعة الفـراق ونار الحرمان، ولا يريد لأحد غيره أن يكتوى بها يعانيه.. فيلخص لنا لغز السعادة كله فى هذه الكلمات البسيطة المعبرة، ويقول لنا بغير فلسفـة إن السعادة هى

أن تحيا مع من تحبهم ويحبونك، وألا تحرمك الأقدار منهم ولا من صحبتهم ومحبتهم واهتمامهم بأمرك !

لقد تمنيت حين سمعت هذا الموال الشعبى لأول مرة أن أعرف هذا الشاعر المجهول، وأن أحييه على رقة مشاعره وصفاء نفسه وفهمه الصحيح للحياة.. فالسعادة حقًا وصدقًا ليست فى الثراء ولا فى النجاح العملى فى الحياة وحدهما؛ وإنما أولاً وبعد كل شىء فى راحة القلب بين من يحبهم الإنسان ويحبونه. أما باقى أهداف الحياة فهى تزيد أو تنقص من هذه السعادة الحقيقية؛ لكنها أبدًا لا تعوض الإنسان عنها إذا افتقدها أو غابت عنه .

ومن قبل تمنيت أن أعرف مؤلف تلك الأغنية الشعبية التى كان يغنيها المطرب «محمد العزبى» منذ ثلاثين عامًا فى أحد استعراضات فرقة رضا للفنون الشعبية، وكنا نضحك لها وقتها ونتندر بها لما فيها من خيال ومبالغة.. ثم علمتنا الأيام بالثمن المرير أن معانيها لا خيال فيها ولا مبالغة.. بل هى حقيقية وواقعية وبعيدة النظر أيضًا !.. فقد كان «محمد العزبى» يغنى من كلمات هذا المؤلف المجهول :

« قالوا لى عَدِّى بحور الشوق .. عدِّيتها.

وقالوا لى هِدْ الجبال .. بإيديّا هدِّيتها..

وقالوا لى عِدّ النجوم .. بالواحدة عَدِّيتها..

والمستحيلات من الأحلام .. شَدِّيتها..

وكل شدّة تهون بالحب شدتها..

وقالوا لى إنسى حبيبك.. قلت ما اقدرشى..

آهى دى اللى أصعب من الدنيا وقسوتها !».

ومعــه الحق واللهِ هذا المؤلف الحكيم، فما تصورناه خيـالاً قد عـرفنا بتجـربة الأيام أنه حقيقـة.. وعــرفنا أن الإنسـان قـد يستطيع فى بعض الأحيـان أن يهدم الجبال ويعبر البحـار ويهزم المستحيل إذا صح العـزم وصدقت النية.. لكنه لا يستطيع فى نفس الوقت أن ينسى بسهولة حبيبًا غاب عنه ، أو عزيـزًا فقده .. أو غاليًا حرمتـه الأقدار منه.. وذلك لأنه إنسان.. ولأنه ضعيف أمام الألم.. وأمام فقد الأحبة والأعزاء !

«والأحبّة» فى هذا الموال ليسوا فقط فتاة القلب أو فتاه، وإنما هم كل البشر الذين يحبهم الإنسان فى الحيـاة ويأنس بصحبتهم.. ويفتقدهم إذا غابوا عنه .. وتنقص بهجة الدنيا الشىء الكثير من حوله إذا حُرم منهم! وهم أيضًـــا كل من يهتف لهم القلب من أعماقــه مع المطرب العــراقى «كاظم الساهر» : سلامتك مــن الآه ! ويشعر بأن آهته تجرح صدره هو قبل أن تخرج من فمه !

ومنذ أسابيع أثار طالب جامعى شاب شجونى برسالة حزينة يروى

لى فيها أنه نشأ يتيم الأب؛ فلم تع ذاكرته الكثير عن أبيه الذى رحل عن الدنيا وهو فى الرابعة من عمره.. لكنه وجد لدى أمه كل ما كان يحتاج إليه من حماية نفسية ورعاية وعطف، فانتقل من مرحلة إلى مرحلة حتى بلغ مرحلة الجامعة وهو يعيش مع أمه وحيدًا؛ فى حين تزوج إخوته وانشغلوا عنه بدنياهم الخاصة.

ثم رحلت أمه فجأة عن الحياة قبل أن يتم دراسته الجامعية؛ فأحس بمرارة اليتم الحقيقى لأول مرة فى حياته مع إنه قد نشأ يتيم الأب منذ طفولته.. وشعر بأنه لم يعد له فى زحام البشر أحدٌ يهتم بأمره ويُعنى بصحته، ويسعد لسعادته ويحزن لتعاسته. فحاول أن يلتمس السلوى لدى إخوته الكبار، ولكنه لم يجد لديهم ما يحتاج إليه من عطاء نفسى تشتد حاجته إليه.. فانطوى على نفسه وزهد كل شىء فى الحياة حتى كاد يعتذر عن عدم دخول الامتحان، وقال لى فيما قال إنه يعجب لأمر زملائه فى الكلية الذين يتشكون دائمًا مما يفرضه عليهم الآباء والأمهات من رقابة وقيود ، فيلومونهم على السهر خارج البيت لأوقات متأخرة، ويحاسبونهم على انشغالهم عن دروسهم.. ويتشممون ملابسهم خوفًا من أن يكونوا قد ابتُلوا بآفة التدخين.. إلخ، فيسمع هو شكاواهم من هذه «القيود» وتلهفهم على حياة الحرية الخالية من كل رقابة وهو يتحسر فى أعماقه على حاله، ويقول لهم إنه يتمنى أن تسخو عليه الحياة

ببعض هذه «القيود» التى يشكون منها، لأنها تعنى أن هناك فى الحياة من يهتم بأمرهم ويطلب لهم الخير، ويحاول حمايتهم من الضياع. أما هو فيخرج من مسكنه الذى يعيش فيه وحيدًا فلا يسأله أحد متى سترجع إلى البيت كما يسألونهم، ويعود فى الليل فلا يسأله أحد لماذا تأخرت.. أو أين كنت .. ومع من أمضيت كل هذا الوقت. ويزهد فى الذهاب إلى الكلية وفى المذاكرة، فلا يسأله أحد لماذا لم تخرج إلى كليتك، ولا لماذا لا تذاكر دروسك .. لأنه لم يعد له فى الوجود كله من يهتم بأمره سواه.. ولم يعد هناك من يتحمل مسئوليته عنه. وهو يكره هذه «الحرية» التى يشتهيها زملاؤه من أعماق قلبه ويعرض أن يبادل زملاءه بها.. فينعم هو بحياة الأسرة وقيود الحب والاهتمام التى حُرم منها، ويتنازل لهم عن حياة «الحرية» التى يطلبونها، ويرون فيها بقصر نظرهم وغفلتهم أقصى المنى !

ثم يختتم رسالته لى طالبًا منى أن أبحث له عن «أسرة» تهتم بأمره وتفرض عليه هذه «القيود» الغالية، وتسأله عن دروسه، وتنهره إذا أهملها أو تراخى فيها، أو تأخر فى السهر خارج البيت !

ولأننا نحن البشر قد جُبلنا على أن نشعر «بالمفقود» أكثر مما نشعر دائمًا «بالموجود»، فلقد تفهمت جيدًا عمق وحدته وغربته النفسية وإحساسه المؤلم بفقدان النصير وهوان الشأن، بعد أن غابت عن دنياه

من كانت تهتم بأمـره. ودعوته لمقابلتى فى مكتبى، فجاءنى فى مـوعده.. ووجدت فيـه شابًّا صغيرًا كسير النفـس، واستمعت إلى قصته ومتـاعبه وحـاولت قدر جهـدى تهوينهـا عليه وتشجيعـه على تحمل أقـداره، ثم قدَّمتـه إلى عدد من الأسر الكريمـة التى اتصلت بى عقب نشر رسـالته وطلبت منى أن يتصل بها لكى يصبح فـردًا من أفـرادها، يهتمون بأمـره ويحثونه على مـواصلة دراسته، ويبعدون عنـه شبح الوحدة والاكتئاب. وتم الاتصـــال بهذه الأسر من مكتبى، فـــرحبت به ودعتـــه لزيارتها.. وتعهد أكثر من أب فاضل لأبناء فى مثل سنه بأن يعتبره واحدًا من أبنائه ويتابع معه دراسته ويشجعـه على استكمالها، ووعدته أكثر من أم فاضلة بهدية كبيرة إذا اجتاز امتحان هذا العام بنجاح !

وتذكـرت وأنا أستمع إليه حـالى حين سافرت من مـدينتى الصغيرة بالأقاليم إلى القـاهرة لألتحق بكلية الآداب جامعـة القاهرة، وأقمت فى مسكن بالقـرب من الجامعـة . وغـادرنى شقيقى الأكبر بعـد أن اطمأن على استقرارى فى سكنى عائدًا إلى مدينتنا، فوجدت نفسى فجأة وأنا فى السابعة عشرة من عمرى أعيش وحيـدًا تمامًا فى المدينة الصاخبة، وأتمتع بكامل حريتى فى الدخول والخروج من البيت والسهر فى الخارج إلى أى وقت أشاء دون أن ينتظرنى أحد ليسألنى أين كنت، أو ينهرنى لتأخرى عن التاسعة مساء فى الخارج لبضع دقـائق، أو يتحرّى التزامى بالسلوك

القـويم داخل البيت وخـارجـه.. فلم تمض أيام قليلة على هذه «الحرية الكاملـة» التى تمنيتهـــا من قبل وأنا طـالب بالمرحلة الثـــانويـة، حتى وجدتنى أضيق بها تمامًا، وأشعـر بحنين جارف إلى حياة الأسرة الدافئة، وأفتقد كل شـىء فيها حتى ما ضقـت به من قبل كقيود عـدم السهر فى الخارج .

ومضت علىَّ أيام «الحرية» بطيئـة ومملة وقـاتلة، ثم تـركت كل شىء فجأة بعد ٢٠ يومًا بالضبط وحملت حقيبتى وركبت القطار لمسافة ١٨٠ كيلو مترًا عائدًا إلى بيت الأسرة، وفـوجىء بى أبى يرحمه الله داخلاً عليه غرفـة نومه وقت الأصيل فـاتحًا ذراعى كأنما قد غبت عنه فى «المهجر» ٢٠ عـامًا وليس ٢٠ يومًـا، ودُهش أبى لمرآى لأول وهلة.. لكنه لم تغب عنه دوافعى النفسيـة لهذه العودة السريعـة، فضحك طويلاً ورحب بى بحـرارة، وسألنى عن أحـوالى فى الكليـة وفى المسكن.. وأجبتـه بأن كل شىء على ما يرام.. لكننى قد جئتُ فى «زيارة» عادية لأسرتى !

وأقمت بين عائلتى أسبوعًـا «استمتعت» فيه بالقيود التى ضقت بها من قبل حمقًا، وجهالة منى .. وتثاقلت فى العـودة للقاهرة الصاخبة التى كنت أحلم من قبل بالحيـاة وسط أضوائها ومغـرياتها، وأبى يشفق علىّ من أن يحثنى على العودة لدراستى وكليتى، وينهى أمى - كما علمت فيما بعـد - عن أن تطلب منى هذه العـودة حتى لا تفـوتنى أيام الدراسـة.

إلى أن ارتويت من نبع عطاء الأبوين لأبنائهم ودفء علاقة الإخوة والشقيقات، ثم حزمت أمرى أخيرًا وقررت العودة للقاهرة، فودعنى أبى وهو يرجونى أن أحاول الصمود لحياة الوحدة فترة أطول حتى لا أنقطع فترات طويلة عن الكلية، ووعدته بذلك وأنا أقول لنفسى : آه لو تعلم كم كانت هذه الأسابيع الثلاثة التى ابتعدت فيها عنكم ثقيلة وقاسية حتى كنت أعدّ الأيام الباقية على اكتمالها لأرجع إليكم !

ثم اعتدت بعد ذلك حياة الوحدة شيئًا فشيئًا حتى ألفتها وألفتنى، وأصبحت لا أرجع لأسرتى إلا كل شهر مرة ثم كل شهرين.. لكن إحساسى بانتمائى لأسرتى ظل دائمًا قائمًا وقويًّا. ثم بدأت أولى خطواتى فى التدريب على الصحافة بمجلة روز اليوسف وأنا ما زلت طالبًا بالسنة الأولى بقسم الصحافة بكلية الآداب، واحتجت ذات مرة للسفر من القاهرة إلى الإسكندرية لمدة يومين لإعداد تحقيق صحفى فى الميناء، فوجدتنى بتلقائية أتصل بأبى تليفونيًّا لأستأذنه فى هذا السفر، مع أنى أعيش على بعد ١٨٠ كيلو مترًا منه.. ولو سافرت للإسكندرية ورجعت لما علم بسفرى ولا برجوعى، لكنه الإحساس بوجود «الأب» فى حياة الإنسان حتى لو كان بعيدًا.. والإحساس بوجود المرجعية التى ينبغى أن يرجع إليها الابن فى شئونه المهمة واختياراته المصيرية فى الحياة .

وهذه «المرجعية» هى المظلة التى يستظل بها الأبناء فى حياة آبائهم وأمهاتهم.. فتحميهم من عوادى الدنيا، وتجنبهم الكثير من العثرات وتيسر لهم الكثير من الصعاب.. فمن عجب إذن أن يضيق بها البعض أو يسخطوا عليها، وعلى ما تمثله فى أذهانهم غير الواعية من قيود أو تسلط! إنها «عز» البنوّة لآباء وأمهات يهتمون بأمر أبنائهم ويطلبون لهم السعادة والأمان فى الحياة، ويتحملون عنهم مسئوليتهم التى اكتشف هذا الشاب كاتب الرسالة كم هى ثقيلة حين وجد نفسه مضطرًّا لتحملها وحده، لكنه لا يعرف الشوق إلا من يكابده، ولا يعرف لهذا «العز» قدره الحقيقى إلا من يُحرم منه .. كما حرم منه هذا الشاب، وكما حرم منه كثيرون غيره أعفتهم الأقدار من هذه «القيود».. وكمثلى أنا أيضًا حين فقدت أبى وأنا فى الواحدة والعشرين من عمرى وكنت قد تخرجت فى كليتى وبدأت العمل فى «الأهرام».. فشعرت كما شعر هذا الشاب بأن المظلة التى كانت تحمينى من صواعق السماء قد رفعت عنى فجأة وأصبح أمرى لا يهم أحدًا فى الوجود كله سواى .. سافرت أم أقمت.. نجحت فى الحياة أم فشلت.. سعدت أم شقيت.. طعمت.. أم زهدت الطعام.

أما «قيود» الآباء والأمهات التى يضيق بها بعض الأبناء بطرًا وغفلة، وأما حياة الحرية الخالية من كل قيد التى يحلم بها أمثالهم.. فآه

لو أدركوا معناها الحقيقى وفهموه حق فهمه، إذًا لعرفوا أنهم إنما يحلمون بأن يتنازلوا عن «عز» اهتمام الآباء والأمهات بهم، ويطلبون لأنفسهم بؤس المحرومين من هذه النعمة الجليلة الذين فقدوا من كانوا يقدمون إليهم الحب والعطاء والرعاية والاهتمام على طبق من فضة وبلا غرض سوى إسعادهم وخيرهم وصلاح أمرهم .

أما «الحرية» التى يحلمون بها .. فمتى سعدت بها كلاب الطريق التى لا يسألها أحد عما تفعل ولا يُعنى بها أحد .. ولا يهتم بأمرها أحد؟

إنها أيضًا تحيا بلا رقابة ولا قيود.. وتهيم على وجهها أنّى شاءت ولا يحاسبها أحد عن شىء.. ولا تجد من يقول لها حين تتأوه : سلامتك من الآه ! كما يفعل الآباء والأمهات مع أبنائهم قولاً وعملاً.. وسرًّا وعلانية.

فمن ذا الذى يرفض كرامة الآدمية، ويطلب مهانة حياة الكلاب الضالة التى لا رقابة عليها ولا قيود !

ومن ذا الذى يسمع هتاف هذا الشاعر الشعبى المجهول ودعاءه إلى الله بألا يحرم أحدًا من حبيبه ولا من رعايته له واهتمامه بأمره، ثم لا يردد وراءه صادقًا : آمين يا رب العالمين !

# سلامتك من .. الآه (٢)

هل تريد مثالاً آخر «لنعيم» الحرية الكاملة التى يحلم بها بعض الأبناء فى سن الشباب بعيدًا عن الأهل «وقيود» الأسرة وضوابطها ؟

لقد كنت مثلهم - كما حدثتك فى المقال السابق - أضيقُ وأنا طالب بالمدرسة الثانوية بقيود عدم السهر خارج البيت بعد التاسعة مساءً، وبمراقبة الأهل لسلوكى وحرصهم على التزامى بالطريق القويم، وأتصور أننى لحين أرحل للقاهرة لألتحق بجامعتها وأعيش فيها وحيدًا حرًّا من كل القيود، سوف تكون حياتى بها نعيماً أستمتع فيه بحريتى الكاملة بلا قيود ولا ضوابط إلا ما يمليه علىّ ضميرى وإحساسى بالواجب .. أذهب للجامعة أو لا أذهب .. أنام متأخرًا أو مبكرًا.. أستذكر دروسى أولا أستذكرها.. أخرج للسهر فى وسط المدينة أو أقبع فى سكنى لأقرأ فى هدوء . ولقد استمتعت بوحدتى وحريتى الكاملة بالفعل حين التحقت بالجامعة ووجدت نفسى أعيش «حرًّا» كالطائر الطليق . لكن هذا الاستمتاع لم يطل أكثر من أسابيع

قليلة، وحنَنْتُ بعدها إلى كل ما ضقتُ به من قبل. وبعد عامين من التنقل بين البانسيونات الصغيرة، استقررت فى شقة صغيرة من غرفتين بحى المنيل القريب من الجامعة، وانتظمت فى العمل الصحفى بالأهرام إلى جانب دراستى بكلية الآداب.. فإذا بوطأة هذا «النعيم» الذى حلمت به من قبل تشتد علىّ أكثر وتؤثر حتى على قدراتى فى العمل وفرصتى فى المنافسة الصحفية بينى وبين زملاء المهنة !

وكان ذلك منطقيًّا إلى حد كبير.. فزملائى من شباب الأهرام وقتها يقيمون مع أسرهم التى ترعاهم وتنظِّم لهم حياتهم فلا ينشغلون إلا بالعمل والتنافس فيه، فى حين أعيش أنا وحيدًا وأجد نفسى لست فقط مسئولاً عن التفوُّق فى العمل والدراسة، وإنما أيضًا عن تدبير شئون حياتى الخاصة وحدى؛ فيستهلك جانب «الخدمات» الأساسية الذى لا يكاد يشعر به الزملاء «المقيدون» بقيود الأهل، جزءًا كبيرًا من طاقتى الجسمانية والنفسية، فحتى أبسط مظاهر هذه «الخدمات» التى يتلقَّاها من كانوا يشكون من قيود الأسرة؛ كان يشكل بالنسبة لى مشكلة عويصة يمكن أن تؤثّر على عملى ونجاحى فيه ، «كخدمة» الإيقاظ من النوم على سبيل المثال !

وفى حين كان «التعساء» بقيود الأهل من الزملاء يجدون من يوقظهم من نومهم كل صباح فى وقت مناسب للذهاب للعمل

ويظلون إلى جوار فـراشهم ليعيدوا عليهم الكـرَّة مرة بعد أخـرى برفق وحنان حتـى يتنبهـوا، كنـت أستجـدى أنا «عـم سيـد »- مكـوجى الكواكب- الذى كـان يبـدو لى وقتهـا حـلالاً لأصعب المشكلات، أن يرسل أحد صبيانه فى الثـامنة كل صباح ليطرق باب سكنى ويظل واقفًا أمامه حتى أفتح له الباب، وإلا تأخرت عن العمل.. أو استغرقنى النوم حتى الظهيرة، فقـد كنت أسمع صـوت المنبـه وأعـود للنوم من جـديد بتأثير الإجهـاد؛ فإذا لم ينبهنى أحد ضـاع منى يوم العمل .. وتعـرضت للمساءلة من رؤسائى !

وبينما كـان «المعـذَّبون» بالقيـود يجدون الشـاى السـاخن والإفطار الشهى فى انتظارهم بعـد أن ينهضـوا من فـراشهم على أيدى أمهـاتهم، كنت أفتح أنا البـاب للصبى المنقـذ ثم أهرول لارتداء مـلابسى على عجل، ويا ويلتى إذا نسى «عم سيـد» ذات صباح إرسـال صبيه إلىّ، أو إذا تأخر هو نفسه فى فتح دكـانه، أو إذا تراخى فى غسل ثيابى وكيِّها، ثم أغـادر مسكنى بلا شاى ولا إفطار لأصل إلى العمل فى الموعـد الملائم، أما الشاى والإفطار فلسـوف أتناولهما خطفًا فى العمل، وأما لحيتى التى لم أجد وقتًا لحلاقتها فلسوف أنتهز فرصة دقائق خالية بعد إثبات موعد حضورى، وأتسلل إلى أقرب محل حلاقـة لأحلقها فيه اختصارًا للوقت والجهد، وأما يومى كله بعد ذلك فلسوف أقضيه فى العمل من الصباح

وحتى العاشرة ليلاً أو حتى منتصف الليل فى بعض الأحيان كشوط واحد متصل بلا راحة .. ولا قيلولة.. ولا عودة لدفء الأسرة لبضع ساعة فى الظهيرة، فأصل إلى نهاية اليوم وقد تهدّلت ملابسى واتَّسخت ياقة قميصى، وظهرت آثار الإعياء والإجهاد واضحةً على وجهى، وفقدتُ معظم حيويتى.. فى حين يرجع «المعذبون» بقيود الأهل إلى بيوتهم فى الظهيرة فيغتسلون من غبار الطريق ويتناولون طعام الغداء الذى ينتظرهم بلا عناء، ويستريحون فى الفراش لبعض الوقت، ثم يبدِّلون ملابسهم ويعودون فى المساء للعمل متألِّقى الوجوه بدماء الراحة وعناية الأهل واهتمامهم.

وحين سألنى أحدهم ذات يوم ملاحظًا إعيائى وأننى لا أكاد أفارق الأهرام حتى فى أوقات خلوى من العمل: لماذا لا ترجع إلى بيتك كل يوم وتستريح بعض الوقت لتستطيع الاحتفاظ بنشاطك فى المساء؟ أجبته بلا وعى: ولمن أرجع إليه فى النهار، وأنا أضيق أصلاً بوحدتى فيه فى الليل ؟

ومضت حياتى على هذا النحو بضع سنوات.. أخرج فى الصباح فى موعد مناسب إذا تذكرنى «عم سيد» ، أو متأخرًا عن موعدى إذا نسينى، وأرجع للمسكن الخالى فى الواحدة أو الثانية صباحًا، فإذا

رجعت لم يسألنى أحد لماذا عـدت، وإذا غبت عنه بالأيام لم يسألنى أحد أين كنت؟

وقـد تبـاعـدت المسـافـات تدريجيًّـا بينى وبين أسرتى التى تقيم فى مدينتى الصغيرة؛ فلم أعد أجد الفرصة المناسبة لزيارتهم إلا كل شهرين مرة؛ وإن كانت الاتصالات التليفونيـة بيننا مستمرة فى مواعيد منتظمة. ومن حين لآخـر تتحفنى أمى بطرد من الطعام السـاخن الذى يحمله لى أحـد القادمين للقـاهرة فى زيارة تجارية أو عـائلية؛ فأدعـو إليه الزمـلاء والأصـدقـاء، ويعـوضنى عن رداءة طعـام المطاعم الصغيرة لبعض الوقت، إلى أن أديت امتحـان الليسـانس، وفـرغت من همّ الدراسـة، وحلمتُ بالتفـرغ التام للعمل الصحفى والمنافسـة الساخنة بين زمـلاء البداية الواحدة فيه .

وأقبلتُ على عملى بالأهرام بحماس شـديـد لأعـوض انقطاعى عنه خـلال فترة الامتحـان، فلم تمض أيام على عـودتى حتى بدأت أشعـر بإعيـاء شديد وصـداع شبـه دائم، وفسَّـرت ذلك بتأثرى بما بذلت من جهد خلال أيام الامتحان التى كنت أصل الليل بالنهار فيها بلا انقطاع لأضمن النجاح. وواصلـت إقبالى على عملى بغير التفات لما أعـانى من إجهـاد، فـلاحظت بعـد أيام أخـرى أن إعيـائى يزداد .. وصـداعى لا يفـارقنـى.. وشيئًا جـديدًا من الغثيـان يعترينى، «فأدركت» أننـى قـد

أصبت بنوبة برد عارضــة، ولم أكن أضيق بشيء كما أضيق بنوبات البرد والأنفلونزا، لأنها تفقـدنى قدرتى على العمل.. فعـالجت نفسى بأدوية البرد، وترقبت الشفـاء بصبر نافــد، فلم تتحسن حـالتى وإنما ازدادت سـوءًا، وفقـــدت شهيتى نهائيًّـا للطعـام، ولم يعـد يستقـــر شىء منه فى معدتى، وكدت ألا أقـوى على المشى، ومع ذلك فأنا مستمر فى الذهاب إلى العمل ومقـابلة المسئولين الذين أجـرى تحقيقاتى الصحفيـة معهم، وكتابة التحقيقـات فى مبنى الأهرام القديم حتى الثانية صبـاحًا كل يوم وبغير أن أتناول إلا أقـل القليل من الطعـــام، وإذا تناولت شيئًـا منه لم يستقر فى معدتى لدقائق، وأنا أتعجب لحالى، ولا أجد تفسيرًا لما أعانيه، وليس حـولى من يلاحظ أى تغيرات ملفتـة للنظر فى حـالتى الصحيـة فينزعج لها كما يفعل الأهل مع أبنائهم، لأن هـذا امتياز لا «يعـانى» منه إلا «المعذبون» بقيود الأسرة والأهل !

ولأن الأمـر كذلـك؛ فلقد ظللت تسعـة أيام كـاملة وأنا أعـانى من الإعيـاء الشـديد والغثيان وارتفـاع درجـة الحرارة الذى يصل إلى حـد «الحمى» بغير أن أستشعر خطورة ما أعانى منه، ولا أدرك حقيقته .. إلى أن نهضت من نومى ذات صبـاح فوجـدت ساقىَّ لا تقـويان على حملى، ووجدتنى لا أستطيع ارتداء مـلابسى للذهاب للعمل، فقررت فى هذه اللحظة فقط أن أتعـامل مـع حـالتى بشىء من الاهتمام، وأن أعـرض

نفسى على الطبيب ! وأمضيت الوقت مستلقيًا فى فراشى أتردد بين التنبه والغيبوبة بتأثير الحرارة فى انتظار مواعيد عيادات الأطباء فى المساء بغير أن أتناول طعامًا ولا شرابًا.. ثم تحاملت على نفسى فى النهاية وارتديت ملابسى ومشيت ببطء شديد إلى عيادة طبية قريبة من مسكنى.

وانتظرت دورى فى الدخول إلى الطبيب بفارغ الصبر، وفحصنى الطبيب الذى كان معروفًا وقتها بأنه يعالج «عبد الحليم حافظ» و«محمد عبد الوهاب»، ثم رجع إلى مكتبه وسألنى سؤالاً بدا لى وقتها غريبًا على مسامعى إذ قال لى: من معك الآن من أهلك فى قاعة الانتظار لكى أتحدث معه عن نظام التغذية خلال فترة العلاج ؟ فأجبته بعفوية بأنه لا أحد معى، وبأننى قد جئت وحدى للعيادة، فلم يستوعب ما قلته له للوهلة الأولى، وسألنى: ولماذا لم يجىء معك أحد من أهلك وأنت فى هذه الحال ؟ فأجبته بأن أهلى يعيشون فى مدينة أخرى وأننى أعيش وحيدًا فى مسكن قريب من العيادة ! فكرر على السؤال متعجبًا: وحدك.. وحدك بلا أى أحد من أسرتك ؟ فأجبته بالإيجاب. فنظر إلى صامتًا للحظات ثم قال لى إنه لابد لى من دخولى المستشفى على الفور ليس فقط لأن حالتى تستدعى ذلك، وإنما أيضًا لأنه كطبيب لا يستطيع أن يسمح لى بالانصراف من العيادة الآن بعد أن علم بأننى أعيش

وحيـدًا ولن أستطيع رعاية نفسى فى مـرضى ولا تنفيذ النظام الغـذائى المطلوب خلال فترة العلاج .

وانزعجت للفكرة بشدة، ورجوتـه بإلحاح أن يعدل عنها ويسمح لى بالتداوى فى مسكنى مع تأكيـدى له أننى سألتزم بكل تعليماته. فتردد فى الموافقـة طويلاً ثم قـال لى بحـزم : لا أستطيع السماح لك بذلك إلا إذا دعـوتَ بعض أهلك للإقـامة معك لـرعايتك خـلال مـرضك.. فهل تعـدنى بـذلك وتعطينى كلمـة شرف بتنفيـذه ؟ ووعـــدته بما أراد وأنا أعرف فى قـرارة نفسى أننى لن أتصل بأهلى ولن أزعجهم بمرضى ولا بطلب مجىء أحـد أفـراد أسرتى للإقـــامـة معى فى هذه الظروف . ولا تَسلْنى لماذا لم أفكر فى ذلك وقـد كـان ضرورة تمليهـا الظروف وليست ترفًا أملك رفضـه.. فكل إنسان سجين طبعـه فى النهاية، وقـد كان من طبعى - وأظنه ما زال كذلك - أن أتكتم معـاناتى الشخصية حتى عن أقرب الناس لى مشفقًا عليهم من إزعاجهم بمتاعبى .

وهكذا عـــدت إلى مسكنى وأنا أفكـر فيما أستطيع أن أفعله لتنفيـــذ تعليمات العـلاج والغـذاء ، ولم يكن يؤرقنى تناول الدواء فى مـواعيـده الدقيقة بقـدر ما كان يؤرقنى ذلك النظام الغذائى الغـريب الذى حدده لى الطبيب، فقطعت الطريق مهمـــومًـا وأنا أتسـاءل: وأنّى لى أن ألازم الفراش أسبوعين كاملين أعيش خلالهما على العصائر الطازجة وحدها،

وليس حـولى من يعـدّها ويقـدمهـا لى فى فـراشى بدون أن أتحرك أدنى حـركة كما طلب منى هذا الطبيب المتفـائل، وكيف لى «بكَبِـد» دجاجـة مسلوقـة واحدة لتكون طعام غـدائى الوحيد بعـد بداية العلاج بثـلاثة أيام، ومن يطهوهـا ليقدم لى كَبِدها وحـده ويلقى بالدجاجـة نفسها فى صندوق القمامة أو يتناولها هو بالهناء والشفاء ؟!

ولم أكن فى حـــاجــة لأن أدرك أننى ســـوف أعيش طوال هـذين الأسبوعين على السـوائل المتاحـة، والتى يوفرها لى البـواب كلما عثرت عليـه، أو تحاملت على نفسى وغـادرت شقتـى وأنا الممنوع من الحركـة لأناديه وأطلب منه ذلك، وأن هذه السوائل لـن تعدو غالبًا زجـاجات المياه الغازية والماء الصرف من الصنبور، لأن العصائر تحتاج إلى جهد فى تحضيرها ؛ ولأن معلباتها لم تكن شـائعة ولا منتشرة فى المحلات كما هو الحال الآن.. فرجعت إلى بيتى ومعى بعض زجاجـات الكوكاكولا. ولم أجـد البـواب فى مـوضعـه المختـار لأرجـوه أن يشترى لى المزيد منهـا، وتعلق أملى بصبى المكوجى الـذى سيطرق بابى فى الصبـاح.. وخلعت مـلابسى بصعـوبة وتناولت حبـات الدواء.. ثم تهالكـت فى فـراشى، ودخلت فيما يبدو فى غيبـوبة الحمى فلم أَدْرِ بما حولى ولا بما مـر بى من الوقت، حتـى تنبهت فجأة على طرقـــات عنيفــة على بـاب مسكنى، فأصبحت مشكلة حيـاتى فى هذه اللحظـة هى كيف أقطع المسـافـة من فراشى إلى بـاب الشقة.. ثم بلغته فى النهـاية، فإذا بى أرى أمـامى آخر

إنسـان أتوقع أن يزورنى فى مسكنـى؛ وهو خـالٌ لى كـان يقيم - يرحمه الله- فى ضاحيـة مصر الجديدة ويعمل بالتعليم، وكنت أزوره كل بضعة أسـابيع.. لكنه لم يكن معتـادًا على زيـارتى فى بيتى لأننى خـارجـه على الدوام، وقد قادتـه الصدفة البحتة ذلك اليوم لزيـارتى حين وجد نفسه قـريبًا من مسكنـى فى طريق عودته من درس خصـوصى لبعض طلبـة الثانويـة العامة، فقـرر أن يمر بى ليسألنى عمًّا أخَّـرَنى عن زيارته طوال الأسابيع الماضية ! وكاد بعد أن طرق الباب بضع مرات بلا استجابة أن يرجع من حيث جاء؛ لولا أن أبلغه المكوجى بأنه قد رآنى داخلاً العمارة قبل ساعـات. ويبدو أن إعيائى كان ملفتًـا للنظر فسألنى على الفور عما بى ، فوجدت نفسى أجيبـه بأنها نوبة برد بسيطة وسوف تذهب لحالها ! وكان من الممكن أن ينخـدع خالى بها حـاولت إيهامه به، لولا أن أرادت مشيئة الله غير ذلك؛ فتشكك فيما أقول حين رآنى لا أقوى على الجلوس أمامه وأنا غارق فى بحـر من العرق، ووجهى شديد الاصفرار.. فإذا به ينهض فجـأة ويطلب منى فى حـزم غـريـب جمع مـلابسـى لأنه سيصطحبنى معه إلى بيته !

وحاولت الاعتـذار عن ذلك بكل الطرق فلم يستجب لرجائى، ولم يقبل أن يتركنى فى مسكنى مع وعـد منى بالالتـزام بالراحـة والعـلاج. وراح يجمع مـلابسى عنوة ويضعهـا فى حقيبة صغيرة ويسـاعـدنى على النهـوض من مقعـدى، ثم نقلنى بسيـارتـه وبمـلابس النوم التى كنت

أرتديها إلى مصر الجديدة، وخــلال الطريق أجبتــه - وأنا بين اليقظة والنوم - على أسئلتــه عن بداية المرض؛ فعرف أننى أعــانى منه منذ ١٠ أيام، ولكنى لم أنقطـع عن العمل، ولم أستشر الطبيب إلا ذلك اليــوم.. إلى أن بلغنا مسكنه، فلم أكد أدخلـه حتى اتجهت إلى الفراش واستلقيت عليه بدعوى أننى سأستريح بعض الوقت، فما أن فعلت حتى غبت عن الوجود كله، وفتحت عينى ظهـر اليوم التالى ففـوجئت بوجود أمى إلى جوار فـراشى ومعها بعض أهلى، وتعجبت متى جـاءت وكيف قطعت المسـافة الطويلة بين بلدتى والقـاهرة بهذه السرعة! وتحملت من عتـاب الأهل الكثير لإخفـائى نبأ مـرضـى عنهم ولمعـارضتى فى الانتقـال إلى مسكن خالى .

ولم تَمض سـاعــة حتى عــادنى فى الفـراش طبيب آخــر أخضعنى لاستجـواب دقيق عن بدايـة الأعـراض وتطورها، ولم يُـخْفِ دهشتـه لإهمالى لنفسى وصحتى إلى حـد أن أعمل ١٢ ساعة كـل يوم لمدة تسعة أيام وأنا أعانـى أصلاً من أعراض مـرض التيفود القـاتل وبغير أن أتنبه لخطورة الحال، مما لا يليق بشــاب جـامعى «مثقف» مثلى كما قــال! ثم أصدر أوامـره لى بعدم مغادرة الفـراش لمدة ١٥ يومًا كـاملة، وصدعت بأوامره ضعفًـا وعجزًا، ولازمت الفـراش بلا حراك طوال هذه الفترة، وامتنعت عن الطعام كله مـا عدا السوائل.. ثـم سمح لى بعد ثلاثة أيام

بتناول قطعة واحدة من كبد الدجاج لا تشبع طائرًا صغيرًا، ففقدت ١١ كيلو جرامًا من وزنى خلال فترة مرضى .

وظهرت نتيجة الليسانس وأنا طريح الفراش، فسعدت بنجاحى وانتهاء مرحلة الدراسة من حياتى برغم ضعفى ووهنى. وشعرت رغم كل شىء بامتنان شديد «لقيود» الأهل ولرعايتهم واهتمامهم بأمرى على الأصح حين أتيح لى بعض ذلك خلال فترة مرضى، ولولاه لكنت قد عجزت عن الالتزام بتعليمات العلاج والغذاء، ولكنت قد أمضيت فترة المرض وحيدًا فى مسكنى. كما شعرت بامتنان أكبر للأقدار التى ساقت إلىّ خالى فى هذه الزيارة غير المتوقعة، وله هو أيضًا لإصراره على أن يفرض علىَّ «قيدًا» من هذه القيود الحبيبة حين تمسّك بنقلى لمسكنه .

أما سؤال الطبيب لى مستنكرًا : كيف لم أتنبه إلى أن ما طرأ على حالتى الصحية من تغيرات كان يستدعى الاهتمام منذ اليوم الأول وليس بعد ١٠ أيام كما فعلت، فلم أستطع وقتها وأنا فى سن العشرين أن أقدم له ردًّا مقنعًا.. أما الآن وبعد أكثر من ثلاثين عامًا من هذه القصة، وبعد أن علمتنى خبرة الأيام والسنين ما لم أكن أعرفه، فإنى أستطيع أن أفسر لهذا الطبيب الآن لماذا لم أكتشف خطورة مرضى فى الوقت المناسب، ذلك أن الإنسان لا يرى نفسه إلا إذا نظر فى المرآة..

ولأن الأهل والأحبَّاء وشركاء الحياة الذين يعيش الإنسان بينهم هم مرآته التى يرى فيها نفسه، ويكتشف أية متغيرات قد تطرأ عليه، فيعرف من خلالهم إذا كان قد زاد وزنه أم نقص، وإذا كانت روحه قد تغيرت أم بقيت على حالها .. وإذا كان وجهه شاحبًا اليوم أم يتفجَّر بدماء الصحة. أما هو فلو ترك لنفسه فلن يدرك ذلك إلا بعد وقت ربما تكون الأعراض قد تفاقمت خلالها كما حدث لى وقتها، فالأهل يا صديقى «يهتمون»، ولهذا فهم «يلاحظون» و «ينزعجون».. وينبهون المرء إلى خطورة ما يطرأ عليه من أحوال إذا كان غافلاً عنها . ولقد كنت فى ذلك الوقت أعيش بعيدًا عن أهلى وسط بشر «ليس لى فى زحامهم أحد» كما يقول الشاعر، لهذا لم ينتبه أحد لمرضى وينبهنى إليه.. أو لم يأبه لى أحد بمعنى أصح لأن أمرى لم يكن يهمّ أحدًا سواى. ولا لوم ولا عتاب على أحد.. فالأهل الذين كنا نشكو من قيودهم هم وحدهم الذين يقولون لنا قبل أن ننطق بها : سلامتك من الآه !

وليس من الحكمة ولا من العدل أن يتوقع المرء من الغرباء أن يقدموا له ما لا يقدر على أن يقدمه له إلا الأهل والأعزاء والأحباء .

ولقد شكونا ونحن فى سن الصبا من قيود اهتمامهم بنا ومغالاتهم فى الحرص علينا، وحلمنا بحياة الحرية الكاملة بغير قيودهم.. فعلّمتنا تجربة السنين أننا إنما كنا فى حقيقة الأمر نشكو الحب والحنان.. ونحلم بحياة الكلاب المشردة فى الطرقات !

# ثرثرة صيفية

جـاء الصيف.. واستسلم الذهن للخمول، فـلا تتـوقع منى حديثًـا مفيدًا ولا حتى «مفهومًا» حتى بداية الخريف ! لاحظت مع تقدم العمر أن قدرتى على العمل الذهنـى الجاد تتراجع إلى أدنى مستوياتها فى ذروة الصيف مع اشتداد الحر، فى حين كـان عنفوان الشبـاب عندى لا يفرق بين حـر وبرد ولا بين صيف أو خريف، فسبحـان من يغير ولا يتغير.. ولا مفـر إذن من اعتراف ببصمات السنين والاقتناع ولو بعـد فـوات الأوان بأهميـة الاسترخـاء فى إجـازة صيفيـة كـافيـة لتجـديد النشـاط واستعادة الحيوية. من بداية الصيـف وأنا أحاول إقناع صديقى الأديب «أحمد بهجت»- رهين المحبسين الجديد بعـد «أبى العـلاء المعـرى»- بمصاحبتى فى إجازة قصيرة إلى شاطىء الإسكندرية، فيشاركنى الأمنية الغاليـة ثم يستمهلنى أيامًا قليلة حتى يجرى جراحة فتـاق صغيرة يحتاج إليهـا ويصـاحبنـى بعـدها فى السفـر، فـلا هـو يجرى الجراحـة التى لا تستغـرق سـوى دقـائق معـدودة ويستريح من آلامـه، ولا هو يدعنى

للسفر يائسًا منه ومن صحبته ! أما صـديقى الأديب المرحوم «يوسف عـوف» فكان لا يتبع إلا هواه، ولاتؤثر فيـه صداقـة ولا عشرة سنين.. فإن كان له ارتبـاط بعمل فى الإسكندرية فى الصيف؛ سافـر إليها وراح يتصل بى من هناك كـل يوم طالبًـا اللحـاق به لأن لبـدنى على حقًّـا.. ولأننا نحتـاج إلى الإجازة فى الصيف لرفع المعنويات وتجديد النشـاط، أمـا إن لم يكن له ارتبـاط هناك فلسـوف تفشل معـه كل الحيل لتـذكيره «بفلسفتـه» الصيفيـة الحكيمـة هذه ، وسـوف تتـوالى اعتـذاراته بشتى الأعذار ! فمن لى بأصدقاء يستجيبون لـدواعى الصداقة والحكمة أكثر مما يستجيبـون لدواعى الكسل وقلـة الحركـة والالتصـاق بالمكان حتى ولو اشتكوا منه !

صديقى رهين المحبسين «أحمد بهجت».. ومحبسه الأول شقته بمصر الجديدة التى لا يكاد يغـادرها، ومحبسه الثـانى غـرفة مكتبـه بها، والتى يمضى بها أكثر مـن نصف عمره.. يكتفى - وهو السباح القـديم - من أحلام السبـاحة السـابقة فى ميـاه البحر، بارتداء الشـورت أو المايوه فى البيت من مطلع الصيف حتى مقدم الخريف، فيـذكرنى ببطل مسرحية «البطة البرية» للكاتـب النرويجى «هنريك إبسن» الذى كـان يحلم بأن يكون صيادًا عظيمًا يصيد الوحوش والطيـور البرية فى الغابة، فانتهى به الحال لأن يربى بعض البط فى غـرفـة من غـرف بيتـه ثم يدخل عليهـا

حاملاً بندقيته ويصيدهـا ويخرج منتعشًا بإحساس الصياد الكبير ! تمامًا كما يسير «أحمد بهجت» بالشـورت فى أنحـاء شقتـه منتشيًـا بإحسـاس السباح الخطير.. ولا يبحر ولا سباحة ولا رمال !

اختتمت موسمى الثقـافى هذا الصيف بقراءة كتاب الأستـاذ «محمد حسنين هيكل» الخطير عن «المفاوضـات السرية بين العرب وإسرائيل» وشعـرت بعد انتهـائى منه أننى لم أعـد صـالحًا للقراءة الجادة المجهـدة للذهن قبل أولى نسمات الخريـف فى بداية سبتمبر. أمـا متعتى الـذهنيـة خلال الأسـابيع الباقية فلسـوف أجدها غـالبًا فى إعادة قـراءة بعض ما سبق لى أن قرأته وأحببته من أعمال أدبيـة وتاريخية كما أفعل دائمًا فى هذا الوقت من كل سنة !

اعتـاد الأستاذ «هيكل» - فضـلاً منه وكـرمًا - أن يهدينى كل كتبـه الجديدة كما يفعل مع معظم أصدقائه وتلاميـذه وزملائه السابقين. لكنه ما زال يصر على اعتبارى «شابًا» بعد كل هذه السنين، فيكتب لى كلمات الإهداء بخطه الـدقيق المميـز هكذا : إلى الصـديق فـلان.. إلى جيل الشبـاب ! ثم يوقع بإمضـائـه الشهير ! فأبتسم كلما قـرأت هذا الإهداء «المعبر».. وأتحسس الشعيرات البيضـاء فى رأسى وأقـول لنفسى: يا إلهى.. لم يتغير «الأستـاذ» أبدًا بعـد كل هذه السنين، ولم تتغير نظرته لنا نحن جيل المحررين «الشبـان» الذين فتح لهم أبواب العمل فى الأهرام

منذ أكثر من ثلاثين سنة، فكانوا وقتها «جيل الشباب» بين شيوخ الأهرام ومحرريه القدامى، فماذا عساه أن يقول لو رآنا بين هذه الأمواج المتلاطمة من شباب الأهرام الحاليين وهم يعتبروننا الآن جيل الشيوخ من أبناء المدرسة القديمة !

ولكن لا عجب فى ذلك ولا غرابة؛ فمياه النهر تتجدد باستمرار.. ومن كان «جديدًا» و «مجددًا» فى زمانه قد يصبح الآن «محافظًا» و«تقليديًّا» فى أنظار من يأتون بعده.. وهذه هى سنة الحياة التى يضطرد تقدمها للأمام دائمًا فى اتجاه مثلها الأعلى من خلال تفاعل القديم مع الجديد.. بل ومن خلال صراعهما أيضًا فى بعض الأحيان .

حين يستسلم الذهن للخمول.. أجد زادى الفكرى فى اجترار بعض قراءاتى القديمة، تمامًا كما تفعل الفرق المسرحية العتيدة حين تعيد تقديم بعض عروضها السابقة كل صيف وتسمى عروضها هذه «بالريبريتوار». ومن «ريبريتوار» الصيف عندى هذه الأيام اخترت لك هذه الفقرات المتناثرة التى رجعت إليها فى ليالى الصيف الحارة وأعدت قراءتها وتوقفت أمامها من جديد متأملاً ومتفكرًا .

فى مذكراتها التى وصفتها بأنها «ترنيمة لبهجة الحياة» قالت أشهر مؤلفة للقصص البوليسية فى التاريخ «أجاثا كريستى» : «كتابة المذكرات الشخصية تتطلب أن يسجل الإنسان كل شىء مهم فى

حياته، وأن يذكر تواريخ وأماكن محددة، لكنى لم أفعل ذلك حين كتبت مـذكراتى، فلقـد أردت أن أغمس قلمى فى مداد بهيج، وأن أخـرج منه بحفنة من الذكـريات الحلوة.. فتـذكـرت فقط مـا أردت أن أتذكـره ونسيت ما أردت أن أنساه. ومن أعظم أشكال حسن الحظ فى الحياة أن تكون لك طفولة سعيدة، وقد كان لى هذا الحظ العظيم، فنشأت فى بيت سعيد. وحين أعـود إلى الوراء أجد أن ذلك يـرجع أساسًـا إلى شخصية أبى الذى لم أدرك للأسف إلا متأخرة كم كان رجلاً محبوبًا من أصدقائه وكل من يتعامل معهم ».

أما على الجانب الآخـر فلقد توقفت أمـام فقرة أخرى من مـذكراتها تقـول فيهــا: «فى كل أسرة هناك دائمًا عضـو يكون عــادة هو مصـدر المتـاعب والقلق فيهـا .. وبالنسبـة لأسرتى فقـد كـان هذا العضـو هو شقيقى «تومى» الذى ظل حتى آخـر يوم من عمره مصـدرًا «للصداع» وسببًا للقلق والعناء بالنِّسبة لنا » !

يا إلهى! كنت أظنه اكتشـافًـا شخصيًّا لى حين قلت ذات مـرة إن بين أفراد كل أسرة غـالبًا عضـوًا هو «قدرها» فى الحيـاة.. أو «فاسـوختها» الذى تتحمل دائمًا وبلا ذنب جنتـه نتائج أفعـاله وتصرفاته واختيـاراته الخاطئة فى الحيـاة.. ويظل هو طوال رحلتـه مع الدنيـا سببًـا لمعـاناتها.. والفرع المائل من شجـرتها التى لا مفر أمامهـا من أن تواصل باستمرار

محاولة صلبه.. وإقامة ظهره بسند منها، لأنه كفروع شجرة اللبلاب تحتاج دائمًا إلى ما تستند إليه ! فإذا بالمؤلفة الإنجليزية الشهيرة تؤكد فى مذكراتها الشخصية أنه لا جديد تحت الشمس ولا نهاية لأسرار النفس الإنسانية الغامضة !

من كتاب العقد الفريد لـ «ابن عبد ربه» أسترجع دائمًا ما رواه عن خامس الخلفاء الراشدين «عمر بن عبد العزيز» حين تولى الخلافة؛ فوفد إليه الشعراء كما كانوا يفدون إلى الخلفاء من قبله، فأقاموا ببابه ينتظرون الإذن لهم بالدخول عليه لينشدوه أشعارهم ومدائحهم وينالوا عطاءه، فلم يأذن لهم «عمر بن عبد العزيز» حتى قدم عليه «عوْن بن مسعود» وتشفع لديه فى الإذن لهم بالإنشاد بين يديه قائلاً : إن الشعراء ببابك، وأقوالهم باقية، وسنانهم مسنونة، وقد مُدح الرسول ﷺ من بعض الشعراء وأعطاهم. فسأله عمن يقفون ببابه، فذكرهم له واحدًا بعد الآخر، فكان كلما ذكر له أحدهم قال «عمر» : قبحه الله.. أليس هو القائل.... ثم يروى بعض شعره فى المجون أو الغزل المفضوح، ويرفض استقباله، إلى أن ذكر له «عون» اسم «جرير بن اليربوعى» فلم يأخذ عليه مجونًا فى غزله، وأذن له وبادره حين مَثُل بين يديه بالقول : اتق الله يا «جرير» ولا تقل إلا حقًّا ! وأنشده «جرير» بعض المديح، واستمع إليه «عمر بن عبد العزيز» صامتًا ثم قال له: يا

«جرير».. والله لقد وُليت هذا الأمر وما أملك إلا ثلثمائة (درهم غالبا).. فمائة أخذها عبد الله (ابنه)، ومائة أخذتها أم عبد الله (زوجته).. يا غلام أعطه المائة الباقية !

فقال «جرير» الذى اعتاد العطايا السخية من قبل : واللهِ يا أمير المؤمنين إنها لأحب مال كسبته إلىّ. ثم خرج إلى زملائه من الشعراء وسألوه : ما وراءك ؟ فأجاب : ما يسوؤكم ! فلقد خرجت من عند أمير يعطى الفقراء ويمنع الشعراء.. وإنى عنه لراضٍ !

ولا تعليق من عندى على هذه القصة سوى إنها سطر جديد فى قصة هذا الخليفة التقى الورع الذى قالت عنه «فاطمة» زوجته حين سئلت بعد وفاته عن أحواله وعبادته فقالت: واللهِ ما كان أكثركم صلاة ولا أطولكم صيامًا.. لكنى ما رأيت عبدًا أخوف لله منه .

رضوان الله وسلامه عليك يا سيدى يا أمير المؤمنين .

من كتاب عن قصة حياة «أبراهام لينكولن» الرئيس السادس عشر للولايات المتحدة ومحرر العبيد (١٨٠٩ - ١٨٦٥)، عمل «لنكولن» محاميًا مع شريك له فى مكتب واحد بمدينة سبرنجفيلد، ثم بدأ يتطلع لأداء دور سياسى.. فرشح نفسه لانتخابات مجلس الشيوخ عن ولاية «إلينوى» لكنه خسر الانتخابات أمام المرشح المنافس «دوجلاس» بـ ٤٦ صوتًا مقابل ٥٤ صوتًا لمنافسه، ويوم ظهور النتيجة عاد إلى بيته

ماشيًا فى الطرق المظلمة، وكان الطريق حجريًّا زلقًا؛ فزلقت رجله وكاد يقع بجسمه الضخم على الأرض؛ إلا أنه تمالك نَفسه وشد جسمه العملاق وهو يقول لنفسه بصوت مسموع : إنها زلة وليست سقوطًا ! مشيرًا بذلك إلى تعرضه للسقوط على الأرض وإلى هزيمته أيضًا أمام منافسه فى الانتخابات.

وحققت الأيام نبوءته، فلقد ذاع اسمه فى البلاد بسبب مناظراته مع منافسه فى هذه الانتخابات التى خسرها، وبدأ كثيرون يطالبونه بالترشيح للرئاسة، وفاز بترشيح الحزب الجمهورى له لانتخابات الرئاسة وخاض المعركة بالفعل، وكان خصمه الأساسى فيها هو «دوجلاس» نفسه الذى هزمه فى انتخابات الشيوخ، لكنه انتصر عليه هذه المرة. وتحققت النبوءة بأنها كانت «زلة» ولم تكن سقوطًا ولا فشلًا نهائيًا .

وذهب «لنكولن» إلى مكتب المحاماة ليجمع أوراقه استعدادًا للمرحلة الجديدة من حياته، فراح يتأمَّل شريكه فى المكتب للحظات ثم سأله : كم عامًا عملنا فيها معًا ؟

فأجابه : ١٦ عامًا .

فقال له «لينكولن» : ولم تَجْرِ بيننا خلالها كلمة مشاحنة واحدة ؟

فأجابه شريكه الأمين : بلى يا سيدى .. ولا كلمة واحدة !

فطلب منه «لينكولن» ألا يـرفع اللافتـة التى تحمل اسمــه معـه عن مكتب المحـامـاة ؛ لأنه سيرجع للعمل معـه من جـديد حين تنتهى فترة رئـاسته لأمـريكا. لكن النبـوءة لم تتحقق هذه المرة، واغتيل «لينكولن» وهو رئيس للولايات المتحدة لفترة ثانية عام ١٨٦٥ !

فترى.. كم إنسان يستطيع أن يقول الآن إنه قد شارك أحدًا فى عمل أو حياة أو حتى صـداقة فلم تجر بينهما كلمة مشاحنة واحـدة خلال ١٦ عامًا ؟

من مـوسـوعـة تاريـخ العـالم، كـان «بطرس الأكبر» قيصر روسيـا (١٦٨٢ - ١٧٥٢) حاكمًا عبقـريًّا حكم بلاده لمدة ٤٣ سنة كاملة، وزار أوروبا وهو قيصر روسيـا متخفيًـا تحت اســم مستعـار ، وعمل نجـارًا بسيطًا فى ورشـة لصنـاعـة السفن ليـدرس الصناعـــة، ورجع إلى بلاده معجبًـا بالحضـارة الأوروبيـة وعـازمًـا على إلحاق بلاده بأوروبا لتكون قطعة منها بدلاً من عزلتهـا الآسيوية.. فبنى المدن العظيمة على الطريقة الأوروبيـة، وأنشأ الصناعـــات وفتح المدارس وحث على التعليم. لكنَّه فى اندفـــاعـه المحمــوم لتقليــد أوروبا والأوروبيين وقع فى المحظور، وأصدر قـرارًا مضحكًا يحرم على الروس إطلاق لحاهم.. وكـانوا جميعًا يفضلون ذلك، ونص القـــرار العجيب على أن يحصل مـن يريد إطلاق لحيته على ترخيص بذلك من السلطات المختصة مقابل أن يدفع ضريبة

سنوية محددة، فكانت ضريبة اللحيــة هذه - ومـا زالت- من أعجب أنواع الضرائب والرسـوم فى العصر الحديـث ! ودليـلاً جـديدًا على أن المغالاة فى التقليد قد تمسخ الشخصيـة القومية لأى مجتمع بغير أن تحقق التقدم .

فى كتاب الوجه الآخـر للدبلوماسية؛ يروى السفير «فتحى الجويلى» أن دبلوماسيًّا أمريكيًّا كانت بينهما دائمًا مساجلات ودية يفاخر كل منهما فيها بقومه وحضارته، فجـاءه الدبلوماسى الأمريكى ذات مرة وقال له وهو سعيد : إن إحدى الولايات الأمـريكية قد أصدرت مـؤخرًا قرارًا يمنع زواج المطلقة برجل آخـر قبل مرور ثلاثة شهـور على طلاقها. ثم سأله منتشيًـا : هـل عندكم قـانون متحضِّر كهـذا القـانون ؟ فضحك السفير «الجويلى» وقـال له: إن هذا القـانون «المتحضر» الذى أصـدرته تلك الولاية منـذ شهـور قليلة يعمـل به المسلمـون فى أنحـاء الأرض الأربعـة منذ ١٤ قـرنًا قـد ورد فى القـرآن تحريًا لحمل المطلقـة وتجنبًـا لاختلاط الأنساب !

وعجبى !

ومن مذكـرات «شارلى شابلن» أن «وليم هيرست» ملك الصحـافة الأمريكيـة فى العشرينيات والثـلاثينيات كـان يهاجم فى صحفـه رجال «وول ستريت» شـارع المال والأعمال، فـالتقـى رجل الأعمال «راسل

سـدج» بوالدة «وليم هيرست»، وكـانت مغـرمـة بابنهـا ويتمتع دائماً بتأييدها.. فقال لها « سدج » :

- إذا استمـر ابنك يهاجم «وول ستريـت» فإن صحيفتـه ستخسر مليون دولار كل عام .

فأجابتـه الأم بهدوء : حسنًا، بهذا المعدل يستطيع ابنـى أن يستمر فى المهنة لمدة ٨٠ عامًا !

ومـا أحلى أن يؤمن الآباء والأمهـات بأبنائهـم، وأن يتمتع الأبناء بتأييدهم ومساندتهم الأدبية والمعنوية لهم طوال الحياة .

ومن رواية السيمفـونيـة الريفية للأديب الفـرنسى «أندريه جيـد» ، تأمل القَس العـاشق عشقًـا عفيفًـا صـامتًـا للفتـاة العميـاء الجميلة «جرترود» السماء فى ليلة هادئة وقال :

«أمن أجلنا يا رب جعلت الليل شديد العمق.. والهواء دافئًا.. ونور القمر يتهادى إلىّ من النافذة فيغمـرنى بفيض من السحر .. ربِّ إن كان للحب حـدًّا فهـو من صنع البشر وليس من صنعك أنت، ومهما يظهـر حبى آثماً فى أعين الناس فألهمنى الإيمان بأنه عندك طاهر نقى » !

.. ولا تعليق من عندى على هذه الكلمات الرقيقة الحانية !

أمـا من طبقـات الشعـرانى فإنى أختتم هذه الثـرثرة الصيفيـة بهذه

المناجاة الفـريدة من نوعها التى رواها عن العـابدة القانتة «عـائشة بنت جعفر الصادق» سادس أئمة الشيعـة الإمامية، وقد أثر عنها أنها ناجت ربها ذات مرة فقالت : وعزتك وجـلالك لئن عذبتنى لآخذن توحيدى بيدى وأدور به على أهل النار أقول لهم : وحدَّته .. فعذبنى !

فأى وجـد أوحى لهذه العـابدة القـانتـــة بهذه المناجـاة الفـريدة من نوعهـا؟.. وأى «حال» صوفيـة ساميـة سمحت لها بأن تُدِلَّ على ربها.. بأنها سوف تحتمى بتـوحيدها له من كل عـذاب.. فإن حدث مـا تخشاه فلن تسكت !

وكل سنة وأنت « شبـاب » العقل والروح والقدرة على احتمال حـر الصيف !

# مطرب «العواصف»

لا أدرى لماذا أتذكره الآن وقد مضت عشرون عامًا على الأقل منذ رأيته آخر مرة ؟

هل لأننى أرى «أشباهًا» كثيرين له فى الحياة يكررون نفس «الخطأ المشترك» وإن كانوا لا يدفعون ما دفعه هو من ثمن باهظ لخطئه ؟

أما الخطأ المشترك فهو أن يعمى الإنسان عن قدراته الحقيقية ويطلب لنفسه ما لا ترشحها له إمكانياته، مدفوعًا فى ذلك بتطلع الإنسان المحموم لأن ينال ما ناله غيره من حظوظ فى الحياة بغير أن يتوقف أحيانًا ليسأل نفسه : وهل تسمح لى قدراتى وملكاتى حقًّا بما سمحت به الحياة لهؤلاء الفائزين ؟.. وهل عانيت أنا بعض ما عانوه قبل أن يحققوا نجاحهم لكى أطلب لنفسى جوائز الحياة لهم ؟.. وهل تكفى «الرغبة» العارمة وحدها لنيل الأشياء بغير أن تساندها القدرات والإمكانيات والظروف المواتية التى تسمح ببلوغ الأهداف ؟

إن مأساة البعض تبـدأ غالبًا حين يتطلع الإنسـان لحظوظ الآخرين، فيسأل نفسه هذا السؤال المخادع :

– وماذا «يزيد» عنّي فلان لكى ينـال من الحياة ما لا أناله أنا ؟ ولماذا لا أطلب لنفسى ما طلبـه هو وحصل عليه وتمتع به ؟.. فيتغـافل بذلك عن حقائق جوهرية مهمـة هى أن «الغيرة» من حظوظ الآخرين ليست مبررًا كـافيًـا أبـدًا لنيل مثل حظوظهم، ولا الرغبـة الضـارية أيضًـا فى الحصول عليها كافية وحـدها لنيلها.. فمطالبنا من الحياة – كما يقول لنا المفكر الفـرنسى مونتسكيـو – عادة كثيرة ، ويصعب تحقيقهـا كلها لأن ذلك لا يتـوقف على إرادتنا وحـدنا، وإنما أيضًا على أشخـاص آخـرين وظروف قـد تسمح بذلـك أو لا تسمح، تمامًـا كما يفعل الإنسـان حين يرغب فى الحصول على بدلة جـديدة فلا تكفى رغبتـه وحدها فى تحقيق ذلك، وإنما لابد أيضًـا من أن تتـوفـر لديـه الإمكانيـات التى تسمح له بشراء القماش الفاخر المناسب، وأن يكـون محل القماش مفتوحًا ليشتريه منه، والقماش نفسـه متوفـرًا فيه، وبعـد ذلك كله وقبله فلابد أيضًـا من موافقة «حائك الملابس» على تفصيل هذا القماش وتحويله إلى بدلة أنيقة يسعد بها من يـرتديها.. وكل هذه الظروف – وخاصـة موافقـة «حائك الملابس»– لا تخضـع لسيطرة الإنســـان ولا لإرادتـه. ولأن البعض يطلبـون لأنفسهم الكثير أحيـانًا بغير الحصــول على مـوافقـة حـائك

الملابس التى ترمز هنا للقـدرة الإلهيـة والإرادة العليـا التى تحكم هذا الكون، فإن المأساة تتكرر من جيل إلى جيل بلا نهاية ..

ولم يكن صديقى «مطرب العـواصـف» - بالصـاد وليس بالطاء - سوى واحد من ضحايا هذه المأساة الإنسانية الأزلية .

فلقد نظر فى المرآة ذات يوم منذ ثلاثين عامًا فوجد نفسه قريب الشبه من مطرب جيلنا عبـد الحليم حـافظ .. وتلفت حـوله ورأى العندليب الأسمـر يحلّق فى سماء الشهـرة والنجـاح والثـراء .. وقلوب الفتيـات والشباب تخفق له فى كل مكان، فسأل نفسه : وماذا ينقصنى لكى أكون فـارس القلوب والأسماع فأستمتع بالشهـرة والثـراء وحب الملايين «مثله» ؟

إننى أحفظ أغانيه.. وصـوتى لا بأس به برغم حقد الحاقدين الذين يتغامزون علىّ كلما غنيت أغانيه أمامهم، كما أننى عليل الجسم ومريض المعـدة من أثـر النشأة البـائسـة فى الريف مثلـه.. فلماذا تفـرق إذن بيننا الحظوظ ؟

وبغير استئذان «حـائك الملابس» والتأكد من القـدرات والمواهب؛ اتخذ هذا الشـاب البائس قـرارًا مصيريًّا بالاستقالة من عمله كمـدرس بالمدارس الابتدائية بقريته، وهاجر إلى الإسكندرية ليبدأ رحلة الصعود إلى النجـاح والشهـرة، متجـاوزًا عن توسـلات أمـه وإخـوته إليـه ألا

يحرمهم من مورد الأسرة الوحيد بعد أن عانت ما عانت فى سبيل تعليمه. وغزا الشاب الحالم المدينة الكبيرة باحثًا عن حظه؛ فنزل ضيفًا على بعض أبناء قريته الذين يدرسون بجامعة الإسكندرية، وليس فى يده من سلاح سوى بضعة جنيهات وبدلة سوداء اشتراها بمعظم مدخراته ليبدو فى مظهر لا يختلف عن مظهر العندليب، ثم صفف شعره على طريقة عبد الحليم حافظ وتوجه إلى إذاعة الإسكندرية طالبًا «اكتشافه» وتقديمه للجماهير ..

وبعد معاناة طويلة انعقدت لجنة الاستماع بالإذاعة واستمعت إليه وهو يغنى أغانى عبد الحليم ويقلّد حركاته وإشاراته، فانفجر أعضاء اللجنة فى الضحك، ونصحوا الشاب بأن يرجع إلى مهنة التدريس لأن قرب الشبه بينه وبين عبد الحليم حافظ لا يكفى لأن يصنع منه مطربًا .

وغادر الشاب مبنى الإذاعة حزينًا مكتئبًا، وبدلاً من أن يتبين وجه الحكمة فيما نصحه به أعضاء لجنة الاستماع، «تذكر» أن عبد الحليم حافظ نفسه قد واجه الفشل فى بداية حياته ولم يُثْنِ ذلك عزمه.. فقرر هو أيضًا ألا ينهزم أمام حقد هؤلاء الحاقدين من أعداء النجاح وأن يصنع نجاحه خارج مبنى الإذاعة ليفرض نفسه عليها وعلى إذاعة القاهرة نفسها فيما بعد. وتوجه إلى مسارح المنوعات التى كانت منتشرة وقتها بكورنيش الإسكندرية وعرض نفسه على أصحابها.. وامتحنه

أكثر من واحد منهم ثم رفضه ساخرًا منه أو مشفقًا، إلى أن لمعت فى ذهن أحدهم فجأة فكرة أن يستفيد من شبه هذا الشاب البائس بعبد الحليم حافظ ويقدمه فى مسرحه بلا أجر على سبيل التجربة .

وجاءت لحظة المواجهة الأولى مع جمهور هذا المسرح فى المساء، وقدمه المذيع بأنه العندليب الأسمر الجديد ، وصعد المطرب الشاب إلى المسرح، فلاحظ الحاضرون الشبه الواضح بينه وبين مطربهم المحبوب، وترقبوا أن يكون صوته أيضًا شبيهًا به، وعزفت الفرقة الموسيقية مقدمة أغنية «نار يا حبيبى نار».. ثم بدأ المطرب الجديد الغناء، فإذا بصوته يتسلخ وينشرخ ويتحول إلى عواء يثير الفزع والضحك والرثاء معًا. وتلفت الحاضرون حولهم يتساءلون عن تفسير لهذه الحكاية فلم يجدوا لها تفسيرًا، وراقبوا المطرب الشاب وهو يغمض عينيه ويقلد حركات عبد الحليم وإشاراته فلم يلبث بعضهم أن وجد فى المقارنة بين الأصل والصورة ما يثير الضحك والسخرية.. فبدأوا «يستمتعون» بالفقرة الغنائية، ويضحكون من قلوبهم ويهللون للمطرب الجديد، ويطلبون منه إعادة المقاطع والأغنيات وقد سرى بينهم تيار غريب من الابتهاج. وزادهم استمتاعًا بالفقرة أن شاهدوا أعضاء الفرقة الموسيقية التى تصاحب الشاب أنفسهم مستغرقين فى الضحك ويتحمسون لمواصلة العزف وراء «المطرب» من باب السخرية. وكل ذلك والشاب البائس لا يشعر بسخرية الساخرين، أو يشعر بها.. ويفسرها كعادته فيما لا

يريد الاقتناع به بأنها من أثر حقد الحاقدين على موهبته الصاعدة .

وانتهت الفقرة الغنائيـة بعد أن حققت أثرها البهيج على الحاضرين. وأدرك صاحب المسرح حقيقـة الموقف من الوهلة الأولى؛ فقرر السماح له بالاستمرار فى العمل كل ليلـة ولكن ليس كفقرة غنائية عـاطفية، كما يتوهم الشاب، وإنما كفقرة فكاهية تمتع الجمهور وتثير ضحكهم .

وفى الليالى التـالية تكررت المفارقة المؤسفـة بين غناء المطرب الشاب العـاطفى الحزين وبين ضحك الجمهـور وأعضـاء الفـرقـة الموسيقيـة وابتهـاجهم الغـريب طوال الغنـاء، إلى أن أصبحت هذه الفقـرة أنجح فقرات هذا المسرح وأكثـرها إثارة لاهتمام الجمهور ومتابعتـه، والشاب غـارق فى أحـلامه وأوهـامه، ويتصـور أن هذا الإقبـال عليـه هو بشير النجاح والشهرة وتحقيق الآمال .

صحيح أن صـاحب المسرح لا يعطيـه سـوى جنيهين فقط كل ليلة ينفق أكثـرهما على كى البـدلة والقميـص وتلميع الحذاء وحـلاقـة ذقنه وتصفيف شعره عند الكوافير كل مساء على طريقـة عبد الحليم حافظ ، فلا يبقى له بعد ذلك ما يقيم أوده أو يسمح له باستئجار غرفة يقيم بها! لكن لا بأس بذلك.. فهكذا عانى أيضًـا عبد الحليم فى بدايته ثم انهالت عليه بعد ذلك جوائز النجاح .

لكن الفقـرة الغنائية تطورت بعـد ذلك تطورًا مؤسفًـا ساهمت فيـه شخصية هذا الشاب البائس نفسه. فـلأنه يتوهَّم فى نفسه مطربًا عاطفيًّا خطيرًا، فلقـد كـان ينأى بنفسـه عن مخالطة أعضـاء الفـرقـة الموسيقيـة والعاملين بالمسرح، كما ينبغى لفنان موعـود بالمجد مثله، فكرهه هؤلاء بدلًا من أن يتعاطفوا معه، وكـرهوا «كبرياءه» الفنى البائس وترفعه عن الاقتراب منهم. وتحولت كـراهيتهم له مع مرور الأيام إلى روح عـدائية قـاسيـة لا تراعى مشـاعـره ولا يردعهـا صـاحب المسرح الذى أصبح يستمتع أكثر من غيره بما فعلوه مع مطربه الموهوم .

وفى كل ليلـة راح العـــاملون فى المسرح يتفننـون فى السخــريـة من المطرب والإساءة إليه؛ فـلا يجدون منه سوى نظرة الاستعلاء والصمت المتكبر والازدراء. وقد بدأت موجة العـدائية ضده حين كان يغنى ذات ليلة أغنية «نـار يا حبيبى نار»، فهرول إلى المسرح أحـد العاملين بكوب من الماء وألقـاه على المطرب بدعـوى إخماد النـار التى شبت فيـه فجأة، والجمهـور وأعضـاء الفرقـة الموسيقيـة يتمايلون من الضحك والنشـوة والابتهاج .

وبرغم ذلك فقد واصل المطرب نفس الأغنية بلا احتجاج وأغمض عينيه من جـديد .. وجعر : نار .. نار .. نار. فإذا بأحـد العاملين يهرول إليه بطفاية الحريق ويفتحها عليـه فوق المسرح فتغطيه الرغاوى من كل

جانـب، ويتوقف الموسيقيون عـن العزف من شدة الضحـك.. ويغرق الجميع فى نوبة من الضحك القاتل .

ولم ينقطع المطرب الشـاب برغم كل ذلك عن الغناء فى المسرح بعـد هذه الليلة، ولم يلتقط الإشارة الواضحة التى لا تحتاج إلى بيان بأنه ليس مطربًا ولن يكون كـذلك ذات يوم، وواصل تحديه لظروفه وإمكانيـاته بلا نهاية.. فتحولت فقـرته الغنائية فى الليـالى التالية إلى تراجيـديا مبكية ومضحكة فى الوقت نفسه! فبالإضافـة إلى إخماد «حريقه» كل ليلة بفتح الطفـاية عليه وإلقـاء الماء، فقد كـان لا يغنى من أغانى عبـد الحليم إلا الأغانى الحزينة المغرقة فى الحزن مؤمنًا بأن المطرب «العاطفى» لا ينبغى له أن يغنى إلا مثل هذه الأغانى .

وضاق بذلك أعضاء الفرقة الموسيقية، وراقبوه بملل ذات ليلة وهو يغنى أغنيـــة «فى يوم فى شهـر فى سنـة تهدى الجراح وتنام».. ثم طرأت لأحـدهم فكرة مفـاجئة؛ فهمس بها لـزمـلائـه وفـاجأوا المطرب وهو منهمك فى الغناء الحزين بعزف موسيقى أغنية «تعاليلى يا بطة»، وصفق الجمهور مع الإيقـاع والضحك يقتلهم، والمطرب البائس ينظر للفـرقة فى حسرة وينتظر حتى يكف أعضـاؤها عن العبـث ويعـودوا لعــزف مـــوسيقى الأغنيـــة الحزينة؛ فيرجعـــوا إليهـا ويستسلم هـو للغناء والتأوهات فيقطعون عليه اندماجه مرة أخرى بنفس الموسيقى الهزلية!

واحتج المطرب لدى صاحب المسرح، فلم يحفل باحتجاجه.. وأصبح تقليدًا متكررًا بعد ذلك كل ليلة أن يغنى المطرب فى واد وتعزف الفرقة فى واد آخر ما يحلو لها من موسيقى الأغانى الضاحكة .

ومع تكرار القصة كل ليلة بنفس عبثها وتفاصيلها فقدت الفقرة المبتكرة جدتها وبهجتها، فزهد فيها صاحب المسرح بعد حين وصرف المطرب البائس طالبًا منه البحث عن عمل آخر .

وخلال هذه الفترة العجيبة من حياته التقيت به فى مسكن بعض أصدقاء الطفولة الذين يعملون بالإسكندرية خلال زياراتى لهم، وناقشته طويلاً فيما تردت إليه أحواله بعد أن هجر مهنته الأصلية وقريته، وحاولت إقناعه بالعودة إلى أسرته وقريته وعمله كمدرس، وأن ينفس عن هوايته بالغناء فى الحفلات المدرسية مؤكدًا له أنه إذا كان صاحب موهبة حقيقية، فلسوف يسعى إليه حظه ذات يوم ولو كان فى آخر بلاد الدنيا. ففوجئت به ينظر إلى فى ألم ويقول لى متحسرًا : حتى أنت يا أستاذ تنصحنى بما ينصحنى به الحاقدون والجهلاء بدلًا من أن تكتب عنى وتأخذ بيدى ! فأدركت أن الحال قد أصبحت مستعصية على العلاج.. وأنه لا أمل فى الإصلاح إلا بعد أن تلقنه الحياة دروسها القاسية بمطرقتها الثقيلة.

وعزفت عن محاولة نصحه، وعلمت فيما بعد أن أحواله قد واصلت

التدهور إلى مالا نهاية، فضاق بضيافته الطويلة مضيفوه من أبناء بلدته، وأصبح يتنقل بين بيوت المعارف القليلين فيقضى ليلة هنا وليلة هناك ضيفًا غير مرغوب فيه . وقد يعز عليه المأوى أحيانًا، فيمضى ليلته فى محطة السكة الحديد نائمًا «ببدلة السهرة» الرثة بين المتسولين وجامعى أعقاب السجائر .

ثم انقطعت عنى أخباره بعد ذلك ونسيته فى زحام الحياة، فإذا بى ألتقى به بعد خمس سنوات بالصدفة على كورنيش الإسكندرية يرتدى نفس البدلة الرثة.. ونفس الكرافت التى يثبتها بدبوس رخيص، وربما نفس القميص المتهالك أيضًا الذى يضع فيه أزرارًا معدنية قديمة.. وقد ازداد جسمه نحولًا وبدت عليه آثار سوء التغذية، وبرغم ذلك فهو يمشى بنفس الطريقة المتعالية.. ويضع منديلا فى جيب الجاكت، ويتحدث بنفس الصوت العاطفى الهامس. فرأيت فيه تطبيقًا عمليًا لهذا التعبير الفريد الذى صكه الأديب الفرنسى أناتول فرانس حين وصف حال شخص مثله فقال عنه: إنه أنيق «أناقة قذرة» ! وسألته عن أحواله فقال لى إنه ما زال يبحث عن النجاح .

وسألته كيف يدبر أمور حياته بعد كل هذه السنوات؟ فأجابنى فى خجل أنه اضطر تحت ضغط الظروف القاهرة إلى تقديم بعض «التنازل» عن كبريائه الفنى فقبل أن يكسب رزقه بالعمل كمدرس

خصوصى للحساب والهندسة لعـدد من أبناء وأقارب بعض معارفه فى الإسكندرية؛ لكنه يعتبر هذه المرحلة من حياته «محطة» مـؤقتة لن يلبث أن يغادرها فى أقرب وقت .

وودعته على الشاطىء وانصرف كل منا إلى طريق .

ولست أدرى ماذا صنعت به الدنيا بعد ذلك. فإذا كنت أتذكره الآن من حين لآخر فلأننى ألتقى أحيانًا بأشخاص يطلبون لأنفسهم حظوظ الآخرين بغير أن تتـوافر لهم قدراتهم ومـواهبهم، بل ولا ظروفهم التى سمحت لهم بتحقيق مـا حققوه. وبرغم ذلك فهم ينفسـون على هؤلاء الآخـرين حظوظهم من الـدنيـا ولا يلومـون أنفسَهم أبدًا على تطلعهم المحمـوم إلى مـا لا تسمح لهم بـه ظروفهم، ولا على رغبتهم المتعجلة فى نيل جـوائز الحيـاة بغير أن يقدمـوا لها قـرابين الكفاح والعطاء والعـرق لسنوات وسنوات، ولا على أنهم لا يتفهمـون أبدًا أن «الرغبة» وحـدها لا تكفى، وأنه لابد دائمًا مـن مـوافقـة «حـائـك الملابس» لكى يحصل الإنسان على حُلة جديدة !



# عصفور .. كل إنسان

هل تذكر حكاية ذلك الفيلم العـربى القديم عن الزوجة الحالمة التى كـانت تستسلـم كثيرًا لأحـلام اليقظة، فتتمثل نفسهـا فى شخصيـات بطلات الأفـلام التى تشـاهدهـا، وتبـدأ فى التصرف بنفس طريقتهـا فتسبب لزوجها مشاكل محرجة وطريفة ؟

يبـدو والله أعلم أنه قد حـدث لى شىء شبيـه بذلك، لكنى سأؤجل الحديث عنه إلى أن أروى لك أولًا قصة «الظروف» المحيطة به !

منذ فترة قصيرة قرأت رواية «هموم شخصية» للأديب اليابانى «أوى كنزابورو» الحاصل على جائزة نوبل للأدب عام ١٩٩٤، فاجتذبتنى منذ سطورها الأولى.. واستغـرقت فى قـراءتها بلهفة وعـايشت شخصيـات أبطالها.. وتعاطفت مع بعضهم و «صادقتهم» حتى كدت أتخيَّل ملامح وجوههم .

والرواية تحكى قصة شاب عمره ٢٧ عـامًا اسمه «بيرد» أى طائر أو

عصفـور كما يناديه الجميع. وهو شـاب قليل الأصـدقـاء وحـالم، وكلما واجهته مشكلة كبيرة من مشاكل الحيـاة هرب من مواجهتها بالانغماس فى شرب الخمر.. فأضاعت الخمر طمـوحه وتوقف عن دراساته العليا، وسعى له صهره الأستـاذ الجامعى حتى عَيَّنَهُ مدرسًـا فى مدرسـة لتقوية الطلاب الراسبين فى المدارس الحكومية. وقـد تزوج عصفور منذ عامين لكن أحـلامًا غـريبة تـراوده وتغريه بأن يترك كل شىء وراءه ويفـر من قفص الزوجيـة والحيـاة الرتيبـة فيرحل إلى أفـريقيـا ويرتاد أحـراشهـا وغاباتها ويعمل مرشدًا للسياح الأجانب الباحثين عن المغامرة والإثارة فى القارة السوداء. ويسيطر على خياله حلم أفـريقيا.. فيشترى خرائطها ويروح يدقق النظر فيهـا بالسـاعات، ويدخـر من مـرتبـه مبلغًا يبـدأ به مغامرته الكبرى حين يقوى على مغادرة القفص .

والرواية تبـدأ وهو يعيش وحيدًا فى مسكنه مع خـرائطه وأحلامـه، فزوجتـه فى المستشفى تضع مولودها الأول.. وهو لا يعـرف هل يسعد بهذا المولـود الجديد حين يجىء أم يضيـق به ؛ لأنـه سيصعـب من حلـم الهروب ؟!

ويجيئه رنين التيلفون بالخبر المرتقـب، ويسرع إلى المستشفى.. فيقابله الطبيب بوجوم.. ويعرف منه أن زوجتـه على خير ما يرام.. لكن المولود الجديد ليس كـذلك.. فهو «مسخ» مشـوَّه يخرج من رأسه نتـوء ضخم

بحجم الرأس الأصلية، وهيئته ليست بشرية، ولابد من نقله على الفور إلى المستشفى الجامعى الكبير لإجـراء جـراحـة خطيرة له لفصل هذا النتوء الضخم عن رأسه !

ويصاحب عصفـور سيارة الإسعـاف التى تنقل طفله إلى المستشفى الكبير، ويبلغـه الأطبـاء بأنه لابد مـن الانتظار لبضعـة أيام تتم خـلالها تغـذية الطفل وتقـويته حتى يتحمـل عناء الجراحة، ويصـارحـونه بأن احتمالات النجاح ضعيفة.. وبأنه قـد ينمو - إذا نجا من الموت - طفلاً غير طبيعىّ، وربما ليس أكثر من «نبات بشرى» لا يعقل ولا يحس !

ويكتئب عصفور لما سمـع.. لكنه يعود إلى بيته فيخـرج المبلغ الذى ادخره لتحقيق حلـم أفريقيا ويودعـه خزينة المستشفى كتـأمين لنفقات الجراحة. ويزور صهره ليبلغه بالحقيقة القـاسية، فيستشعر الرجل أزمته النفسية ويُهديه زجاجة خمر يتصوَّر أنه فى أشد الأوقات احتياجًا لها .

ويسأل عصفور نفسه بعد مغادرة صهره : أين تذهب الآن ؟.. ومن يشاركه هذه الزجاجة وهو بلا صداقات حميمة تقريبًا ؟.. فيتذكر أخيرًا زميلته السابقة فى الجامعـة وصديقته فى إحدى المراحل «هيميكو».. إنها أنسب إنسان يستطيع أن يشاركـه أوقاته فى هذه الظروف الكئيبة.. فهى أرملة شابة انتحـر زوجها بعد عام واحـد من الزواج، وتعرضت لمحنة عصبية أليمة، وأشفق عليها والد زوجهـا الراحل وتكفل بنفقات بيتها

وحياتها وفـاءً منه لابنه، فعـاشت حياة بوهيميـة غريبة.. تنـام فى النهار وتخرج فى الليل فتقضى السـاعـات تقـود سيـارتها بسرعـة جنونيـة بلا هدف، وتقيم عـلاقات عـابرة مع من تشاء. وتوجـه عصفور إلى بيتهـا وشاركهـا زجاجـة الخمر وشرب أكثـرها.. وأمضى الليل عندها، وفى الصباح البـاكر صحـا من نومه على تقلصـات رهيبة فى معـدته وغثيان خانق يقتله، فأسرع إلى الحمام وعوى مفرغًا معدته، ثم غادر بيت زميلته القديمة إلى مدرسته وهو ما زال يشعر بالألم والإعياء، وألقى درسه على تلاميذه وهو يقاوم الغثيان.. حتى اشتد عليه فانحنى وراء منصة المعلم وواصل إفراغ معدته بعواء أشد !

وشـــاع فى المدرسـة أنه جـاء إلى عمله مخمـورًا؛ فطـالبـه مـديرها بالاستقالة، ورجع عصفور إلى بيت صديقته البوهيمية ولخص لها حاله فى كلمات موجـزة هى : جاءنى طفل لا أريده.. وفقـدت وظيفة لم أكن أحبها !

وزار عصفـور المستشفى الذى يرقـد بـه طفله ورآه فى الحضَّـانة من خلف الزجاج؛ فهـالته بشاعـة شكله وهيئته، وبعـد حوار باطنى قصير مع نفسه سلم بأنه لا يريد هذا الطفل على أى حال من الأحوال، وليس مستعـدًا أبدًا لمواجهة مسئوليتـه، وأبلغ الطبيب المختص بقـراره الخطير وهو أنه لا يريد تقوية الطفل لكى يتحمل الجراحة المشكوك فى نتيجتها

وإنما يريد إضعافه بتقديم اللبن المخفف بالماء أو الماء المسكر له حتى يموت تدريجيًّا ويستريح !

ويمتثل الطبيب لرغبة الأب الذى يعطيه القانون فى بلاده هذا الحق البشع، وينصرف عصفور واجمًا ومكتئبًا وينتقل للإقامة الدائمة فى مسكن صديقته فى انتظار رنين التليفون الذى سيحمل له نبأ وفاة الطفل فى أية لحظة.. وتوثق الحياة المشتركة الروابط بينهما من جديد حتى يفاجأ بها بعد أيام تشاركه حلم أفريقيا وتؤكد له اعتزامها مصاحبته إليها، ويستغرق عصفور فى أحلامه فيقول : حين يموت الطفل وتسترد زوجتى صحتها سأحصل على الطلاق.. وأذهب إلى أفريقيا وأصبح حرًّا أفعل ما أشاء حيث أشاء !

لكن انتظاره لمكالمة المستشفى التى ستحمل له «البشرى» يطول، وينغمس خلال فترة الانتظار فى مشكلة دبلوماسى أجنبى صديق وزميل له فى جمعية الدارسين الثقافية، فلقد أحب الدبلوماسى الذى يعمل بسفارة إحدى دول البلقان الشيوعية فتاة يابانية وهجر مكتبه وسفارته وأقام معها فى مسكن صغير بحى شعبى مزدحم.. والسفارة تستنجد بأعضاء الجمعية لإقناعه بالعودة بهدوء حتى لا تضطر لترحيله لبلاده بالقوة.. وعصفور هو أقرب الأعضاء إلى قلبه، فيبحث عنه حتى يعثر عليه، ويرفض الدبلوماسى العودة مضحيًّا بكل شىء، ويسأل

عصفـور عن أحواله فيحكى له قصــة المولود المشوَّه الذى يترقب مـوته بلهفـة، فيتساءل الدبلومـاسى العـاشق متعجبًا : ولماذا تنتظر مـوته وفى استطاعتك إجراء جراحة لإنقاذه أيًّا كـانت نتائجها ؟! فيغادره عصفور مضطربًا ومرتبكًا !

وأخيرًا تستـدعيـه المستشفى، فيسرع إليهـا متصـورًا أن المشكلة قـد حلت بوفاة الطفل.. فيفـاجأ بالجراح الكبير يبلغه بأن صحـة الطفل قد تحسنت كثيرًا ويطلب موافقته على إجراء الجراحة له !

ويواجه عصفور لحظة الاختيار الحاسمـة وتشاركه صديقته التفكير واتخاذ القرار الصعب، فيحسم أمره فى النهاية بعـدم موافقته على إجراء الجراحة، ويطلب منه المستشفى تسلم طفله ومغادرة المكان .

وتشير عليه صديقته - وقـد ازدادت حماسًا لفكرة المغامرة والرحيل إلى أفـريقيا - بإيداع الطفل عيـادة طبيب مشبـوه تعرفـه وتغذيتـه بالماء المسكر فقط إلى أن يموت تدريجيًّا !

وتصاحبه إلى المستشفى، فيتسلم طفلـه ويستعيد قيمة التأمين الكبير من خزينته، وتجوب السيارة الشوارع الضيقـة والمتعرجة بحثًا عن عيادة الطبيب .

وخلال رحلة البحث تفـاجأ صديقته وهى تقود سيـارتها بعصفور

ميت ملقى على الأرض، فتنحرف بسيارتها عنه حتى لا تدوسه وتسقط بها فى حفرة بالطريق ، فتهتز السيارة بعنف ويبكى الطفل بشدة .

ويودعان المولود عيادة الطبيب فى النهاية.. ويشعران بحاجتهما إلى ما يخفف عنهما اضطرابهما النفسى من أثر ما فعلا، فيميلان إلى حانة يملكها أحد معارفهما.. ويتحدث إليه عصفور عن نفسه فيقول له : أنا ضائع.. وخائف، وأحاول الهروب من كل شىء !

أما صديقته فتتحدث عن الإثارة والغموض وحياة المغامرة التى سيعيشانها فى أفريقيا خلال وقت قريب.. فتفاجأ بعصفور وقد تغيرت ملامح وجهه فجأة واكتسبت هيئة جادة غريبة يعلنها بتصميم أنه سيسترد طفله من عيادة الطبيب المشبوه، ويعيده إلى المستشفى لإجراء الجراحة له مهما كانت نتائجها، وتجادله صديقته فى جدوى ذلك وتأثيره على خططهما .. وتذكره بأنها شريكته حتى فى جريمة إضعاف المولود لقتله.. فيجيبها بمرارة : أتذكرين حين انحرفت بسيارتك إلى الحفرة حتى لا تدوسى عصفورًا ميتًا فى الطريق ؟.. هل هذا ما يفعله شخص مُقدم على قتل وليد ؟

كأنما يلومها على موافقته على قتل طفله بلا شفقة ليعيشا حياة لاهية وهى التى لم تطق وطء عصفور ميت، ثم يشرح عصفور نفسه أخيرًا فيقول : منذ وُلد هذا الطفل وأنا لا أكف عن الهرب من المشكلة بدلاً

من مواجهتها، فإذا أردت أن أواجه هذا «المسخ» بشرف بدلاً من الفرار منه فإما أن أقتله بيدى، وإمـا أن أقبل به وأتحمل مسئوليتى عنه. وأرعاه أيا كانت حالتـه، ولقد قررت أن أكف عن الهرب وأن أتحمل مسئوليتى عنه .

وبالفعل يستعيد عصفور طفله الوليـد من عيادة الطبيب ويعيده إلى المستشفى، ويدفع تكاليـف الجراحـة ويتم إجـرؤاها له، ويتبرع لوليـده خـلالها بكميـات كبيرة من دمـه، ويتبين أن الطفل ليس مصـابًا بفتق فى المخ كما كـان الظن، وإنما بورم حميد تمت إزالتـه.. فتضاءل حجم النتـوء البـارز من رأسـه حتى أصبح لا يكـاد يُرى بالعين المجـردة، وبعـد أسبـوعين بدأ الطفل يستعيـد هيئتـه البشرية إلى حـد كبير، وبدأ الجميع يلاحظون شبهه بأبيه .

وفى المستشفى يقول الأستاذ الجامعى لزوج ابنتـه : لقد عرفتَ كيف تواجه المشكلة هذه المرة ولا تهرب منها يا عصفور .

فيجيبه متفكرًا بأنه يبـدو أن الواقع قد يرغم الإنسـان أحيانًا على أن يحيـا بطريقة صحيحـة حين يعيشه ويكف عن خـداع نفسه، ولهذا فقـد قـرر أن «يعكس» حلم العمل كمـرشـد سياحى فى أفـريقيـا ويبقى إلى جوار أسرته ويعمل مرشدًا سياحيًّا للسياح الأجانب فى بلده، إذ أن هذا ما يمليه عليه واجبه ومسئوليته تجاه ابنه وزوجته ونفسه .

ويُصغى الأستاذ الجامعى لما يقوله زوج ابنته بارتياح شديد ثم يقول له بإعجاب : لقد تغيرت كثيرًا خلال الأسابيع الماضية ولم تعد هذه التسمية الصبيانية «عصفور».. تناسبك الآن !

هذه هى الرواية الجميلة التى قرأتها خلال الأيام الماضية واستغرقتنى أحداثها وشخصياتها؛ فأثارت تأملاتى عن «العصفور» الذى يكمن داخل كل إنسان ويوسوس له فى بعض الأحيان أن يتخلص من كل «القيود».. ويحلق فى السماء حرًّا طليقًا متحررًا من كل الالتزامات والمسئوليات، وأن يحيا حياته كما يريدها لنفسه وليس كما جرت بها المقادير.. فإذا قابلته مشكلة من المشاكل لا يجهد نفسه بمواجهتها وتحمل تبعات المواجهة، وإنما «يطير» من أرض المشاكل، ليحط فى مكان آخر، لا مشكل فيه ولا عناء ، وهكذا إلى ما لا نهاية ..

وهو خاطر يكاد لا يخلو منه عقل إنسان حتى قادة الجيوش أثناء احتدام المعارك، لكن قليلين فقط هم من يستسلمون له فيحكمون على أنفسهم بحياة الهاربين.. يستمتعون نعم.. ولكن يعانون أيضًا من انعدام الجذور وندرة الروابط الحقيقية التى تربطهم بالحياة.. أما الآخرون وهم الأغلبية العظمى من البشر، فهم يحتفظون بهذا العصفور فى مخيلتهم ولا يرون بأسًا من مداعبته من حين إلى آخر ترويحًا عن النفس إذا اشتد كربها بهموم الحياة.. لكنهم أبدًا لا يستسلمون له

ويفضّلون دائمًا مواجهة مشاكل الحياة وتحمل عواقب هذه المواجهة بشرف.. ويعرفون جيدًا أن الهروب لا يجدى، وحياة العصافير لا تحل مشكلة.. ولا تغير أمرًا واقعًا، وإنما يبدأ الإنسان أولى خطواته الصحيحة على الطريق إلى حل مشاكله حين يكف عن خداع نفسه.. ويواجه متاعبه.

هذا هو «الدرس» الذى خرجت به من هذه الرواية الممتعة التى ترجمها الأستاذ صبرى الفضل ترجمة راقية، وعكست تجربة المؤلف اليابانى الشخصية حين رزق بطفل متخلِّف فكان له أكبر الأثر على أدبه.

أما «الذكرى» التى ذكرتنى بذلك الفيلم القديم عن الزوجة الحالمة التى تتأثر بشخصيات ما تشاهده من أفلام، فسوف أحكيها لك بلا خجل تاركًا الحكم عليها لإنصافك..

فلقد كنت أقرأ هذه الرواية فى فراشى منذ أيام إلى أن غلبنى النوم وسقط الكتاب من يدى كالعادة، فكان آخر ما قرأته منها تلك الليلة هو وصف الكاتب الدقيق إلى حد الإبداع لحالة الغثيان التى انتابت بطل الرواية، والتقلصات المؤلمة التى أحس بها فى معدته.. والآلام الرهيبة التى أحسها وهو يفرغ جوفه عدة مرات فى الصباح، ثم فى الفصل الدراسى، ثم رحت فى النوم وصحوت فى الصباح - صدِّقنى -

على تقلصــات شديدة فى معــدتى أنا وليس معدة بطل الرواية، وغثيـان مؤلم وخــانق.. وهرولت إلى الحمام، حيث تكرر المشهد الذى قـرأته قبل ســاعــات بكل تفـاصيله الموجعـة.. وأمضيـت نهار ذلك اليـومُ سقيماً مريضًا .

فإذا قلت لى : إنها مصــادفـة غريبـة وإننى لابد أنى قـد طعمت شيئًا ملوثًا فى الخارج فحـدث مـا حـدث. أجبتـك بأننى أعيش على الطعـام المسلوق ولا أكـــاد أتذوق شيئًا خـارج بيتـى إلا للضرورة الاجتماعيـة القصوى، ولم أكن مـدعوًّا أو داعيًا فى الليلـة السابقة إلى غـداء أو عشاء خارج بيتى.. فمن أين جاءنى هذا الغثيان القاتل ؟

لقد استشرت طبيبًا فى الأمراض الباطنة بما حدث لى فلم يجد تفسيرًا عضــويًّا له.. وأكـــد لى أن التفسير الوحيـد لـه هو تأثر عقلى البـــاطن بأحداث الرواية.. ومشهد الغثيان الذى أجـاد الكاتب تصويره بدقة إلى حـد الإبداع.. وأن هذا العـامل النفسى وحــده يمكن أن يكون له هذا الأثر .

هذا هو تفسير الطبيب الباطنى.. فهل ترى أن الوقت قد تأخر كثيرًا على استشارة الطبيب النفسى ؟



# إلا أنا .. وأنت

كان لى فى بداية شبابى زميل.. حكمت عليه بعد قليل من اقترابى منه بأنه «معجزة» مخالفة لأطوار الإنسان الطبيعية ! فالإنسان يولد طفلاً ثم يصبح صبيًّا فشابًا فكهلاً فشيخًا. أما زميلى فلقد ولد أغلب الظن «كهلاً» وثبت على ذلك منذ مولده إلى أن تعرفت به وهو فى العشرينيات من عمره.. فملامح وجهه مهمومة ومتعضة دائمًا، وعيناه منطفئتان لا أثر لحيوية الشباب ومرحه فيهما.. وروحه خامدة وفاترة تجاه كل الأشياء.. وحركته بطيئة.. ورغبته فى الحياة منعدمة.. أما حديثه فخيرٌ منه السكوت، فهو لا يتكلم - إذا تكلم - إلا ليعلِّق على حديث زميل آخر بما يلقى ماء باردًا على روحه وحماسه للعمل والحياة، فإذا كان أحدنا يتحدث عن عمل نجح فى أدائه وسعد بنجاحه فى ذلك، نظر إليه فى فتور وقنوط وضيق وقال له عبارته الشهيرة.. وإيه يعنى ؟ أو ماذا يساوى ذلك ؟

وإذا كان أحدنا يتحدث عن أمل يراوده فى عمله أو حياته ويسعى

بجد إلى تحقيقه، أطلق فى وجهه عبارته المقتضبة الكئيبة: وماذا سيحدث حتى لو حققت ذلك.. هل ستصعد الجبل أو ستحصل على تاج الجزيرة ؟

أمـا إذا سمع أحـدنا يتحـدث بـإعجـاب عنْ أستـاذ له فى العمل أو الحياة، أو يذكـر إنسانًا بخير.. أو يحكى عن فضل أحد أو علمـه أو كرم أخلاقـه؛ فإنه سوف يصمت مكتئبًـا بعض الوقت.. ثم يبـدأ فى حديث طويل عن نفس هذا الشخص الذى جاء ذكره فى الحديث و«يكشف»- بما أتيح له مـن علم ببـواطـن الأمـور - «حقيقتـه» وكيف أنه إنســان مـزيف.. وغير أمين.. ويسرق جهـد الآخـرين و... و..، فإذا سـألتـه وكيف عرفت عنه ذلك وأنت لم تحتكَّ به ولم تتعامل معه؟.. أجابك بأنه يعـرف مـا لا تعرفـه أنت، ثم يسخـر من سـذاجتك وتوسمك الطيبـة والأخلاق الكريمـة فى هؤلاء الأوغاد، فى حين أن كل الناس فـاسدون [illegible] ما عدا هو ومن «يستمع» إليـه بالصدفة فى هذه اللحظة ! أى أنا [illegible] والباقى جميعًا من الأوغاد !

وحين تكررت زياراته لجلستنا الليليـة وتضـاعفت جـرعة السمـوم التى ينفثهـا فى جـو سهرتنا.. بدأت أشعـر بعـد قليل من انضمامـه إلينا بالصـــداع وضيق التنفس.. وآلام الظهـــر.. وبدلاً مـن أن أنهض من جلستنا كل ليلة يائسًا مقبـلاً على الحياة وآمـلا فى الغد؛ وجـدت نفسى

بعد قليل أغادر الجلسة خامد الروح غير متحمس لأى شيء .. وأذهب إلى عملى فى الصباح متباطئًا وفاقدًا لحماسى السابق.. وتحيرت فيما أصاب روحى من جمود وفتور.. وتداولت فى الأمر مع صديقين لى فإذا بهما يشكوان لى من نفس هذه «الأعراض» ومن فتورهما تجاه العمل والحياة . وكعادتنا فيما يعرض لنا من مشاكل؛ تأملنا الظاهرة وحاولنا تحليل أسبابها، واجتهد كل واحد منا فى تفسيرها.. فقال أحد الصديقين إنه «الجو العام» فى العمل الذى يثير الإحباط .. وقال الصديق الآخر إنه ربما يكون « اكتئاب الشتاء » الذى يصيب الروح أحيانًا مع الغيوم والأمطار والبرد الذى يقيد حركتنا فى المساء على عكس مرح الصيف ولياليه الممتعة .

لكنى لم أقتنع بذلك وتفكرت طويلاً فيما قالاه، ثم وجدت نفسى أهتف فجأة : لا إنه ليس جو العمل .. ولا غيوم الشتاء .. إنه زميلنا اليائس من كل شيء فلان !

ونظر الصديقان إلىّ مندهشينْ فواصلت حديثى بانفعال : نعم إنه «فلان».. فهو بؤرة اكتئاب متحركة تنفث كآبتها وفتورها ويأسها وكراهيتها للبشر فى دائرة قطرها نصف ميل !

ومن يدخل دائرة إشعاعاتها الاكتئابية يجد نفسه بعد قليل خامد الروح كارهًا للجميع.. ومكتفيًا من العمل والكفاح بنقد أعمال

الآخرين وانتقـاص أقدارهـم.. ومتوجسًـا من الجميع ومستريبا فيهم.. وفاقـدًا للحيوية والنشـاط، وشاعـرًا بالصداع وكل الآلام لأنه قـد بدد طاقته النفسية فى اليأس والإحباط وكـراهية الآخرين.. وهذا هو الباب الملكى للصداع والقلق وتوتر الأعصاب الدائم .

وأسهبت فى الدفاع عن نظريتى.. وقلت للصديقين إن كاره الإنسان لا يصلح أن يكون صـديقًـا ولا إنسـانًا ناجحًـا فى عملـه أو فى حيـاته الخاصـة، ولا يستفيد منه من يعـرفه شيئًا سـوى تسميم روحه بالعـداء للبشر.. وسـوء الظـن فيهم.. وتوقع الشر قبل الخير منهم، إلى جـانب تشـويه القيم وإنكار فضـائـل الآخـرين.. وتكبيل إرادة الإنسـان بهذه الأفكار السلبيـة التى تؤثر على حماسـه للعمل.. ولا تؤدى به فى النهـاية إلا للانضمام إلى طابور العجـزة.. والحاقـدين وكـارهى البشر وأعـداء النجـاح. وخلُصت من «مرافعتى» إلى نتيجـة حاسمـة هى إننا يجب أن نحمى أرواحنا من إشعـاعـات هذا الزميل الاكتئابيـة ؛ لحادة، ويجب أن نتجنبـه كما يتجنب الإنسـان مصـدر العـدوى.. ونقصيـه عن جلستنا وحياتنا قبل أن يفسدها .

ولم أكن مغاليًا فيما قلت ولا فيما اتخذت بعـد ذلك من قرار شخصى صارم التزمت به مع هذا الزميل ومع أمثـاله بقية رحلة العمر.. وهو أن أفرّ منهم فـرار السليم من الأجرب وأنفر من صـداقتهم لكى أنجو من

إشعاعاتهم المدمرة.. ولا عجب فى ذلك، فالحيوية والحماس واليقظة الروحية عدوى، وخمود الروح وفتور الإرادة .. وقلة التحمس للأشياء والحياة عدوى أيضًا !

واختلاط الإنسان بأصحاب هذه الصفات وتلك واقترابه الشديد منهم يؤثر عليه بغير أن يتنبه لذلك، ويكسبه رغمًا عنه بعض صفاتهم إن لم يحترس لنفسه.. لهذا فقد قال الكاتب الأمريكى إيمرسون: إننى أنشدُ صديقًا يحفزنى بحماسة للحياة، على أن أصنع ما أستطيع صُنعه، ولست أريد صديقًا يثبط عزيمتى بخمود روحه ويأسه من كل شىء فأنكص عن أداء ما أستطيع أداءه لو تحليت بصفة الحماس !

وفى كتابه الممتع «سجن العمر» يروى توفيق الحكيم أنه كان يستذكر دروسه فى كلية الحقوق فى الليل فيشعر بالتعب ويهم بغلق كتابه والذهاب إلى فراشه فينظر من نافذته، فيرى نافذة زميل له بنفس الكلية ما زالت مضيئة برغم تأخر الوقت.. ومازال الزميل منكبًّا على دروسه.. فيستعيد على الفور بعض نشاطه ويقاوم التعب ويواصل استذكار دروسه.. ويقول إنه لو كان زميله هذا متكاسلاً أو مهملاً لواجباته، لقدّم له الإغراء المعنوى بأن يكتفى هو أيضًا بما حصل من دروس ويستسلم لإغراء الراحة والكسل. لكن زميله هذا لم يكن من هذا النوع، بل كان أحد نوابغ القانون الذين عرفتهم مصر، فقد كان هو

الدكتـور حلمى بهجت بدوى أستـاذ الحقـوق، وأول من شغل منصب رئيس شركة قناة السويس بعد تأميمها .

وهكذا يفعل الحماس والغيرة الإيجابيـة بالإنســان. فالغيرة الإيجابيـة هى أن يحفــزك حماس المتحمسين لأن تبــذل المزيـد من الجهــد لبلوغ أهدافك كما بلغــوها هم. أمـا الغيرة السلبيـة فهـى أن تضيق بها حققـه الآخـرون لأنفسهم بكفاحهم وعـرقهم وتتمناه لنفسك دون أن تبـذل قطرة عرق واحدة فى سبيله .

وهذه الغيرة الإيجابية هى التى كان يقصدها الفنان الأسبانى العظيم سلفادور دالى حين قـال : الغيرة من الفنانين الآخرين كـانت دائمًا دافعًا قويًّا لنجاحى !

والناجحــون الحقيقيـون هــم هؤلاء الأشخـاص الـذين يحتفظون بقـدرتهم على الحماس للحيـاة حتى النهـايـة، والذين يحددون أهدافهم بوضـــوح ويسعـــون وراءها بدأب «كما يسعى القـط وراء الفأر الذى يطارده» على حد تعبير بنجامين فرانلكين، ذلك أن من يعرف ما يريد لا تهزه الصدمات، ولا يفقده الفشل شجاعته وإيمانه بربه ونفسه وقدراته، وإنما يحفـزه الفشل إلى تكرار المحـاولة مـرة بعـد أخـرى أمـلاً فى بلوغ الأهداف .

وأهداف الحياة تتغير من مرحلة إلى مرحلة من العمر .. لذلك فمن

المفيد دائماً أن يحدد الإنسان لكل مرحله من مـراحل عمره هدفًا رئيسيًّا يسعى إليه.. ويركز معظم جهده عليه.. فالطالب ينبغى أن يكون هدفه إنهاء تعليمه بنجاح.. والخريج ينبغى أن يكون هدفه الحصول على عمل ملائم، وصنع مقـومات حيـاته الشخصية.. وكلما حقق الإنسـان هدفًا جليـلاً من أهداف حياته.. وضع لنفسـه هدفًـا آخر قـريبًا ومتـلائماً مع إمكانياته واستثمر حماسـه للسعى وراءه.. فالتوقف عن الأمل فى شىء أو السعى وراءه لا يعنى كما يقول الأديب الأيرلنـدى العظيم برناردشو «إلا» انتهاء مـأمورية الإنسان فى الحيـاة بحيث لا يصبح صالحًا بعـدها لشىء سوى للموت » !

ولكى يحقق الإنسان أهدافه هدفًا بعد هدفـه عليه أن يتجنب اليأس والإحبـاط، وصحبـة فاقـدى الحماس وكـارهى الإنسـان والبشر، وأن يتعلق دائماً بالأمـل فى الله وفى الحيـــاة والمستقبل . فـــالـذين يعيشـــون بإحساس أنه ليس هناك «غد أفضل».. لا يجدون بالفعل هذا الغد حتى حين يصلون إليـه ؛ لأنهم لم يؤمنوا به ولم يستحقـوه. أمـا الذين يؤمنون مع مـرجريت ميتشـل مؤلفـة رواية ذهب مع الريح بأن «فى الغـد دائماً متسع لكل شىء» فإنهم لا تفتر إرادتهم للحيـاة ولا يتراخون فى السعى وراء أهدافهم، فإمـا أن يحققـوها ويسعـدوا بـذلك، وإمـا أن ينالوا لذة العيش فى حماس وأمل حتى آخر لحظة من عمرهم !

ولن يحتفظ الإنسان بإيمانه بـالحياة وتفاؤله إلا إذا صـاحب فى الدنيا أهل القيم الأخلاقية والدينية والفضـائل الإنسانية ومن يحبون الإنسان ويتوسمون فيـه الخير قبل الشر، ويأخذون أمر أخيهم على أحسنه حتى يأتيهم منه مـا يغير رأيهم فيـه، فهـؤلاء هم «إخـوان الصـــدق» الذين نصحك العظيم عمـر بن الخطاب بأن تعيش فى أكنافهم.. فإنهم زينة فى الرخاء وعُدة فى البـلاء. كما نصحك أيضًا «بألا تصحب الفجّار فتتعلم من فجورهم».

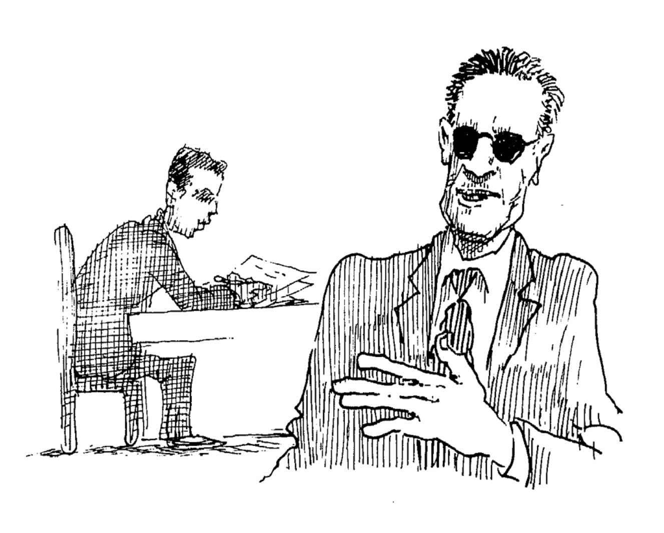
وأسـوأ من اليـأس والإحبـاط وصحبـة فـاتـرى الحماس وكـارهى الإنسـان أن تبـدأ عملاً ولا تتمـه على الوجـه الأكمل، أو أن تتخبط فى طرق الحيـاة فتمضى فى هذا الطريق بضـع خطوات ثم تتـوقف وترجع من حيث بـدأت، وتمضى فى طريق آخـــر بضع خطوات ثم تتـــوقف وهكذا.. فمن يعرف أهدافه بوضـوح لابد له أن يمضى إلى غايته حتى النهـايـة، واللمسـة الأخيرة السليمـة فى كل عمـل أهم دائمًا من خطوة البـداية، لأنها هى التى تترجم كـل مـا بذلت من جهـد فى تحقيق الهدف النهائى.. والشاعر العربى يقول :

ولم أر فى عيوب الناس عيبًا          كنقص القادرين على التمام

وتاريخ الأدب الإنجليزى يروى لنا أن الشاعـر كولريدج قد خلف وراءه عددًا هائلاً من القصائد والأبحاث التى بدأها ولم يتمها، أو تحول

عنها فبدأ غيرها ولم يتمها أيضًا، فبدد بذلك جهدًا ثمينا.. وأفسد أعمالاً كانت جديرة بأن تخدم الإنسانيـة وتزيد من نجاحه. والعمل الناقص فى النهاية كالعمل الفاشل سواء بسـواء.. وكلاهما مرجعه إلى عدم وضوح الأهداف وفتور همة الإنسان التى لو تعلقت «بـالثريا» لنالها كما يقول لنا الرسول الأمين « ﷺ ».

أما ذلك الزميل كاره البشر الذى نبهنا مبكرًا لهذا الخطر الجسيم على أرواحنا.. فقد ظل «كهلاً» فى روحه وجسمه وملامحه، حتى بادره الهِرم مبكرًا وهو فى بـداية الثـلاثين وتسللـت تجاعيـد روحـه إلى وجهـه.. فازدادت امتعاضًا وتغضُّنا وكـآبةً .. وتسلل الشعر الأبيض إلى «فوديه» وهو فى الثلاثين ، فصار كهلاً روحًا وشكلاً.. وقابلته آخر مرة بالصدفة وهو فى الخامسـة والثلاثين من عمـره فرأيتـه «شيخًا» متهـدمًا متجعـد الوجـه أشيب الشعـر كـابى النظرة .. فلم أملك نفسـى من أن أسأله مداعبًا : ما هو سر احتفاظك «بشبابك» حتى الآن ؟!



# الأصابع الملوّثة

هذا سر لا أخجل منه .. وإنما أعتز به وأفخر ! أما السر فهو أننى أعيش «عالةً» على أصدقائى فيما أكتب وأصدر من كتب، ولولاهم لما كتبت نصف ما كتبت، ولما أصدرت بعض ما أصدرت من كتب بلغت حتى الآن ٢٦ كتابًا !

أما كيف «يعولنى» أصدقائى فيما أكتب من مقالات وقصص قصيرة وصور أدبية، فدعنى أشرح لك الحكاية من بدايتها .

الحكاية أننى من كُتّاب «العصر الحجرى» الذين لا يألفون الكتابة ولا تنساب أفكارهم على الورق إلا إذا أمسكوا القلم بأيديهم وسجلوا ما يفكرون فيه بخطهم .

الكُتّاب المعاصرون يدقون بأصابعهم على الآلة الكاتبة ما يعنُّ لهم من أفكار، وبعضهم انتقل منذ سنوات من مرحلة «الدق» إلى مرحلة «اللمس» باستخدام أجهزة الكمبيوتر الحديثة التى لا تحتاج لأكثر من

لمسة لمفاتيحها، وبعضهم الآخـر تجاوز الآن مرحلة «اللمس» إلى مرحلة «الهمس» وأصبح يهمس بأفكـاره وهو مستلق على أريكة مـريحة إلى آلة التسجيل الصغيرة، ثم تقوم سكرتيرةً عنه بتفـريغ الشرائط وكتابتها على الآلة الكاتبة وتعرضها عليه فيراجعهـا ويوقعها بإمضائه .. فتصير مقالاً أو قصة قصيرة !

وأنا مـا زلت حتى الآن لا أستطيع الكتابـة إلا بالقلم، وأعيد كتـابة المقال الواحد مرتين وأحيانًا ثلاث مرات، وأراجعه بعد كتابته على الآلة الكاتبـة بواسطة سكرتيرتى، وأعـدّل وأبدل فيـه أشطب منه وأزيد فيـه بخط يدى !

ولقـد جـرّبتُ الكتابة على الآلة الكـاتبة فـوجـدت أفكارى تتشتت وتتركز غالبًا حول أصابعى .. وليس حول ما أريد الكتابة عنه .

وجـربت الهمس لجهـاز التسجيل أو إمـلاء من يكتب عنى مـا أريد كتابته، فوجدت أفكارى تتقطع وتتعثر، والكلمات والتعبيرات تراوغنى وتتهرب منى .

وتعجبت كيف يستطيع بعـض الأدباء إمـلاء أفكـارهم لغيرهم مع الاحتفـاظ فى نفس الوقت بالقـــدرة على ترتيب الأفكار وخصـوصيـة الأسلوب! وقـد أملى أبو العلاء المعـرى كل أشعاره وتصـانيفه الأدبيـة لتلاميذه، وأملى إسماعيل البغدادى القالى – وكان عالمًا لغويًّا عظيمًا ولد

فى أرمنيا ومـات فى قرطبة عـام ٩٦٧م - كل تصانيفـه لغيره، وأشهرها كتاب «الأمالى» الذى تحيرت طويلاً خلال صباى فى فهم معنى عنوانه، إلى أن عرفت فيما بعد أنه جمع كلمة «إملاء».

وأملى عميـد الأدب العربى طه حسين كل مـؤلفاته وأعماله الأدبيـة لغيره، وكـان أكثر من كتب عنـه ولسنوات طويلة هو سكرتيره الراحل فريد شحاتة. أما عميد الأدب الساخر محمود السعدنى فهو يملى بعض مقـالاته على غيره، ويكتب بيـده بعضهـا الآخـر حين لا يجد من يملى عليـه، وبخط يصعب على كثيرين قـراءته ! وقـد زرته ذات مـرة فى الصيف فى شقته بلندن فـوجدته يملى على ابنه أكـرم مقالاً له، وتعجبت أكثـر لانفعـاله وتركيـزه الشديد فى إمـلاء المقـال ذاهلاً عما حـوله كأنما يخشى أن تفـر منه الفكرة إذا تلفت حوله للحظات، ولفت نظرى أيضًـا أنه يملى على ابنه إلى جـانب الكلمات.. النقطة والفـاصلة.. وعـلامـة الاستفهام.. وعلامة التعجب !

أمـا إذا كتـب بيـده فإنه يكتب بقلم الحبر الجاف، ولا أعـرف كيف يحتمل الكتـابة به لفترة طويلة، بل ولا أعـرف أيضًـا كيف كـان العقـاد العملاق يكتب مؤلفاته بالقلم الرصـاص مع خشونته وصعوبة الكتابة به لفترة طويلة، ولا كيف يحتمل ذلك الآن صديقى أحمد بهجت .

أما أنا فلم أستطع قط الاسترسال فى إمـلاء أحد ما أريد التعبير عنه

لأكثر من بضع عبارات.. ثم توقفت يائسًا من المحاولة، ولم أستطع قط أن أستسيغ الكتابة على الآلة الكاتبة أو الكمبيوتر، ويئست من محاولة التعبير عن نفسى بهذه الطريقة .

وبعد تجارب ومحاولات عديدة سلّمت بأن الأفكار والكلمات لا تطاوعنى إلا إذا كتبت ما أريد كتابته بخط يدى وبقلم الحبر السائل وعلى ورق أصفر ناعم ! فحتى أقلام الفلوماستر التى تسهل الكتابة وتيسرها لا أستطيع الكتابة بها، ولا أستخدمها إلا فى مراجعة الأعمال الصحفية .

أما الكتابة الأدبية.. فلا وسيلة لها عندى سوى هذه الأدوات الحجرية.. وسوى هذه الطقوس «البائدة»، وهى أن يكون القلم من طراز شيفرز وسنّه متوسط السمك ليس رفيعًا ولا سميكًا، ومداده من حبر باركر الأزرق الغامق.. ولو كان فاتحًا لما استرسلت فى الكتابة.. ولو كان أسود قاتمًا لتوقفت عنها بعد بضعة سطور. أما الورق فلابد أن يكون أصفر اللون ناعمًا. ولا أعرف كيف استقريت على هذه الطقوس ولا كيف ترسخت وارتبطت عندى بسهولة الكتابة حتى ليفسد مزاجى إذا افتقدت أحدها .

ومن هذه النقطة بدأ دور أصدقائى المقيمين خارج مصر - وما أكثرهم والحمد لله - فى إنتاجى الأدبى !

فالحبر الأزرق الغامق من ماركة باركر ليس مسموحًا باستيراده فى مصر لوجود البديل من الإنتاج المحلى الذى لم أستطع استساغته، والورق الأصفر الناعم لا يتوافر كثيرًا فى الأسواق المحلية. أما القهوة الفرنسية أو الإيطالية «الإكسبريسو» التى لا أحتسى سواها خلال الكتابة.. فليست أيضًا شائعة فى الأسواق .

ولا أدرى كيف علم أصدقائى خارج مصر بكل ذلك فتطوعوا مشكورين لتوريد كل مستلزمات الكتابة، وتوالت علىّ هداياهم الكريمة منها .. ولأنه :

خير الهدايا ما يجىء مع الهوى     من غير ما طلب ولا إطناب

كما يقول الشاعر عبد الحليم المصرى (١٨٨٧ - ١٩٢٢).

فلقد سعدت كثيرًا بهداياهم هذه التى تجىء «مع الهوى» وتلبى رغبات وتحكمات عرائس الأفكار فى شخصى الضعيف .

وأصبح أصدقائى ومنذ سنوات طويلة لا يرجع أحدهم إلى مصر إلا وفى حقيبته لى بعض رزم الورق الأصفر أو بعض زجاجات الحبر الباركر أو بعض أكياس القهوة الفرنسية والإيطالية !

ومع أن أقلام الشيفرز متوفرة فى الأسواق المحلية؛ فإنه لا يمضى عام إلا ويتحفنى أحدهم بقلم جديد متمنيًا لى كتابةً طيبةً ومريحةً به !

وعلى مـــدى سنوات طويلة، فإنى لم أشعـــر قط بالخوف من نفـــاد الاحتياطى «الاستراتيجى» عندى من الورق أو الحبر أو القهوة!

إذ مـا أن تتناقص كميـات أحـد هذه المستلزمـات بعض الشىء إلا وأفاجأ «بالفرج» قادمًا مع صــديق عائد من الخارج، أو مع رسول أمين أوفده أحد الأصدقاء المخلصين بشحنة إنقاذ جديدة !

وشاع ذلك بين أصدقائى فـاستراحوا وأراحوا.. إذ عرف كل منهم أنه إذا رغـب فى أن يقـــــدم لى هديـة فلن يجد أفضـل من هـذه الهدايا «الأدبيـة» التى تُعيننى على الكتابة، والتـى أسعد بها أكثـر من أى شىء آخر.

حتى لقد جـاء صديق مقيم بالبحـرين إلى مكتبى بالأهرام ذات يوم طالبًـا مقابلتى، ولم تكـن سكرتيرتى تعرفـه، وفشل هو فى إقناعهـا بأنه صديق شخصى لى.. فتمسكت بأن تحدد له موعدًا بعد يومين، وهمَّ هو بالانصراف يائسًـا، لكنه قبل أن يتحرَّك طلب منهـا أن تبلغنى فقط بأن فلانًا «بتاع الورق الأصفر» كـان قد جاء لمقابلتى وانصرف ! فما أن نطق «بكلمـــة السر» هذه حتى تشبثـت به سكرتيرتى راجيـــةً منه عــــدم الانصراف، ودخلت لتبلغنى بمقـدمه السعيـد.. فانتفضتُ واقفًـا تحيةً للصديق .. وللورق الأصفر !

وكلما راجعت مخزونى الاستيراتيجى من الورق والحبر والقهوة شعرت بالامتنان الشديد لأصدقائى، وتساءلت صادقًا: ترى ماذا كنت فاعلاً بحياتى لو لم ينعم علىّ ربى بصداقة كل هؤلاء الأحباء ؟

صحيح أننى أبدو بعد انتهاء جلسة الكتابة الطويلة كعامل من عمال مصبغة لصبغ الملابس «بالنيلة» الزرقاء، وأن أصابعى تتلطخ بالحبر .. وملابسى لا تخلو أبدًا من بقعة زرقاء، خصوصًا وأننى أفتح زجاجة الحبر أمامى وأغمس القلم فيها كما لو كان ريشة. لكن كل شىء يهون فى سبيل أن ترضى عرائس الإلهام وتتعطف فتسلمنى زمامها .. وتسيل أفكارى على الورق .

ولأن الحذر لا يُغنى أبدًا عن قدر، فلطالما قررت الاحتراس من بقع الحبر حتى لا تلوث ملابسى وأصابعى وبدأت الكتابة متنبهًا وحريصًا، فما أن أمضى فيها بعض الوقت حتى تستغرقنى تمامًا وأُذهل عما حولى، وتنتهى الجلسة بعد ٥ أو ٦ ساعات.. فأفاجأ بأن كل ما تحرزت منه قد وقع، وتسرب الحبر إلى أصابعى.. وتسللت بقعة أو اثنتان إلى ملابسى، ولولا أننى أكتب فى البيت وليس فى مقر العمل، لما استطعت مواجهة أحد بمظهر عمال الصباغة هذا عقب كتابة كل مقال.

فإذا سخطتُ على غفلتى وذهولى، وأنا أغسل أصابعى وأحكها لإزالة آثار الحبر منها بعد الكتابة، هوّنت الأمر على نفسى بأن ما فعله

بى الذهول، والاستغـراق فى الكتـابة أهون كثيرًا مما فعله بـأعظم عـالم رياضى فى العصـور القديمـة وهو أرشميـدس السراقوسى، فقـد روى المؤرخ بلوتارك أنـه خـلال حصـار الرومـان لمدينة سراقـوسـة أو «سيركـوزا» كان أرشميـدس منكبًّـا على حل مسألة رياضيـة فلم يحفل بسقـوط المدينة، ودخل عليـه جندى رومـانى وأمره بأن يتبعـه إلى مقـر القائـد.. ومع ذهوله واستغراقه الشـديد فى حل المسألة الرياضية رفض أرشميـدس أن يتحـرك من مكانه إلا بعـد أن يتـوصـل لحل لمسألتـه، فغضب الجندى الرومانى الأحمق واستل سيفه وقتله به.. وقضى بذلك على حيـاة واحـد من أعظم علماء العصـور القـديمة وأكثـرهـم خـدمـة للإنسانية .

فإذا كان الأمر كـذلك.. فما أهون بقعة حبر هنا أو هناك فى الملابس، ومـا أهون تلوث الأصـابع لبعض الوقت بالحبر بالمقـارنة بما حـدث لصديقى أرشميدس !

ولكل عـروس مهـرها فى النهاية.. ومهـر عـرائس الإلهام والأفكار عندى هو هذه الطقوس والأدوات الحجرية للكتابة .

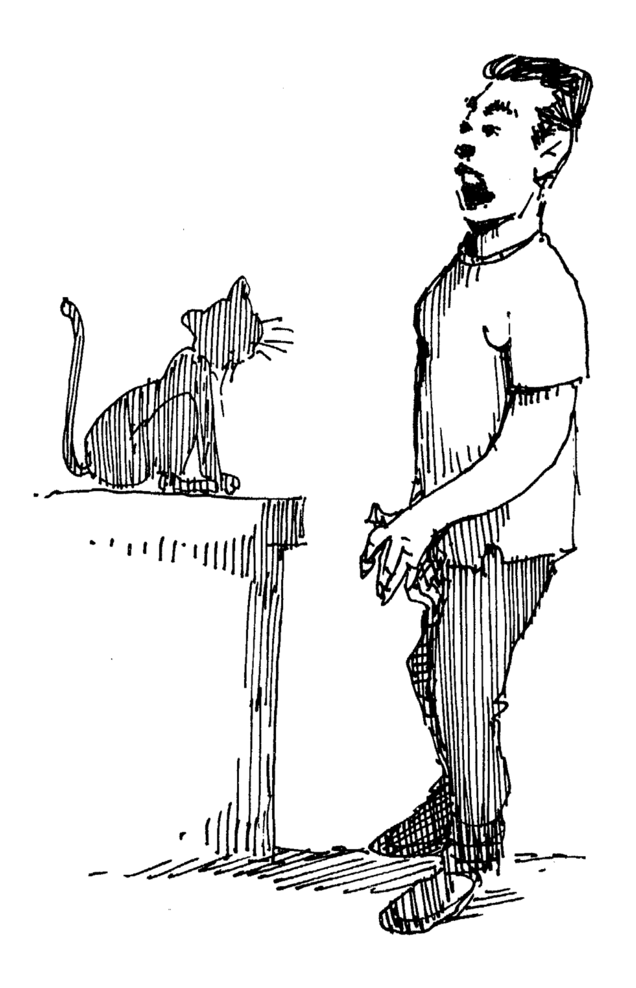
ولقد كفانى أصدقـائى - أدامهم الله لى - مئونتها وتباروا فى إمدادى بها بانتظام فضلاً منهم وكرمًا .

أفلا أكون صادقًا إذن إذا قلت لك إننى أعيش «عالةً» على أصدقائى فيما أكتب وأنشر من إنتاج أدبى ؟

وألا يحق لى بعد ذلك أن أنسب الفضل لأصحاب الفضل وأشكرهم عليه مؤديًا بذلك واجبًا دينيًّا وأخلاقيًّا هو شكر كل من يستحق الشكر على صنيعه ؟

وألم يقل بعض الحكماء : إذا اصطنعتَ المعروف فاكتمه، وإذا اصطُنِع إليك فانشره ؟

ها أنذا «أنشره» وأقرُّ بالفضل لكل الأصدقاء. وأريد أن أقول لك عنهم الكثير والكثير مما يستحقونه ويستحقون أكثر منه.. لكنى مضطر لأن أتوقف عن الكتابة الآن للأسف لكى أغسل أصابعى وأبدّل ملابسى.. فعفوًا لهذا التقصير منى . وشكرًا لكل الأحباب !



# الخوف .. يا صديقى

لى صديق متين البنيان، عملاق الطول، له نصيب من هيئة المصارعين.. وأبطال كمال الأجسام.. ولو صارع شخصًا لهزمه بالأكتاف فى لحظات.. ورغم كل ذلك فلقد كان معروفًا بيننا بشىء عجيب هو أنه يرتعب من القطط رعبًا شديدًا يشل حركته ويسيل العرق البارد على وجهه ويزيد من ضربات قلبه !

فإذا عبرت بجواره - وأنت تتحدث إليه - قطة صغيرة اختلس إليها النظر فى خوف وترقب إلى أن تمضى القطة فى طريقها بسلام.. أما إذا كانت القطة من النوع الودود وتمسحت فى أقدامه كما تفعل بعض القطط أحيانًا.. فلسوف يصفر وجهه.. ويسيل العرق من جبهته، ويظل متجمدًا فى موقعه إلى أن «ترحمه» هذه القطة وتبتعد عنه ! وقد روى لى مرة أنه رجع إلى بيته ذات ليلة متأخرًا قبل أن يتزوج؛ فوجد قطًّا رابضًا أمام باب مسكنه فتحير صديقى كيف يدخل شقته وهذا

«الوحش» الضـارى يسـد عليه الطريق؟.. وخيل إليـه أنه لو تقـدم إلى الأمام خطوة لاستنفره للهجوم عليه.. ولو تراجع عنه إلى الوراء خطوة لأغراه بمطاردته واللحاق به، فهداه عقل الخائف إلى أن أفضل ما يفعل هو أن «يثبت» فى مـوقعـه بلا أى حـركـة؛ معلنًـا بذلك نواياه السليمـة تجاهه، إلى أن تتـدخل السماء للفصل بينهما.. فترى كم من الـوقت ظل صديقى «محنطًا» فى مـوقعه أمام هذا القط البليـد الذى لم يحرك ساكنا ؟ نصف سـاعـة كـاملة مضت وصـديقى واقـف فى هدوء تام وبلا ملل. والقط رابض فى مكانه آمنًا مطمئنًا .

وقـد حـاول صديقى خـلال هذه الفترة مـرة واحـدة أن يستجمع شجـاعته ويتسلـل فى حذر من جـوار القط إلى باب الشقـة.. فما إن همَّ بالحركة حتى استشعر القط الخطر، فـزام زومة مخيفة.. وانتصب ظهره، واتسعت حدقتا عينيه.. وكان ذلك كافيًا تمامًا لأن يبث الرعب فى قلب صديقى المصارع ويعيده إلى موقف الثبات فى موقعه يائسًا من المحاولة. وظل موقف اللاسلم واللاحرب هذا قـائمًا ثلاثين دقيقة كاملة، وانتهى نهاية مضحكة حين أرسلت العناية الإلهيـة جارًا لصديقـى صعد السلم عائـدًا إلى بيته ورأى «الموقف» وكان يعرف عن جـاره حكاية هلعه من القطط، فضرب القط بالصحيفـة التـى يحملهـا فى يده ببسـاطة وهرول القط خائفًا ومبتعدًا.. وقال الجار لصديقى وهو يبتسم : تفضل يا أستاذ فلان !

أمـا صـديقى الآخر فهـو نمـوذج أكثـر غرابة لتناقضـات الإنسـان وأحواله العجيبـة، فهو إنسان مغامـر بكل ما تعنيه الكلمـة من جرأة.. وإقـدام وسوء تقـدير العواقب.. ولقـد شهـدت حياته أهوالاً عجيبـة فشـارك فى صباه فى أعمال المقـاومـة ضد الإنجليـز فى منطقـة القناة قبل جلاء القـوات البريطانية عن مصر، وشارك فى شبابه فى أعمال المقـاومة الفلسطينية ضد قوات الاحتـلال الإسرائيلى فى الضفة الغربية، وسجن فى أكثر من دولة عـربية لمشـاركته فى نشاطات المعـارضة السيـاسية بها، حتى تندر عليـه أحـد أصـدقـائـــه وقـال عنه إنه «ضُرب فى كل الدول العربية» كما تضرب العملة !

ورغم ذلك كله فلقـد سـافرتُ معـه ضمن وفـد صحفى من نقـابة الصحفيين إلى رومانيـا عام ١٩٧٢، وكـانت الطائرة الرومـانية صغيرة وقـديمة.. فكثـر وقـوعها فى المطبـات الهوائيـة خلال الرحلة وكثـرت إضاءة لوحـة ربط الأحزمة ومنع التـدخين، فإذا بى أسمع من جوارى صـوتًا غـريبًـا كـالتكتكة أحتـار فى تفسيره وأتلفت حـولى لأبحث عن مصدره، فأرى صـديقى المغامر الجالـس إلى جوارى تصطك أسنانه فى رعب، ووجهه ابيض بياض الموت.. والعرق يسيل على وجهه بغزارة.. وعيناه مغمضتان كأنه فى شبه غيبوبة، وأفزع لما أرى.. وأسأله عمَّا به فلا يستطيع أن يجيبنى لأنه مشغـول بالتمتمـة بآيات القـرآن الكريم، ولأن

اصطكاك أسنانه يحول بينه وبين الكلام.. ويظل على هذا الحال حتى تجتاز الطائرة منطقة المطبات الهوائية، ويطفىء قائدها لوحة ربط الأحزمة .. ثم يتكرر المشهد بنفس تفاصيله مع منطقة المطبّات التالية.. فأعرف منه أن «المغامر» الذى قضى نصف عمره متنقلا بالطائرات من مكان إلى مكان.. لا يخشى شيئًا فى الحياة كما يخشى المطبّات الهوائية وإضاءة لوحة ربط الأحزمة خلال رحلة الطائرة !!

وليس هذان الصديقان نموذجين فريدين وحدهما فى تناقضات الإنسان ومخاوفه وهواجسه غير المفهومة. فالفيلسوف الألمانى المتشائم شوبنهاور الذى عرف بجرأته الفكرية واحتماله لحياة الوحدة الكاملة حتى نهاية العمر منصرفًا للقراءة والكتابة والإنتاج الفكرى.. لم يكن يخشى سلطان الموروثات الفكرية على العقول والأفكار.. ولا مصادمة الآراء السائدة بما يخالفها من أفكار جريئة جديدة، لكنه كان يخاف حتى الموت من شىء آخر عجيب هو أمواس الحلاقة، فلا يأمن أن يسلم ذقنه لأى حلاق «سفاح» لكى يمرر الموس على وجهه ورقبته، ويفضل أن يقص شعر ذقنه بالمقص فتظل «نابتة» باستمرار ومغطاة بالشعر الخفيف لأن هذا يهدىء من روعه ويعفيه من معاناة الرعب و«السفاح» يشهر فى وجهه مُوسَ الحلاقة !

أما الموسيقار البولندى العبقرى شوبان فقد كان يساوره الخوف دائمًا من أن يصاب بالإغماء أو الغيبوبة فيخطىء من حوله تقدير

«الموقف» ويظنونه قد مات ويبدأون فى مراسم الجنازة ثم يدفنونه فى مثواه الأخير؛ فيفيق هو بعد قليل من غيبوبته ويجد نفسه حبيسًا داخل صندوق مغلق ومظلم تحت الأرض فيصرخ ولا مجيب .. ويستغيث ولا ينقذه أحد، ولهذا فقد كان يلح دائمًا على أهله وأصدقائه بألا يتعجلوا «الأمور» إذا بدا لهم أنه مات.. وأن يتأكدوا أولا من أنه ليس فى غيبوبة مؤقتة !

ويبدو أن هذه المخاوف نفسها هى التى كانت تساور أيضًا داهية العرب عمرو بن العاص، الذى عرف بسعة الحيلة وشدة المكر والدهاء، فلقد أوصى أبناءه إذا مات بألا يتعجلوا الانصراف عن قبره بعد دفنه، وبأن يبقوا إلى جواره «مقدار ذبح جزور وتفصيله» أى مقدار الوقت الذى يستغرقه ذبح جمل وسلخه وتقطيعه، لعل وعسى أن تعاوده الروح فيستغيث بهم لإخراجه من تحت التراب !

أما الموسيقار الراحل محمد عبد الوهاب فلقد كان يخاف خوفًا مرضيًّا من المرض والعدوى.. ولا يصافح مريضًا.. ولا يجلس فى مكان به تيار هواء، ويضع فى بيته آنية بها مطهر يغمس فيها يديه كلما اضطر لمصافحة ضيف أو زائر.. كما ظل سنوات طويلة يخشى ركوب الطائرات ويفضل السفر بالباخرة مهما استغرق ذلك من وقت، وكان يبرر خوفه من السفر بالطائرات بأنه لا يجد أى معنى لأن يقضى وقت

السفر الطويل سجينًا فى مقعد ضيق لا يجد ما يفعله أو يسليه سوى الحملقة فى «قفا» من يجلس أمامه، فى حين أن السفر بالباخرة يتيح له حرية الحركة والنوم فى فراش مريح، والتجول فوق ظهر الباخرة والتمتع بمنظر أفق البحر !

أما ملك فرنسا هنرى الثالث (١٥٥١ - ١٥٨٩) الذى كانت فترة حكمه سلسلة حروب دينية شبه متصلة، فلم يكن يخشى ما تسببه له هذه الحروب من قلاقل وعدم استقرار، بقدر ما كان يخشى شيئًا آخر عجيبًا هو رؤية البيض بكل أنواعه.. ويصرخ فيمن حوله إذا رأى عدة بيضات لكى يخفونها عن ناظريه فى أسرع وقت ممكن !

أما الأديب الشاعر الراحل كامل الشنَّاوى فقد كان يخاف من الليل والظلام، ويبحث كل ليلة عمن يسهر معه إلى أن يتبدد الظلام ويشقشق نور الفجر، ليستطيع أن ينام مطمئنًّا إلى أن الموت لن يزوره فى غبشة الظلام والوحدة !

أما الأديب الكبير أنيس منصور فلا يخاف من شىء أكثر من أن يعطس إنسان فى وجوده، لأن هذه العطسة الإجرامية إنذار شرير له باحتمال انتقال عدوى الأنفلونزا والزكام إليه، وهى تكفى وحدها لأن يختفى كلمح البصر من المكان الذى ارتكب فيه أحد هذه الجريمة أمامه!

وهكذا كل إنسـان تقـريبًا لـه من مخاوفه وهواجسـه الطبيعيـة وغير الطبيعية ما يشغله ويبـدد بعض أمانه واطمئنانه. والإنسان بصفـة عامة يخاف من أشيـاء كثيرة.. فهو يخاف من المرض والموت والعجـز والفقر والتعـاسة.. وفقـد الأعزاء والأحبـاء، ويخاف من الفشل وفقـد المكانة الاجتماعيـــة، وفقـــد الحب، ومــن الوحـــدة، ومن هــوان الشأن، ومن التعرض للأذى .. والتعرض للإهانة .. إلخ .

ولا حد لمخـاوف الإنسان ولا لهواجسـه، لكن هناك فـارقًا مهمًا بين المخـاوف الطبيعيـة التى لا يخلـو منهـا أى إنسـان، وبين المخـاوف غير الطبيعية وغير المبررة التى يعـانى منها البعض كما فى معظم النماذج التى حدثتك عنها .

فالخوف إحساس إنسانى طبيعى لا يخلو منه إنسان سوىّ، بل إنه فى بعض الأحيـــان يكون دليـــلا على اتزان الشخصيــــة والنضج العقلى للإنسـان، لأن مــن لا يخاف الخطر الحقيقى ، لا يستنفـر قـــواه العقليـة والنفسية لمواجهتـه أو لتفاديه، تمامًـا كالطفل الصغير الـذى لا يستشعر خطر لمس أســلاك الكهـرباء أو الاقتراب من النــار، فى حين يستشعـر الإنســان الناضــج خطر ذلك ويتفـاداه أو يحترس منه، فـإذا خـاف من الكهـرباء والنار فى هذه الحالة، فإن خـوفـه يكون دافعًـا إيجابيًـا له على تفادى الخطر أو مواجهته بما يتطلبه من إجراءات مناسبة .

ومن يزعم أنه لا يخاف مـن شيء على الإطلاق فإنما ينكر على نفسه هذا الإحساس الصحى الذى يحتاج إليه الإنسان حين يتعرض لتهديد حقيقى. ولقد أثبت العلماء أنه فى ظل معاناة الإنسان لقدر معقول من الخوف يكون إنجازه أفضل منه فى حالة عدم إحساسه بأى قدر من الخوف، وحين يتعرض الإنسان لاحتمال اصطدام سيارة به فإن الخوف هو الذى يمده بطاقة إضافية تعينه على الهرب من طريقها، أو اتخاذ القرار بتفاديها .

ومن لا يشعر بالخوف من احتمال الفشل قد لا يجد فى نفسه دافعًا قويًّا لتفادى هذا الاحتمال ببذل الجهد اللازم لتحقيق النجاح.. والإنسان حين يخاف من موقف طارىء يبدأ جهازه العصبى فى تنبيه العضلات والغدد.. ويؤدى ذلك إلى تغيرات فورية فى جسمه وهيئته فتتسع حدقتا العين لكى تعطى رؤية أفضل، وتزداد قوة ضربات القلب ليدفع كمية أكبر من الدم إلى العضلات والمخ استعدادًا للتفكير والجرى.. وهذا هو سر شحوب الوجه عند الخوف الشديد، كما يتسارع التنفس أيضًا، لأن هناك احتياج أكبر للأوكسجين.. ويزداد العرق لكى يبرد من حرارة العضلات، وتتوتر العضلات الصغيرة التى تشد الشعر، وهذا هو سر الربط بين الخوف الشديد وبين ما نسميه نحن «وقوف الشعر» !

لكن الخوف حالة مؤقتة تنتهى بنهاية الدوافع التى أثارتها.. والخوف المؤقت خوف طبيعى لا غبار عليه، ولا يعيب أى إنسان مهما كان قدره أو عمره.. أما إذا استمر الخوف إلى ما لا نهاية.. أو إذا كانت دوافعه غير منطقية أو مبررة، فإن هذا ما يسميه علماء النفس باسم «الفوبيا» - أى الخوف المرضى - وهى نوع من الخوف يرتبط بشىء ما أو موقف لا يشكل فى حد ذاته سببًا للخوف لدى الشخص العادى .. بل ويعرف المريض بالخوف نفسه أن ذلك الشىء لا يسبب الخوف لكنه برغم ذلك يجد نفسه مضطرًا لتجنبه تفاديًا للخوف الشديد الذى يسيطر عليه منه .

وهكذا فإن الفوبيَا أو المخاوف المرضية المبررة تتسم دائمًا بالاستمرارية والتواصل، وبأن من يعانيها يتحاشى دائمًا ما يثير هذه المخاوف لديه.. فضلا عن عدم معقولية الخوف بالنسبة للآخرين، بل وبالنسبة للمريض بها نفسه !

وأشهر هذه المخاوف المرضية التى يعانيها الإنسان بشكل مرضى أحيانًا الخوف من الأماكن العالية، والخوف من الأماكن المغلقة، والخوف من الأماكن المفتوحة، ومن المرض ، والألم والظلام، والزحام، والجراثيم، والحيوانات، والماء والعواصف والرعد والبرق .. إلخ .

وفى بعض الأحيان تتخذ هذه المخاوف شكل الوسواس، كما أن كل

هذه المخاوف تتخـذ أيضًا شكل «القهريات»؛ لأنها تقهـر إرادة الإنسان الذى يعانيها وتجبره على الخوف منها والابتعـاد عنها بالرغم من إدراكه لعدم معقولية الخوف منها .

غير أنى أقول فى النهاية إن الإيمان بالله والثقة به وبحسن اختياره لنا، وبأن أمر المؤمن - كما يقول لنا مضمـون حديث رسول الله صلوات الله وسـلامه عليـه - كله خير ، إن أصـابته نعمـة شكر فكان خيرًا له، وإن أصابتـه مصيبة صبر ، فكان خيرًا له.. أقـول لك إن هذا الإيمان يعيد إلى النفوس الكثير والكثير من طمأنينتها الهاربة.. ويبدد كثيرًا من المخاوف والهواجس، ويعين الإنسـان على التحكم فى بعض مخاوفه وتحويلهـا إلى مخاوف إيجابية تدفعه لتفادى الأخطار .

كما أن هناك - إلى جـانـب ذلك - كثيرين يتجنبـون أشيـاء عـديدة مختلفـة بعضهـا ليس ضـارًا فى حـد ذاته ولا مخيفًـا.. لكنهم برغم ذلك يتجنبونها ويتحاشـونها بدوافع مجهولة لهم، فلا يمنع ذلك من تواصلهم مع الحيـاة ولا يؤثر على حياتهم بـالضرر، ولا يعرضهم للآثار المرضيـة للخـوف المبـالغ فيـه كـالصـداع وآلام الظهـر والإحسـاس بالدوخـة ومتـاعب المعدة.. فإذا كـان الأمر كـذلك، فـلا مانع يا صـديقى من أن تخاف من بعض الأشيـاء التى لا تخيـف غيرك مـا دام ذلك لا يؤثر على حياتك ولا يشل إرادتك عن التصرف إزاءها.. ولا يعرضك لأعراض

الخوف المرضية كالرَّعشة وتسارع دقات القلب والتنفس وآلام المعدة، ولا يمنعك من التواصل مع الحياة وتحقيق أهدافك فيها ..

فلا تخف من خوفك إذا كان فى حدود رد الفعل الطبيعى للأخطار الحقيقية أو المحتملة.. أو إذا كان لا يعوق قدراتك على العمل والتفكير والتواصل مع الحياة.. ولا تخجل منه أيضًا؛ فعظماء كثيرون خافوا قبلك من أشياء عجيبة ومضحكة كما رويت لك .. ولم يمنعهم خوفهم من أن يبدعوا وينتجوا ويضيفوا الجديد والمفيد إلى الحياة !


تشايكوفسكى
بتهوفن
سقراط

## عيون العظماء

انضم إلى مجموعة «العظماء» الذين «يراقبونني» - وأنا أكتب لك هذا المقال - ضيف جديد !.. فبعد طول انتظار حمل إليّ صديقي المقيم في فينا ما طلبته منه منذ شهور.. وهو «رأس» الموسيقار النمسوي جوهان شتراوس الابن مؤلف فالس «الدانوب الأزرق» الشهير وغيره من الروائع الموسيقية .

فمن هواياتي السرية التي أستمتع بها.. أن أقتني «رؤوس» المفكرين والفلاسفة وكبار الأدباء الذين أثروا الحياة بإبداع عقولهم، فكأنما أريد كلما نظرت إليها أن أستلهم الإبداع منها .. أو كأنما أتعجب صامتًا حين أتأملها كيف أخرجت هذه الرؤوس «البرونزية».. «والرخامية».. و«الحجرية» كل هذا الإبداع الذي ما زلنا نستمتع به حتى الآن وما زال يضيء الحياة ويسهم في تجميلها !

ومع أن المسألة ليست «بالحجم» كما أثبت ذلك تشريح مخ العالم

العبقرى ألبرت أينشتاين الذى تبرع بمخه للأغراض العلمية بعد وفاته.. فإذا بالأطباء يجدون هذا المخ العبقرى أصغر من الحجم الطبيعى، فإننى كثيرًا ما تخيلت «رؤوس» هؤلاء العباقرة بحجم عبقرياتهم وإضافاتهم للإنسانية.. فأتخيل رأس سقراط مثلا فى حجم المنطاد الكبير، ورأس أرسطو فى حجم عمارة الإيموبيليا.. ورأس بيتهوفن فى حجم جبل المقطم وهكذا !

وبسبب هذه الهواية السرية كثيرًا ما أنفقت وقتًا طويلاً خلال رحلاتى الخارجية فى البحث عن هذه الرؤوس والتنقل وراءها من متجر عاديّات إلى متجر، فإذا فشلت فى الحصول على بغيتى، اعتمدت على أصدقائى المقيمين فى الخارج فى تلبية مطلبى الذى يعيدنى أحيانا إلى أجواء دسائس القصور فى التاريخ القديم حين أقول لأحد هؤلاء الأصدقاء : ائتنى برأس فلان !

فلا يتصورنى والحمد لله أميرًا من أمراء المماليك يطلب رأس أحد خصومه ويتوقع منه أن يقدمه إليه على سنان سيفه، وإنما يتفهم هوايتى المتعبة هذه بسماحة، ويعدنى بالبحث عنها إلى أن يجدها، ثم يحملها إلىّ فى أول زيارة.

وهكذا تجمعت لدىّ فى غرفة مكتبى بالبيت مجموعة ثمينة من رؤوس المفكرين والمبدعين.. وانضم إليهم منذ أيام جوهان شتراوس

الابن؛ فذكرنى من جـديد بأنه لا شىء يحول بين الموهبة وبين انفجارها وتعبيرها عن نفسها، فلقد كـان أكبر أبناء جوهان شتراوس الأب وهو موسيقى نمسوى شهير أيضًا، له أكثر من ١٥٠ مقطوعة من مقطوعات الفالس، وقد أراد لأبنائه ألا يعانوا عذاب الإبداع الموسيقى مثله، وكره لهم أن يحترفـوا الموسيقى، فتعلمهـا ابنه الأكبر خفية، وعينه أبـوه كاتبًـا بأحـد المصارف ليبعـده عن طريق الفن الشائك، ففـوجىء به ذات يوم يقود فرقة موسيقيـة صغيرة، ويعزف الكمان ببراعة مذهلة.. فسلم له بما أراد كـارهًا.. واحترف جوهان الابن الموسيقى ومعـه شقيقان آخـران، وتولى قيادة فرقة أبيه بعد وفاته !

أمـا أن هؤلاء العظماء «يراقبوننى» وأنـا أكتب لك هذا المقال فهـذه «حقيقة» أحس بها فى أعماقى راجيًـا ألا تظن بعقلى الظنون .. فهم - أو أكثـرهم - يتجمعون فـوق رف مكتبـة تقع إلى يسار مكتبى، وكثيرًا مـا أستغـرق فى الكتـابة.. ثم أضيق بإجهـادها الذهنى والنفسى لى، وأتوق إلى وضع القلم والاستسـلام لمتعـة مشـاهدة التليفـزيون.. أو القـراءة الخفيفـة التى تروّح عن النفس ولا تجهـد الذهن.. وأهمُّ بأن أفعل ذلك فأرفع رأسى عن الأوراق عرضًـا.. وأرى عيون هؤلاء العظماء تنظر إلى فى لوم صامت وسخرية مكتومة.. فيخيّل إلىّ أنها تقول بغير كلام :

- أتريد أن تكون كـاتبًا بغير أن تتجشم العناء.. وتقضى السـاعات

الطويلة منحنيًا على الأوراق.. باحثًا عن الأفكار.. كما فعلنا نحن لسنوات طوال طوال ؟!

فأشعر ببعض الخجل من نفسى.. ويشتد حرجى حين أحس بأن الموسيقار العبقرى موزار - أو موتسارت - (١٧٥٦ - ١٧٩٠) على الخصوص يكاد يتجاوز نظرة الاستنكار إلى ما هو أكثر منها، وأتذكر أنه لم يعرف طعم الراحة طوال عمره القصير الذى لم يطل عن ٣٤ عامًا، وأنه قد عانى عذاب الإبداع مبكرًا، فكتب أول سيمفونية له وهو فى الثامنة من عمره، وأول أوبرا له وهو فى الحادية عشرة.. وأنه قد خلف وراءه ٤١ سيمفونية وعشرات الأوبرات والكونشيرتات، وسيطر بموسيقاه على روح القرن الثامن عشر فى أوروبا. وعلى الرغم من غزارة إنتاجه فقد عاش حياة جافة متقشِّفة غارقًا فى الديون حتى اللحظة الأخيرة !

وليس موزار وحده هو الذى يطل علىّ من فوق رف المكتبة ويلاحقنى بنظراته اللائمة أو الساخرة كلما تراخيت فى عملى أو مالت نفسى لاتباع هواها فى الرَّاحة والدعة ! فهناك أيضًا لودفيج بيتهوفن (١٧٧٠ - ١٨٢٧).. وهو لا يطل علىّ من وضع الجلوس المريح، بل من الوضع واقفًا كأنما يقول لى إنه لم يعرف الراحة حيًّا أو ميتًا.. فلماذا أريدها لنفسى ؟ والحق أنه العبقرى الوحيد الذى يقف فوق رف المكتبة

بين باقى العظماء الجالسين عليها. وهو يخالف بذلك القاعدة العجيبة التى وضعها الفيلسوف الألمانى المتشائم شوبنهاور، حين قال : إن القادة العسكريين والزعماء ينبغى أن يُخلّدوا بتماثيل كاملة لأنهم يخدمون الحياة بأجسامهم كلها.. أما المفكرون والمبدعون فينبغى تخليدهم بتماثيل نصفية لأنهم يخدمون الحياة برؤوسهم فقط !

ومع اختلافى مع هذه القاعدة، حيث أرى أن الجميع يخدمون الحياة برؤوسهم وليس بأجسامهم، إلا إننى أحب التماثيل النصفية أكثر من التماثيل الكاملة وأتغاضى عن هذا الاستثناء من بيتهوفن وحده، لأنه هو أيضًا استثناء من كل شىء.. فلقد تفجّرت عبقريته وهو صبى صغير وتوالت مؤلفاته حتى بلغ أوج شهرته وهو فى العشرين من عمره، وبدلا من أن يستمتع بالنجاح والشهرة؛ بدأت تظهر عليه أعراض الصمم فى أواخر العشرينيات من عمره، وانكسر قلبه فى عدة تجارب عاطفية كانت نهايتها كلها شديدة الإيلام له، وفى الأربعين من عمره أصيب بالصمم التام، فانسحب من الحياة الاجتماعية وتوقف عن الذهاب للحفلات الموسيقية .

ومن عجب أن تكون أعماله الموسيقية التى أبدعها وهو أصم.. لا يسمع حتى دق الطبول المدوى، من أعظم وأروع ثمار عبقريته !

ومات بيتهوفن عن ٥٧ عامًا، و ٩ سيمفونيات بينها السيمفونية

الثالثة التى كـان قد ألفها تمجيدًا لنابليون حين بزغ نجمـه فى فرنسا، وأسماها بونابرت، ثم شطـب اسمـه من عليهـا وسماها «البطولة» حين نصب نابليون نفسه إمبراطورا للفـرنسيين وتنكر للمبادىء الجمهورية، فضــلاً عن ٣٢ ســوناتا وخمســة كـونشيرتات ومجمــوعــة كبيرة من المقطوعات الوترية .

فكيف يقبل منى مثل هذا «الرجل» أى عـذر بالتعب أو الإجهاد أو الملل ؟

هناك كذلك صاحب هذا الوجه المحدد التقاطيع الذى يحيط بجبهته إكليل من الغـار على النَّمط الرومـانى القـديم، وهو شـاعـر الإيطاليـة الأعظم دانتى الليجيرى، وقد اشتريتـه - عفوًا لهذا التعبير - من إحدى الأسواق المتنقلة التى تقام فوق الأرصفة مرتين كل أسبوع بكل حى من أحياء باريس وتعرف باسم «المارشيه».. وقد تجولت فى «المارشيه» الذى عثـرت فيه على هذه الرأس الغـاليـة مع صديق لى كـان يرغب فى شراء بعض أدوات المائـدة.. وتوقفنا أمام مـائدة عليهـا بعض هذه الأدوات، فإذا بى أرى وجه دانتى الرُّخامى الجميل ينظر فى الفضاء فى تأمل.. فلم أتردد فى اقتناصه .

وجــاء دانتى ليحتل مكانه بين عظماء المكتبــة ويذكــرنى كل حين بروائعه الشعـرية وأعظمها بغير جـدال هى «الكوميديا الإلهيـة».. وقد

صاغها فى ثلاثة أجزاء وقدم فيها رحلة خيالية إلى العالم الآخر صحبنا معه فيها إلى «الجحيم» الذى رتبه منازل تجمع بين كل الخطاة والأشرار، ثم إلى «المطهر» حيث يتطهر من لا تخلدهم خطاياهم فى الجحيم، ثم إلى «الفردوس» حيث ينعم الأبرار والصالحون بالنعيم .

ومنذ قرأت هذه الكوميديا الإلهية وأنا مفتون بها وبه، وما زالت بعض مقاطعها البليغة ترنّ فى أذنى :

– «المجد لا يُنال فى الفراش أو تحت الأغطية.. وقوة الروح تظفر فى كل معركة !».

– «ذهب الدنيا كله لا يستطيع أن يريح نفسًا من عذاب الطمع !».

– «ليس هناك أضلُّ ممن يأخذه الأسى أمام قضاء الله !».

وغير ذلك كثير وكثير.. ومن أكثر ما أعجبنى فى هذه الملحمة الشعرية أن دانتى قد اختار أعمق منازل الجحيم لمن يخونون من أحسَنَ إليهم أو يتنكرون له، وأيضًا لخونة الأصدقاء الذين وثقوا بهم، ورمز هؤلاء عنده هم إبليس، ويهوذا خائن السيد المسيح عليه السلام، وبروتوس خائن صديقه يوليوس قيصر، وهؤلاء عند دانتى نفاية البشر!

أما صاحب هاتين العينين الجريئتين والملامح المتسائلة على الدوام

فهو صديقى القديم سقراط أبو الفلاسفة، وقد جئت به من أثينا وتعجبت - وما زلت أتعجب - كلما نظرت إليه.. كيف وصفه المؤرخون بأنه كان قبيح المنظر.. دميم الخلقة.. كبير الأنف.. واسع الفم.. رث الثياب.. بارز العينين !

فالحق أننى لا أرى فى وجهه من هذه الملامح سوى بروز العينين وأرى ذلك متوافقًا مع الدور الذى هيأته له الأقدار وهو «التطلُّع» الدائم إلى الحقيقة ومحاولة الوصول إليها، ولقد كانت وسيلته لذلك هى التماسها لدى كل من يقابله فى الأسواق وفى الطريق بطرح الأسئلة المتوالية عن «الما»: ما الإنسان.. ما الخير.. ما الفضيلة .. إلخ ..

وكلما رأيت عينىْ سقراط المقتحمتين ابتسمت باطنيًا وتذكرت طريقته المفضلة فى كشف جهل الجاهلين، فلقد كان يؤمن بأنه هو والآخرون جميعًا لا يعرفون شيئًا عن حقيقة ما يتشدقون به من ألفاظ، لكنه يتميز عنهم بشىء جوهرى هو أنه «يعرف» أنه لا يعرف شيئًا، فى حين لا يعرف الآخرون أنهم جهلاء مثله !

وكانت طريقته لكشف جهل الآخرين هى أن يستدرجهم بإطراء معارفهم وحكمتهم لإيضاح ما يتحدثون عنه من نقاط يراها غامضة على فهمه البسيط، ثم ينهال عليهم بأسئلته المحرجة بلباقة ومهارة.. حتى يعترفوا جميعًا بجهلهم !

أما صاحب هذا الوجه الحالم الذى تكسوه مسحة خفيفة من الأسى الدائم فهو عبقرى الأدب الروسى أنطون تشيكوف ..

ولابد أن تكون مسحة الأسى هـذه استمرارًا لطفولتـه التعيسة التى قال عنها وهو فى أوج مجده : فى طفولتى لم تكن لى طفولة !

وهذا صحيح بالفعل.. فقد كـان يعمل فى حانوت أبيـه من الصباح الباكـر حتى السادسـة مساء، ويتعـرَّض لعقابه البدنـى القاسى كثيرًا.. وكان أبوه يلزمـه ويلزم إخوته إلى جـانب العمل بالحانوت والتفوق فى الدراسـة بتعلم بعض الحرف. وبعــد أن أنهى تشيكوف دراسـة الطب وعمل طبيبًـا ونشر روائعـه القصصيـة وقــدَّمت المسـارح مسرحيـاته الشهيرة، قال ذات يوم لمدير مسرح معروف : كانــت طفولتى خالية من العطف إلى حـد أننى مـا زلت أنظر إلى العطف حتى الآن وكأنه شىء لم تكن لى به سابق خبرة !

وقـال له أيضًـا : لم أغفـر لأبـى حتى الآن جلْده لى كثيرًا وأنا طفل صغير !

وبرغم إنكار تشيكوف للعطف الذى لم يجرّبـه، فلقد فـاضت نفسـه الخيرة عطفًا على النوع الإنسانى كلـه وفهمًا للطبيعة البشرية.. وصورت قصصه القصيرة أدق وأخفى أسرار النفس، ثم مـات مصدورًا وهو فى

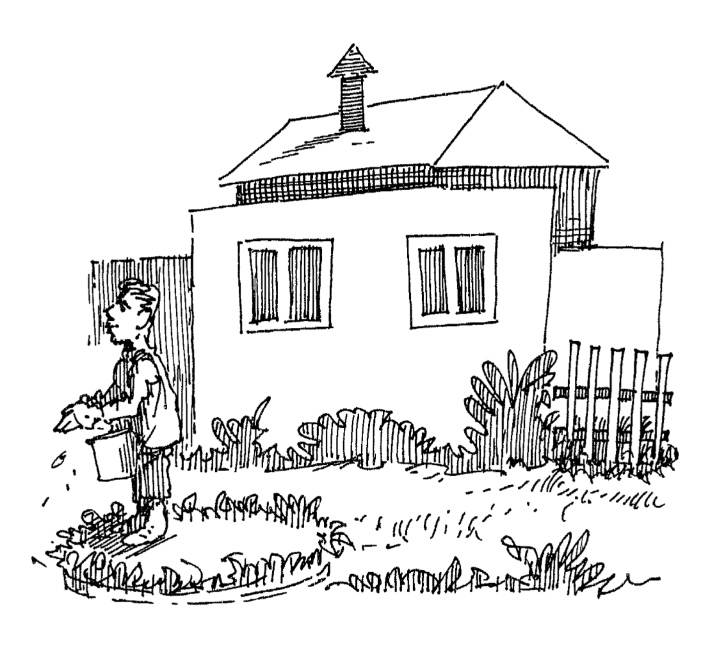
الرابعة والأربعين فقط من عمره عام ١٩٠٤، وبقيت قصصه القصيرة الرائعة تقدم لكل من يقرأها شيئين أساسيين : المتعة .. والحزن !

وأما صاحب هذا الوجه المريح الذى تبدو ملامحه مرتبة كأنها تشى بعقله المرتب أيضًا، فهو المعلم الأول.. أرسطو، وقد سُمِّىَ بذلك لأنه أول من علَّم المنطق ولم يكن قبله علمًا، وقد ولد بمقدونيا سنة ٣٨٤ قبل الميلاد، وتتلمذ على يد أفلاطون الذى «يراقبنى» هو الآخر الآن من فوق قطعة أخرى من أثاث الغرفة. وعمل أرسطو مؤدبًا للإسكندر الأكبر لمدة ثلاث سنوات، وكاد يلحق بمصير سقراط حين اتهمه الأثينيون بالإلحاد، ففرّ من أثينا قائلا : لن أسمح لأثينا بأن ترتكب خطيئة أخرى ضد الفلسفة، ومات فى منفاه بعد شهور قليلة عن ٦٢ عامًا، بعد أن كتب ١٧٠ كتابًا لم يحفظ لنا التاريخ منها سوى ٤٧ كتابًا ، وبعد أن أسس علم المنطق وكتب فى الفلك وعلم الحياة والأجنّة والجغرافيا والجيولوجيا والفيزياء والتشريح والشعر والسياسة والأخلاق.. وكان أثره على الحضارة الغربية والشرقية عظيمًا .

وبالرغم من أنه قد أصاب كثيرًا ، فلقد أخطأ كثيرًا أيضًا.. ومن أطرف أخطائه أنه كان يعتقد أن أسنان المرأة أقل عددًا من أسنان الرجل، وكتب ذلك فى مؤلفاته.. وبعد قرون طويلة قال الفيلسوف البريطانى برتراند رسل إن أرسطو كان يستطيع أن يتجنب هذا الخطأ

الفاضح لو كـان قد طلب من «مدام أرسطو» أن تفتح فمها ثم قـام بعدّ أسنانها !

يا إلهى .. انتهت المسـاحة ولم أحـدثك بعـد عن باقى العظماء الذين يحاصروننى من كل جانب فى مكتبى بالبيت. كما لم أحـدثك كذلك عن أمنيتى المكتومة لو كانت هناك رؤوس أخـرى متاحة لعظماء آخرين من الشرق العربى، لكى أضم إلى مجموعتى رؤوس أشخاص من نوع عمر ابن عبـد العــزيز .. والإمـام أبى حنيفـة النعمان.. والإمــام ابن حـزم الأندلسى .. والإمـام أبـى حـامـد الغـزالى.. والإمــام محمـد عبـده.. والبيرونى العظيم .. وابن سينـا .. والإمـام الليث بن سعــد.. والمتنبى ملك الشعـراء العـرب .. وغيرهـم .. فوا أسفـاه على افتقـادى لمثل هذه الرؤوس العبقـرية الملهمة إلى جـوارى .. وواأسفـاه على ما أضعتـه من وقتك بمثل هذا الحديث !



# كيف تأكل البطاطس ..
# وتصبح أديباً عظيماً !

ليست البطاطس فى حد ذاتها هى التى يمكن أن تصنع من إنسان أديبًا عظيمًا أو عالمًا شهيرًا.. أو رجل أعمال ناجحًا، لكنه الرمز الذى ترمز إليه من القدرة على الكفاح وقوة الإرادة وتحمل جفاف الحياة خلال صعوبات البداية ! فكثيرون قد أكلوا البطاطس وما زالوا يأكلونها كل يوم بغير أن يصبحوا أدباء كبارًا كهذا الروائى الأمريكى أرسكين كالدويل ؛ لأنها لا ترتبط لديهم بهدف يسعون إليه.. ويتحملون عناء الحياة من أجله.. أما هو فلقد عاش سنوات يزرع البطاطس فى الأرض المحيطة بالبيت الحجرى الذى استأجره فى مقاطعة أمريكية قليلة السكان ، ويأكلها وحدها بلا إدام.. ويكتب طوال الليل فى غرفة باردة تتجمد فيها أصابعه وهو يدق بها على الآلة الكاتبة .. ويرسل القصة وراء القصة إلى المجلات الأدبية.. فتعيدها إليه ملصقًا عليها بطاقة رفض مطبوعة حتى تجمعت لديه من هذه

البطاقـات مجموعـة كبيرة احتفظ بها فى ألبـوم ضخم كألبـوم الطوابع !
ومع هذا فلم ييـأس ولم يتـوقف عن الكتـابة.. بـل ولم يندم على قـراره
المصيرى الذى اتخذه وهو فى الثانية والعشرين مـن عمره بالاستقالة من
وظيفته كمحـرر صحفى بجريدة محلية يتقـاضى أجرًا مضمـونًا ليتفرغ
لكتابة القصـة، وليس فى جيبه سـوى بضع دولارات يشترى بها الورق
وبذور البطاطس وطوابع البريد لإرسـال القصص للمجلات ، فيطول
انتظاره سنوات وسنوات.. وتصـاب أصـابعـه بقـرح البرد ، ويفقـد
عشرين كيلو جرامًا من وزنه فلا يثنيه كل ذلك عن مواصلة المشوار ..

لكن البدايات قد تشير فى بعض الأحيـان إلى النهايات.. والمؤكد أن
بدايات هذا الروائـى الأمـريكى المعـاصر كـانـت توحى بقـوة الإرادة
والقـدرة على الكفـاح والصبر على تحقيق الأهداف، فخـلال دراستـه
بالمرحلة الثانوية، قرر الفتى أرسكين وهو يعيش مع أبيه القس الفقير أن
يحصل على بعض الدخل الإضافى ليعينه على مطالبه، ولم يجد هذا العمل
سوى فى وردية الليل بمعصرة للزيوت، فعمل بها سرًّا بغير علم والديه،
وراح يدخل فراشه مساء كل يوم وينتظر حتى يستغرق أبواه فى النوم ثم
يتسلل إلى المعصرة البعيدة ليقضى الليل كلـه فى العمل بها مقابل دولار
واحد ، ويـرجع فى الصباح البـاكر ليدخـل فراشـه .. فلا تمضى سـاعة
حتى تـوقظه أمـه للذهاب للمـدرسـة، وفى هذا العمل الشـاق

استمـر بضعـة أسابيـع حتى انكشف أمره حين غلبـه النوم على مـائـدة الإفطار ذات يوم ؛ فمنعه أبوه من العمل رحمة بصحته..

وانتهت تجربة العمل الأولى فى حيـاته ، لكنهـا تركت فى حيـاته أثرًا شديد الأهمية، فلقد اشترى بمدخراته من هذا العمل آلة كاتبة مستعملة قدّر له أن يرتبط بها مصيره بعد ذلك لسنـوات طويلة ، وبدأ يستخدمها فى كتـابة القصص الإخبارية التى يبعث بها للصحف المحليـة . ثم أنهى دراسته الثانوية والتحق بالجامعة فى مدينة أخرى ؛ فحمل معه هذه الآلة المستعملة وواصل هوايتـه فى كتـابـة الصـور الأدبيـة ونشرها بمجلة الجامعة. ثم هجر دراسته الجامعية قبل التخرج وعمل بصحيفة محلية فى ولاية أطلانطا، وحقق فى عمله الجديد نجـاحًـا طيبًـا ارتفع معه أجـره الأسبوعى واستقرت أحـواله المادية.. لكن شيئًا ما فى داخله كان يتطلع إلى مـا هو أكثـر من العمل الصحفـى العـادى.. فـراح يكتب القصص القصيرة ويرسل بها إلى المجـلات الأدبيـة، وقبلت إحـدى الصحف أن يقـوم بكتـابة تعليقـات قصيرة على الكتب الجديدة بلا أجـر مقـابل احتفاظه بما ترسله من هذه الكتب .

وبعـد عـام واحد من عمله بهذه الصحيفـة وجـد لديه حـوالى ألفى كتاب جديد ، وأربعين أو خمسين قصة قصيرة أرسلها للمجلات الأدبية ورفضتهـا ، ومـائتى دولار وفـرها من أجـره .. فأقـدم على أخطر

خطوة فى حيــاته وهى أن يستقيل من عمله الصحفى ويتفــرغ لتحقيق هدف محدد هو أن يصبح كاتبًا محترفًا، واعــدًا نفسه ـ كما قال فى مذكراته الأدبيــة بعنوان «كيف أصبحت كـاتبًـا روائيًـا» ـ ألا يعمل بأية وظيفـة أخرى إلا مضطرًا ولفترة مؤقتة حتى يحمى نفسه من الجوع والضياع إلى أن يرجع للتفــرغ للأدب من جـديد، وحـدد لنفســه فترة خمس سنوات لتحقيق أمله فى أن يصبح كاتبًا معروفًـا تدفع له الصحف أجرًا مقابل ما ينشره فيها من قصص..

لكن كيف يعيش خلال هــذه السنوات الخمس وهو شاب فقير ولا تستطيع أسرته إعالته ؟

لا يعرف على وجه التحديد، ويعترف بذلك صراحةً فى مذكراته.

لكن الشاب الطموح قرر أن ينتقل إلى مكان بعيـد يتفرغ فيه للكتابة .. واختـــار على الخريطة مــدينـة صغيرة اسمهـــا فيرنون بــولاية مين الأمريكيــة واستأجر فيها بيتًا حجـريًا لمـدة عام دفـع إيجاره مـائة دولار مقدمًا ، ثم شحن كتبه فى صناديق كبيرة عن طـريق النهر وركب القطار إليهـا . وكان البيت الذى استـأجره بيتًـا قــديمًا جميلاً كبيت صيفى، أمـا خلال الشتاء الطويل فقد كانت الإقـامة به محنة قاسية، وكان أول درس تعلمــه الســاكن الجديد من أحـــد جيرانه هو أن يزرع على الفــور بذور البطاطس فى الأرض المحيطة ليجـد مــا يطعمــه خـلال الصيف، وأن

يقطع عددًا كبيرًا من أشجار الغـابة القريبة ليجد مـا يكفيه من أخشاب للتدفئة طوال محنة الشتاء .

وبدأ الشاب العمل بحماس فى الجبهـات الثلاث : يزرع البطاطس ، ويقطع الأخشـاب ، ويجلس فى المساء أمـام آلتـه الكاتبة حتى الفجـر . لكنـه فقد مخزونـه من الخشب بأسرع ممـا توقع ، وصـور حاله حينـذاك قائلاً : «مع مجىء يناير كان معظم الخشب المخزون قد نفد ، وكان الثلج يرتفع فى الخارج بضعة أقدام .. فأبقيت مـدفأة المطبخ وحدها مشتعلة، ورحت أكتب فى الليل فى غرفة باردة بالطابـق العلوى بلا مدفأة مرتديًا سـويتر من الجلد فوق البيجـامة .. وأنـا ألـفّ سـاقى ببطـانيـة وأنفـخ فى أصابعى المتجمدة من حين لآخر .. وأكتب من ١٠ إلى ١٢ ساعة كل ليـلة » !

وواصل الشاب حياته على هذا النحو ، وكلما عجز عن احتمال البرد سـافـر إلى الجنوب طلبًا للـدفـء .. وأقام فى كـوخ صغير زهيـد الإيجار لبعض الوقت إلى أن يتحسَّن الجو ويرجع إلى بيتـه الحجرى . ومع مجىء الصيـف التـالى كـان قـد تعـلم الدرس ، فبـدأ يقطـــع كميـة أكبـر من الأخشـاب ، وراح يعـــزق الأرض لإخـراج ثمار البطـاطس ، وتوقف ليراجع نفســه فإذا به لم يكسـب طوال هذا العـــام دولارًا واحـــدًا من الأدب ، وكـان كل مـــا كسبـه من بيع الكتب التـى يكتب التعليقـات

المجانيـة عليها ، فكان كلما نفدت نقـوده ملأ حقيبة كبيرة بعـدد منها ثم ذهب إلى المدينة ليبيعهـا ويشترى بثمنهـا الورق وطوابع البريد والخبـز ويرجع لحياته المنعزلة .

وأخيرًا وبعد عـامين من التفرُّغ الكامل لكتـابة القصة ؛ تلقى خطابًا من مجلة أدبية متخصصـة تصدر من نيـوريورك اسمها «كارفـان» تبلغه فيها بقبول أول قصة له للنشر مقابل ٢٥ دولارًا !

وسعد الشاب الأديب سعادة طاغية بهذا النبأ . وبعد أن تخفف قليلاً من انفعاله به ؛ مـلأ حقيبة جلدية بها كتبـه من قصص ومقالات وركب الأتوبيس إلى المدينة الصـاخبـة نيـويورك وليس فى جيبـه سـوى ١٢ دولارًا.

وزار المجلة التى قبلت قصته، وعددًا آخر من المجلات ودور النشر، فقبلت إحـداها نشر قصة أخـرى طويلة له، ثم رجع إلى «فيرنون» بعـد نفاد نقوده ليواصل أكل البطاطس وكتابة القصص وإرسالها للمجلات متعلقًا بأمل جـديد ! وقبل أن يفترسه الجوع والإجهـاد والعمل الشاق كل ليلة أنقـذته مجلـة أدبيـة أخـرى بقبـول نشر قصتين وإرسـال ٣٥٠ دولار ثمنًا لهما إليه ، ثم قبلت مجلة «كارفـان» نشر أول مجموعة قصصية له .. فبدأت معـالم الطريق تتَّضح أمامه بعـض الشىء، وبدأ هو مرحلة جديدة من حياته راح يتنقل خلالها مـن مدينة إلى مدينة بحثًا عن تجربة

إنسانيــة يسجلها فى قصة جــديدة، فيقيم فى الفنادق الصغيرة الرخيصة، ويكتب طوال الوقت ، ويعيــش على الخبــز والجبن، فإذا نفــدت نقــوده تمامًــا أخرج تذكــرة العودة بالأتوبيس ورجع إلى البيت الحجــرى ينتظر بيع إحدى قصصه ليرجع إلى التجوال من جديد .

وصدرت مجمــوعته القصصيــة الأولى بعنوان «الأرض الأمــريكية» فلم يحسن النقــاد استقبالها.. وانهمك فى البيت الحجرى فى كتــابة رواية طويلة لأول مرة منقطعًا لها تمامًا لمدة شهور، وراح يقسم يومه إلى ثلاث فترات محددة : ٨ ساعــات للنوم، ٨ ساعــات للعمل اليــدوى الشاق فى جنى البطاطس وزراعة البذور الجديدة وقطع الأخشاب ، و ٨ ساعات للكتابة يوميًا .

وصــدرت خــلال ذلك روايتــه الأولى «طريق التبغ» فلم يرحب بها معظم النقـــاد، لكنه لم يحرم إلى جـــانــب ذلك من بعض التعليقـــات المتعاطفــة معها ، وتعــرف بوكيل أدبى تحمس لتسويق مــؤلفاته، فكتب رواية أخــرى، وأصبح يــرسل إليــه قصصــه القصيرة ليتعــاقــد هو مع المجــلات على نشرها مقـــابل نسبــة مئوية له، وبعـــد أربع سنوات من الانقطاع للكتــابة الأدبيــة كــان دخله السنوى من الأدب قــد بلغ ٧٠٠ دولار .. فدفـع إيجار البيت الحجرى لمدة عام آخــر وبقى معه مــا يكفى ليعول به نفســه وأبويه الذين لحقا به للإقامــة معه فى البيت . وكتب عن ذلك يقول :

«وتناولنا اللحم المشوى لأول مـرة منذ سنة ، وتركنا نسبة كبيرة من البطاطس تتعفن فى باطـن الأرض ذلك الخريف ، وأملت أن يكون مـا أكلته منهـا ومن اللفت الذى كنت أزرعه معها هو آخـر ما آكله منهما فى حياتى » !

وتحقق «الأمل» بالفعل بعد ذلك.. وودع أرسكين كالدويل سنوات الجوع والبرد والحرمـان بعـد ست سنوات حـافلة بـالعناء .. وتوالى صـدور كتبه ورواياته ومجمـوعـاتـه القصصيـة، وقـدمت له السينما الأمـريكيـة عـددًا من الأفـلام الناجحـة عن رواياته الشهيرة، كـرواية «أرض الله الصغيرة». وتحولت رواية «طريق التبغ» إلى مسرحية ناجحة فى مسارح برودواى بنيـويورك . وصدرت طبعات من كتبـه فى بريطانيا وترجمات لها فى فـرنسا.. وصـدرت له أربع مجموعـات قصصية وعـدة كتب من أدب الرحـلات لاقـت رواجًـا كبيرًا فى أمـريكا. وسـافـر إلى الاتحاد السـوفيتى خـلال الحرب العـالميـة الثـانيـة فتهـافتت الصحف الأمريكيـة والإنجليزية على نشر مقالاته عن «روسيـا فى الحرب» مقابل أجور سخية .

ورجع إلى أمـريكا فـلاحقتـه شركـة «وارنـر» بإلحاح ليكتب لها «مسـودة» قصة فيلم عن روسيـا فى الحرب، مقـابل الإقامـة الكاملة فى جناح فـاخر بفنـدق كبير ودفع أجر سكرتيرته أو مسـاعـدته و ١٢٠٠

دولار فى الأسبوع طوال فترة العمل ، واشترى الأديب الشهير بيتًا صيفيًا فاخرًا فى ولاية أريزونا ذات الجو الحار، كأنما يريد الإمعان فى البعد عن ذكريات البرد القارس فى بيت فيرنون الحجرى .

وأعيد طبع رواية «أرض الله الصغيرة» فى طبعة شعبية، فوزعت مليونى نسخة، وهى التى لم توزع فى طبعتها الأولى سوى ثلاثة آلاف !

وأصبحت المجلات والصحف تتنافس على طلب القصص القصيرة من الأديب الكبير لنشرها، فيتراوح أجره على نشر القصة الواحدة منها بين ٥٠٠ و ١٥٠٠ دولار، ومن عجب أن بعض ما نشر منها كان من بين القصص التى كتبها فى بيت فيرنون الحجرى البارد وهو يعيش على حساء البطاطس وأرسلها للمجلات الأدبية فأرجعتها إليه بالبريد تحمل بطاقة تقول : مرفوض لضعف المستوى !

وصدق حقًا من قال : إن أعظم الأعمال لا تتحقق بالرغبة وحدها وإنما بالمثابرة والدأب والاستمرار فى بذل الجهد المخلص لتحقيقها ، ولو تحمل الإنسان فى سبيل ذلك.. البرد والحرمان ومرارة الرفض لفترة طويلة !



# أحلى الأسامى

ثُلاثون عـامًا أو أكثر ولم أنس بعـد مطلع هذه المقطوعة الـرقيقة من الشعر العاطفى الرقيق ! قرأتها وأنا فى شرخ الشباب فى ديوان من الشعر اسمه «ليـالى الهرم» للشاعـر الغنائى الراحل صالح جـودت، لعلى كنت قد اشتريته وقتها بعشرة قـروش، فاستمتعت بقراءة كل أشعاره.. لكنى أحببت هذه القصيـــدة بالذات وحفظـت مطلعهـــا وبعض أبيـــاتها، واستقرت فى ذاكـرتى. أما ديوان الشعـر نفسه فلقـد اختفى فيما اختفى من كتبى الثمينة القديمة، وطوته يد النسيـان أو يد السرقة والاختلاس إن شئت الحقيقة !

فأنا لا أفرط فى كتبى بسهولة.. ولا أدعها للإهمال لكى أزعم أنى قد افتقـدت هذا الكتـاب وغيره خـــلال انتقـالى من مسكن إلى مسكن كما يقـول بعـض الكتـاب فى مــذكـراتهم. ومـــا زال لدىّ حتى الآن كتب اشتريتهـا وعمرى ١٥ عـامًا ومـا زلت أحتفظ بها كما مـا زلت أحتفظ

أيضًا بأول مكتبة خشبية صغيرة كلّف أبـى ـ يرحمه الله ـ نجارًا متواضعًا بأن يصنعها لى وعمرى ١٦ عامًا لأحتفظ فيها بكتبى القيمة .

وقـــد انتقلت من بلـدتى الصغيرة دســـوق إلى القــاهــرة لألتحق بالجامعـة، وانتقلت معى هـذه المكتبـة الصغيرة التى لا تعـدو أن تكون دولابًا صغيرًا بأبواب من الـزجـاج . وتنقلت بعـد ذلك من مسكن إلى مسكن فى القـاهرة وهذه المكتبـة الأثرية تصـاحبنى إلى حيث أنتقل ولا أفرط فيها.. إذن فكيف فقدتُ هذا الكتاب وعشرات ـ بل ومئات ـ من الكتب المماثلة التى لا أستطيع تعويضها الآن ؟

الحكاية أننى قـد ابتليت بصداقة بعض «لصـوص الكتب» منذ سن الصبا، كما ابتليت فيما بعد فى سن الشباب «بمعـرفة» ـ ولا أقول بصداقة - البعض الآخر ، وهـؤلاء وهؤلاء كانوا يعـرفون عنى جيدًا كـراهيتى للتفـريط فى أى كتاب أو إعـارته لمن يريده.. فكانوا يختلسـون منى هذه الكتب سرًا ولا يعيدونها إلىَّ أبدًا !

والآن وأنا أكتـب هذا المقـــال وأسترجع فى مخيلتى أسماء وعنـاوين وأغلفـة بعض الكتب الثمينة التى فقـدتها بهذه الطريقـة، ألتمس بعض العـذر للمهاجـرين الأوائل إلى أمـريكا الذين كـانوا يفـرضون عقـوبة الشنق على فـرع أقرب شجـرة على لصـوص الجيـاد، باعتبار أن الجيـاد كـانـت أثمن مـا فى حيــاة المهـاجــر الجديد لأنها وسيلة مـواصـــلاته

الأساسية.. «وسيارته» التى يمتطيها لارتياد مجاهل الغرب الأمريكى، ولأن سرقتها تؤخر التعمير والتقدم وتهدد أمان المواطنين !

وأذكر من «لصوص الجياد» الثقافية هؤلاء صديقًا لى كان مهندسًا وكان يقيم فى تلك المرحلة من شبابنا فى الصحراء ويأتى إلى القاهرة مرة كل شهر فيقيم معى فى مسكنى الذى أعيش به وحيدًا، ونمضى أيام إجازته فى أحاديث متصلة وسهر متواصل ومشاهدة مسرحيات المسرح القومى والأفلام «الحديثة»، إلى أن يحين موعد عودته فينهض فى الصباح الباكر وأنا ما زلت مستغرقًا فى نومى ويسافر إلى عمله .

وظللنا على هذا الحال بضعة أعوام نستمتع بأوقاتنا وبالصداقة الصافية خلال زياراته الدورية للقاهرة، وقد استرحت إلى أنه قد احترم منطقى بشأن رفض إعارة كتبى للآخرين وكفّ عن مطالبتى بذلك، وكان منطقى فى ذلك ـ وما زال ـ هو أننى لا أرى مبررًا لأن يستعير الإنسان كتابًا من أحد وهو قادر ماديًا على شرائه من أقرب مكتبة، وأننا ننفق الكثير على طعامنا وشرابنا ومقهانا ودور السينما والمسرح التى نرتادها، فلماذا نبخل إذن ببضعة قروش على شراء كتاب أعجبنا ونرغب فى قراءته .

وقد سلَّم لى صديقى المهندس بهذا المنطق الذى طالما جادلت به أصدقائى هواة استعارة الكتب، ووافقنى على رأيى بأن هذه الإعارة لا

جدوى لها إلا فقدان الكتب أو إهمالها لدى من يستعيرها، لأن من يرغب حقًا فى أن يتثقف لابد أن يتحمل تكاليف الثقافة ما دام قادرًا عليها، ولا يحق له أن يستعير كتب أحد غيره إلا إذا كان غير قادر ماديًا على شرائها، أو إذا كان هذا الكتاب «نادرًا» لا يتوفر فى المكتبات. وقد سعدت كثيرًا باقتناعه بمنطقى ، وكففنا عن الجدال والملاحاة حول هذا الشأن .

لكن كتبى رغم ذلك راحت تتناقص ويختفى بعضها بغير سبب مفهوم ، واتجهت بظنونى إلى بعض من يزوروننى من الأصدقاء والمعارف وخصصتُ بها أحدهم وكان من أدعياء الاشتراكية وقتها بعد أن جادلنى فى «بورجوازيتى» الثقافية وإصرارى على تمسكى بكتبى فى حين أن فلانا «اسم أجنبى مزيف بكل تأكيد وينتهى بـ أوف» والذى زعم أنه لكاتب اشتراكى روسى كان بعد أن ينتهى من قراءة أى كتاب يركب سيارة الأتوبيس العامة ويتعمد أن يترك الكتاب وراءه على المقعد عند نزوله لكى يعثر عليه مواطن آخر ويقرأه ويتثقف؛ لأن «الثقافة للجميع» وليست حكرًا على أحد !

ولم أقتنع بالطبع بهذا المنطق الفاسد .. وجادلته فيه طويلاً وقلت له إننا فى العادة نختار من «الشعارات» ما يخدم وجهة نظرنا وقد نؤلف لها الأقوال المساندة من وحى اللحظة، كما أَلَّفَ هو لى قصة هذا الكاتب الاشتراكى الذى لا أشك فى أنه لم يكن له وجود ، وأننى حتى لو كنت

مسئولاً عن تثقيف «الجميع» فإنى أدعـو من يشـاء إلى أن يقـرأ مـا يريد ولكن فى بيتى لأضمن عـدم ضياع الكتب، ولم يقتنع هو أيضًـا بذلك . وبعد انصرافه اكتشفت اختفـاء الكتاب الذى أثار هذا النقاش كله حين رفضت إعـارته له، وتأكدت من أنه قـد طبق عليه نظريتـه الفاسـدة فى «شيوع الثقافة» !

وطلبت من صـديقى الذى أصطحبـه لزيارتى ألا يرجع به مـرة أخـرى ! أمـا صـديقى المهندس فقـد راح كلما زارنـى يجدّد دعـوته لى لزيارته فى مقـر عمله بالصحـراء حيث يعيش فى بيـت حكومى واسع ويقوم على خدمته بستانى وطبـاخ حكوميّان ويعدنى بقضاء بضعة أيام جميلة فى هـدوء الصحراء وشـاعريتها ، وحزمت أمـرى أخيرًا وقررت زيارته مع صـديق آخر لنا من أصـدقاء الطفـولة أيضًا . وركبنا إليـه فى قلب الصحراء ، واستقبلنا صديقنا المهندس بمظاهرة ترحيب على باب البيت ، وقـادنا على الفور إلى مـائـدة الغداء الحافلة . وانشغلنا بالطعـام وتبـادل الذكـريات الضاحكـة بعـض الوقت ثم انتقلنـا إلى غـرفـة المعيشـة لنشـرب القهـوة ، فما إن دخلتها وتلفـتُّ حولى أتأمل مكتبتـه الصغيـرة المعلقة على الحائط حتى استدرت إليـه صارخًا فيـه : كتبى .. يا حـرامى !

فلقد كـان كل ما فى مكتبته مـن كتبى الضائعة والمختفيـة والمفقودة

منى بطريقة غـامضة طوال ٣ سنوات ! ولم يكن فى مكتبته كتـاب واحد من مقتنياته الخاصة أو من مشترياته بحرّ ماله !

أليس هذا ما كان الاشتراكيون يسمونه «بنزح الثروات» الذى قام به الاستعمار الغـربى حين نَزَح ثروات المستعمـرات الأفريقيـة إلى بلاده ؟ ألا يستحق ذلك الثـورة والانفعـال ؟ لقـد هممت بالانفعـال فعـلا ففـوجئت بـالصـديقين ينفجـران فى الضحك والصخب ، والصـديق المذنب يقـول لى ببساطة : مـاذا أفعل وأنت لا ترضى بإعـارتى الكتب وأنا لم أعتد شراءها ؟

وفـوجئت بالصـديق الآخـر يتشفع له فى العفـو بتقـادم الجريمـة وسقوط العقـوبة ! ولم أجد مفـرًا من مشاركتهما السخـرية ، وأصبحت «السرقة الكبرى» كما أطلقت عليها هى محور ضحكاتنا وتعليقاتنا نحن الثلاثة طوال اليومين اللذين أمضيتهما فى ضيـافته، وعند الرحيل جمعت من كتبى السليبـة مـا اتسعت له حقيبتى منهـا، وتـركت له البـاقى وأنا أتوعده بأنه سينسى كل ما قـرأه فى هذه الكتب المسروقة ولن يستفيد به شيئًا من الثقافة الحقيقية لأنها ثقافة من مصدر «حرام» !

وحرصت بعد ذلك حين يزورنى ألا أدعه يسـافر عائدًا إلى عمله فى الصبـاح الباكـر وأنا نائم كما كـان يفعل طوال السنوات الماضيـة برغم إعلانه «توبته» لى !

وسعدنا برغم ذلك بصداقتنا المخلصة وذكرياتنا المشتركة التى بدأت ونحن فى المدرسة الابتدائية .

ولست أعرف هل كان ديوان «ليالى الهرم» لصالح جودت من بين «سرقاته» الثقافية منى، أم كان من سرقات شخص آخر من لصوص الجياد هؤلاء ! لكنى فقدت هذا الكتاب فى أوائل الستينات ولم أعثر عليه قَطّ بعد ذلك فى المكتبات برغم بحثى عنه أكثر من مرة .

وهيهات حتى لو عثرت على طبعة حديثة له أن تعوضنى عن طبعته الأولى .. فالكتب القديمة فى طبعاتها الأولى كالنبيذ المعتق ؛ تزداد قيمتها كلما مضت عليها السنوات . ومنذ أسابيع تحسرت بلا مناسبة على هذا الديوان الضائع خلال حديثى مع صديقة مثقفة وكاتبة للقصة القصيرة ورويت لها أننى ما زلت أتذكر مطلع إحدى قصائده الجميلة الذى يقول فيه الشاعر :

ما اسمك بين الأسامى

يا فتنتى يا غرامى

إن قلت أو لم تقولى

فاسمك أحلى الأسامى !

ففوجئت بها تقول لى بأن لديها نسخة من هذا الديوان ضمن الأعمال الكاملة لصالح جودت، وتعدنى بإهدائها لى !

ورجعت بالفعل بعد أيام حاملة إلى مجموعة أشعار صالح جودت فى طبعة لبنانية صدرت عام ١٩٨٢، وشكرتها بحرارة على هديتها الثمينة، وتصفحت الديوان بلهفة باحثًا عن القصيدة التى قرأتها وأحببتها منذ أكثر من ثلاثين عامًا، ووجدتها فى ديوان ليالى الهرم بعنوان: ما اسمك ! واسترجعت كلماتها وأنغامها الشاعرية الرقيقة .. أو قل إننى قد استرجعت فيها صدى أنغام شرخ الشباب وذكرياته الحلوة وأحلامه الوردية .

واستعدتُ محاولات الشاعر لتخمين اسم الفتاة الجميلة التى خلَبت لُبّه ولم يعرف بعد اسمها فيقول لها :

إنى أسمّيك ليلى

لتبعثى فى خيالى

ذكرى شهيد غرام

كم عذبته الليالى

جنُونه من جنونى

ضلاله من ضلالى

قولى هل اسمك ليلى

أم ذاك وحى غرامى

إن قلت أو لم تقولي
فاسمك أحلى الأسامي !

ولا يستقر الشاعر بعد ذلك طويلاً على اسم ليلى ، وإنما يواصل تخميناته واختياراته هو لما يناسب جمالها من أسماء فيقول :

هوايَ أدعوك نجوى
لكي أناجيك دهري
أم هل أسميك سلوى
إذ أنت كأسي وخمري
أم هل أسميك رضوى
إذا رضيت بشعري
أم هل أسميك فدوى
وأفتديكِ بعمري
أم هل أناديك نورا
لكي تُنيري ظلامي
إن قلت أو لم تقولي
فاسمك أحلى الأسامي !

لكن مـاذا «تهم الأسماء والكلمات» فى النهـاية كما يقـول لنا شـاعـر الإنجليـزية العظيم وليم شكسبير فى مسرحية هاملت ؟ إن الأهم منهـا دائمًا هو جمال الروح والقلب الذهبى الذى تحمله صاحبة الاسم، وليس الاسم نفسـه ! وهكذا يقول صـالح جودت لنفسـه أيضًا فيستـدرك فى ختام قصيدته قائلاً :

إن الأسـامـى جـمـيـعًا
جـمــالـهـا لا يـفـيـك
فلـيس فى الكـون حُـسـن
إلا تجــــمــع فـــيــك
فـمــا اهـتـمـامـى بـاسم
مـن اخــتــيـار أبـيــك
إنــى أســمـيـك روحى
لـو أنـهـا تُرضــيــك
تخــيَّرى فى الأســــامـى
وبـــين جـنـبـىْ نـــامـى
إن قلت أو لـم تـقـولـى
فاسمك أحلى الأسامى !

ألا تعـذرنـى إذن فى حبى لهذه القصيـدة الجميلة من الشعــر الرقيق برغم مرور كل هذه السنوات ؟

وألا تشاركنى سخطى على «لصـوص الجياد» الذين حرمـونى منها ومن معـارف أخرى قرأتها فى شبـابى وحاولـت استرجاعها بعـد ذلك فاكتشفت سرقة مصادرها الثمينة ؟



# أرجوك .. أتوسل إليك :
# اكتب مذكراتك

خسارة أن يجيء أى إنسان إلى الدنيا.. ويغادرها دون أن يترك وراءه كتابًا صغيرًا يحكى فيه بأمانة تجربته فى الحياة، ليستفيد منه من يجيء بعده ويستعين به على تعلّم فن الحياة الصعب !

أنا شخصيًا استفدت من قراءة قصص حياة بعض المفكرين والأعلام فى كل المجالات، أكثر مما استفدت أحيانًا من قراءة بعض أعمالهم، ومن عادتى إذا رأيت فى أى مكتبة كتابًا يروى فيه مؤلفه قصة حياته أن أشتريه على الفور بغض النظر عن مكانة مؤلف الكتاب أو تخصصه أو رأيى فيه. فحياة أى إنسان حتى لو كان شخصًا عاديًا لا علاقة له بالأدب والفكر والدين والسياسة، تصلح لأن تكون كتابًا مفيدًا إذا التزم فقط بأن يحكى فيه بأمانة قصة نشأته بين أبويه، والمواقف والمحن الشخصية التى تعرّض لها.. وفيمَ أخطأ.. وفيمَ أصاب خلال صراعه مع الحياة .. إلخ .

وفى مكتبتى إلى جوار مذكرات الأعلام والمشاهير فى المجالات المختلفة، مذكرات أخرى لأشخاص عاديين رأوا أن لديهم ما يقولونه للآخرين عن تجربتهم مع الحياة فسجلوها فى مذكرات تلقائية بسيطة ومفيدة. وليس غريبًا أن تجد عندى عددًا لا بأس به من الكتب التى تحمل عناوين من نوع : مذكرات مأمور شرطة، أو مذكرات ضابط سجون، أو مذكرات محام غير مشهور، أو مذكرات مدرِّسة بمدارس البنات ! أو مذكرات شيخ أزهرى قديم، بل وأيضًا مذكرات كومبارس بالسينما ! ولو صدر كتاب بعنوان «مذاكرات ماسح أحذية» لما ترددت فى اقتنائه على الفور ولقرأته بشغف باحثًا بين سطوره عن خبرة حياته أو تجربة شخصية تعيننى على فهم الحياة والتعامل معها .

ويبدو أننى قد اكتسبت هذه العادة تأثرًا بالعقاد العظيم الذى كان يقرأ فى كل شىء وأى شىء من الأدب والدين والتاريخ والفكر السياسى إلى كتب التراجم والسير الذاتية وعلم الحشرات وعلم الحيوان وعلوم الفلك .

وقد سأله ذات يوم فى أوائل الستينيات الشاعر الأديب المرحوم صالح جودت :

ـ ماذا تقرأ الآن يا أستاذنا ؟

فأجابه : أقرأ كتابًا عن حياة الممثلة الفرنسية بريجيت باردو !

وتساءل صالح جودت مندهشًا : العقاد العملاق، يقرأ عن بريجيت باردو ؟!

فرد عليه العقاد بهدوء : ولِمَ لا ؟ ليس هناك كتاب أقرأه ولا أستفيد منه شيئًا ما مهما كانت ضآلته ، وفى حياة كل إنسان ما يستحق أن يتأمله المرء ويستفيد به ، فإن لم أستفد من الكتاب التافه شيئًا على الإطلاق فقد عرفتُ منه على الأقل كيف يكتب الكتاب التافهون وفيم يفكرون ؟

وقد لاحظت على نفسى منذ سنوات طويلة أننى لا أكاد ألتقى بأى إنسان يقترب من الستين أو تجاوزها وأستشعر فيه بعض الحكمة ورزانة التفكير حتى أبادره بهذا السؤال التقليدى : متى تكتب مذكراتك ؟ فيندهش غالبًا مَن أفاجئهم بهذا السؤال ويختلف رد الفعل من شخص إلى آخر، فيقول لى أحدهم : وما شأنى بالكتابة ولستُ من أهلها ؟ ويقول آخر : وماذا فى حياتى يستحق أن أسجله على الورق ويقرأه الناس ؟ ويقول ثالث: وحتى لو فعلت ، فأين الناشر الذى ينشر كتابًا عن حياة إنسان غير معروف ؟.. إلخ .

فلا أيأس لمثل هذه الإجابات المكررة، وأروح أحاول إقناع محدثى بأن حياة كل إنسانٍ مهما كان شأنه لا تخلو من تجارب إنسانية عميقة وخبرة عملية اكتسبها من صراعه مع الأيام خلال رحلة العمر ، ومن

المفيد جـدًا أن يُشرك غيره فيها كما استفاد هو مما قرأه للأدباء والمفكرين من كتابات ذاتية تتناول حياتهم الشخصية وتجاربهم مع الحياة .. إلخ .

وبرغم تكرار المحاولة فلـم أنجح خلال عشر سنوات حتى الآن فى إقناع أحد بأن يكتب حيـاته إلا مرة واحـدة، حين أقنعت رئيس إحدى محاكم الاستئناف ـ وهو المستشـار الراحل مـاهر برسـوم ـ بأن يكتب مـذكـراته عن ٤٠ عـامـا أمضـاها فى القضـاء، فتحمس الرجل للفكرة ورجع إلىّ بعـد أسـابيع ومعـه مخطوطة كـاملـة لكتـابه ، وسألنى كيف ننشره، فرشحت له ناشرًا من معـارفى وعرَّفتـه به، فلم تمض فترة أخرى حتى طلب منى أن أكتب مقـدمـة لمذكراته، وكتبتهـا وصـدرت بعنوان «مـذكرات مستشـار مصرى» ، وسعـدتُ بهذه المذكرات كثيرًا وقـرأتها أكثر من مرة، ومازلت أذكر منها ما رواه عن استقبال النائب العام له فى أوائل الخمسينيـات مع زمـلائه مـن وكلاء النيـابة الجدد ليـؤدوا اليمين القـانونية أمـامه تمهيـدًا لبدء عملهم، وكيف خطب فيهم النائب العـام وقتها بلغة عربية بليغة وأسـدى إليهم نصائحه الثمينة بأن يقيموا العدل ويتجنبوا مواطن الشبهات فى حياتهم الشخصية .

وكـان من بين نصـائحـه الهامـة لهم لكى يحققـوا ذلك، أن يتجنبـوا الاختـلاط بثـلاث فئات من البشر خـارج حـدود المكتب أو سـاحـة المحكمـة هى : ضبـاط الشرطة ، والمحـامـون، وأصحـاب القضـايا

المعـــروضـــة عليهـــم ، لكى يحتفظوا بحيـــادهم ولا يتـأثروا فى عملهم بالصداقة والاعتبارات الشخصية .

كما لازلت أذكر منها أيضًا مـا حكاه عن فترة عمله كقاضٍ بمحكمة أسوان حين كـان ينظر نزاعًا بين شقيقين من أبناء النـوبة حول ميراث، ووقف الخصمان أمامه .. فلاحـظ أن أصغرهما يتعدَّى الستين من عمره ومريض للغـاية، حتى ليكاد يعجز عن الوقوف، فطلب إحضـار مقعد له وأذن له بالجلوس، فلم يجلـس، فكرر له الدعـوة لأن يجلس فـرفضَ بإصرار، وظنّ القـاضى أنه يتحـرَّج من الجلوس أمـام رئيس المحكمـة وهو فى مـوقـف النزاع، فسأله متعجبًـا : لماذا لا تجلس وقــد أذنت لك بذلك ؟

فأجابه فى حيـاء بأنه لا يستطيع أن يجلس وشقيقه الأكبر واقف لأن هذا ليس من أعـرافهم وتقاليـدهم فى النوبة ولا من حُسن الأدب، فإذا كانا قـد اختلفا حول الميراث وأحالا أمـره للقضاء ليفصل بينهما بالحق، فإن ذلك لا يعنى أبدًا أن ينتقص شيئًا من احترامـه لأخيه الأكبر ولا أن يجترىء على الجلوس وهو واقف !

واغتنم القـاضى الأديب هذه الفـرصـة الثمينة، وحـدّث الشقيقين طويلاً - وقـد توسم فيهما الطيبـة والخلق - عن صلة الرحم ووشـائج القربى التى تعلو فـوق كل أعراض الدنيـا ، ونصحهما بالتراضى حول

الميراث والاحتكام فيه للأهل وعقلاء العشيرة، فإذا بالشقيق الأكبر يعلن على الفور تنازله عن الدعوى ويخرج الشقيقان معًا يتساندان، مودّعين من كل الحاضرين بالاحترام والإعجاب !

لكنه فيما عدا المستشار ماهر برسوم لم يستجب لى أحد للأسف ويكتب مذكراته على كثرة من دعوتهم لذلك .

ومنذ فترة اتصلت بالداعية الكبير فضيلة الشيخ محمد الغزالى ودعوته لأن يكتب مذكراته ويُثرى بها معارفنا وخبرتنا بالحياة ، فقال لى إنه قد فكّر فى هذا الأمر طويلاً ورأى فى النهاية أن نشر مذكراته فى الظروف الحالية قد يُسىء إلى بعض الأشخاص الذين يتناولهم فيها، وهو لا يريد أن يسىء إلى أحد حتى ولو كان اختلف معه فى بعض مراحل حياته .

وجادلتُه فى ذلك بعض الوقت ، واقترحت عليه أن يكتب حتى ولو قصة نشأته الأسرية والمؤثرات العائلية والاجتماعية التى كوَّنت شخصيته فى مرحلتى الصبا وبواكير الشباب كما فعل عميد الأدب العربى طـه حسين فى أجزاء «الأيام» الثلاثة، لكنه لم يتحمس لذلك للأسف ، وقال لى إنه يفضل أن يدع ذلك «للمستقبل» !

ولم تمض شهور على حديثنا هذا حتى كان الأجل المحتوم قد وافاه وهو يشارك فى ندوة علمية بالمملكة العربية السعودية ودفن بأرضها

رحمة الله عليه.. وضاعت عليّ وعلى الآخرين فرصة الاستفادة بقراءة مذكراته.. ليس فقط لكى أستمتع بها ، وإنما لكى أزداد إعجابًا بأبيه المتنور، الذى التحق ابنه بالمعهد الدينى بالإسكندرية فأخذ على الفور أجرأ قرار يستطيع أب يرعى ابنه ويفضله على نفسه أن يتخذه، فصفَّى تجارته فى بلدته وانتقل معه إلى الإسكندرية ليتيح له فرصة تلقِّى العلم ولو على حساب مصلحته الشخصية، وافتتح لنفسه مكتبةً يعرض فيها الكتب الدينية والأدبية ودون أى سابق خبرة بتجارة الكتب أو المكتبات ! وفى هذه المكتبة نَهَل الشيخ الفتى فى صباه من عيون التراث العربى واكتسب أسلوبه الأدبى الرفيع فى الكتابة، وبذور ثقافته الدينية العريضة، وفكره المتنور العظيم .

وفى هذه المكتبة عمل هذا الأب الجليل بضع سنوات حتى حصل ولده الشاب على شهادة الثانوية الأزهرية من معهد ا لإسكندرية وانتقل إلى جامعة الأزهر بالقاهرة. ويبدو أنه كان إلى جانب تقواه وصلاحه وإحساسه الفطرى الراقى بواجبه الأبوى، خفيف الروح والظل، فلقد روى لى عنه فضيلة الشيخ الغزالى، أنه خلال عمله بتجارة الحبوب والغلال كان يسافر من بلدته إلى الإسكندرية ليشترى بعض تجارته . وفى إحدى رحلاته هذه سقطت منه خلال سيره فى الطريق حافظة نقوده وبها مبلغ كبير ، واكتشف ذلك وهو فى محل أحد التجار

فرجع من حيث جاء وراح يبحث عنها فى الأرض لعله تتحقق المعجزة ويجدها حيث سقطت، فإذا به يجدها بالفعل سليمةً لم تُمَسْ ، فالتقطها ثم رفع يده إلى السماء بعفوية وتمتم معبرًا عن شكره لربِّه : هات يدك أقبِّلها !

أما الكاتب الصحفى المرحوم محمد جلال كشك صاحب الثقافة الموسوعية فى الدين والاقتصاد والتاريخ والسياسة، والقلم اللاذع الساخر الجرىء، فقد انزعج للفكرة حين اقترحتها عليه منذ سنوات، واستنكر أن يكون قد بلغ من السن ما يدعوه إلى كتابة مذكراته، وقال لى إن الإنسان لا يكتب سيرته الذاتية إلا حين يكون قد أدَّى رسالته ولم يعد له من دور يؤديه فى الحياة .. فى حين أنه محارب فى ساحة الفكر، والمحارب لا يضع سلاحه جانبًا وهو فى حومة القتال ليراجع حياته ويكتب مذكراته ! ولم أنجح للأسف فى إقناعه بأنه حتى المحارب قد تكون له استراحة خلال المعركة يتذكر فيها أعزاءه ويحن إليهم قبل أن يعود إلى القتال مرة أخرى. ومع ذلك فقد أثار اقتراحى خواطره فأرسل إلىّ مقالاً نشرته له فى مجلة الشباب بعنوان : «هل حان وقت المذكرات» روى فيه قصة اقتراحى ورفضه له وانتهى فيه إلى أنه ما زال شاب العقل والقلب، ولم يصبح بعد من أرباب المعاشات لكى يفكر الآن فى تدوين سيرته الذاتية ودروس حياته. ولم يمض سوى عامين فقط بعدها للأسف إلا ورحل جلال كشك فجأة عن الحياة بأزمة قلبية

فاجأته وهو مشتبك فى مناظرة تليفونيـة أجرتها على الهواء إذاعة صوت أمـريكا بينه وبين نصر أبو زيد حـول أزمتـه المعـروفـة، وانفعل خـلالها جلال كشك انفعـالاً حادًا وهو يستنكر مـا أورده أبو زيد فى بحثه الذى أثار حـوله الجدل ، فعاجلتـه الأزمة القلبيـة الحادة ومات رحمه الله بعـد لحظات، وخسرت المكتبة العربية كتـابًا نادرًا كان يمكن أن يضيفه إليها عن حياته الحافلة ومعاركه الفكرية العديدة .

ومنذ سنـوات دُعيت مـع عـــدد من الصحفيين إلى المدينـة المنورة للاطلاع على توسعات الحرم النبوى قبيل انتهاء آخر مراحلها، وصحبنا الداعون فى جـولة فى المسجد النبوى، ونزلنا إلى البـدروم الشاسع حيث تقع غـرف ومـاكينات التحكم بالكمبيـوتر فى الإضـاءة والتكييف والأجهزة السمعيـة، ومظلات الساحة المكشـوفة ، واصطحبـونا أيضًا عبر نفق طويل يمتد بضعـة كيلو مترات تحت الأرض إلى محطة التكييف المركـزية التى تضخّ الهواء البـارد إلى المسجـد الكبير. ولاحظت أن من يشرح لنا معظم التفـاصيل الفنية مهندس مصرى عجوز يرتـدى البدلة الأنيقـة والكرافت ويتفجَّـر نشاطًا وحيـوية برغم كبر سنه ، ثم جـاءت جلستى إلى جواره فى سيارة الميكروباص خـلال رحلة العودة إلى جدة، فإذا بى أعرف أنه المهندس الاستشـارى الكبير الذى صمم كل تفاصيل هـذه التـــوسعـــات، وأنـه قــــد اختير لهذا العمـل

المهم لسابق خبرته فى تصميم بعض مراحل توسعات الحرم المكى السابقة، وأنه ليس فى الستينات من عمره كما ظننت وإنما هو فى ربيعه الرابع والثمانين (وقتها أطال الله عمره) وأنه المهندس الذى صمم وأشرف على تنفيذ مبنى المجمع الشهير بميدان التحرير بالقاهرة ودار القضاء العالى فيها وعدد كبير من المبانى الشهيرة والمساجد الكبرى فى مصر والعالم العربى وتركيا ، ليس هذا فقط بل وإنه أيضًا قد جاء إلينا فى المدينة المنورة صباح يوم زيارتنا لها من لندن بعد أن استدعته مجموعة شركات بن لادن التى نفّذت توسعات الحرم المدنى، ليرافقنا فى هذه الزيارة .. فضلا عن أنه زميل نفس الدفعة بكلية الهندسة التى تخرج فيها المهندس المعمارى الشهير حسن فتحى .

عرفت كل ذلك عن الدكتور مهندس كمال إسماعيل، وتعجبت كيف وهو هذا المهندس المعمارى العظيم لم ينل بعض شهرة حسن فتحى ولا يكاد يعرفه أحد خارج دائرة المتخصصين ؟ وحكى لى المهندس الاستشارى الكبير أن حسن فتحى لم يحصل إلا على بكالوريوس الهندسة فقط ، أما هو فقد حصل على الماجستير ثم أوفدته جامعة القاهرة فى بعثة إلى باريس فى بداية الثلاثينيات للحصول على الدكتوراه، فكان من بين أصدقائه هناك وقتها طالب الدكتوراه فى القانون توفيق الحكيم، وكان يدرس على نفقته الشخصية ويرسل إليه

أبوه من مصر مبلغًـا «كبيرًا» كل شهر هو عشرة جنيهات مصريـة كاملة كانت تغطـى نفقات الدراسة.. وإيجار المسكن وتسمح لـه أيضًا ببعض الرفاهية !

وبرغم إشـارته فى حديثـه معى إلى أن حسن فتحى لم يحصل على أية شهادة عليا بعد البكالوريوس فقد استدرك قائلاً : لكنه على أية حال قد نجح وحصل على شهرة عالمية مدوية !

وتأملت أنا هـذه المفـارقـة الغـريبـة طويلاً خـلال رحلة السيـارة وانتهيت من خواطـرى وتأملاتى إلى أن حسن فتحى قـد ذاعت شهرته فى بلده وفى العالم كله، واستعانت به المكسيك فى تصميم قرى الفلاحين النموذجيـة هناك، وحصل على جائـزة أفضل مهندس معمارى فى العالم ولقب سيـد البنَّائين من أكبر الهيئات المعماريـة الدوليـة، ليس فقط لأنه كان مهندسًا عظيمًا وإنما أيضًا لأنه كـان صاحب «دعوة» وأفكار جريئة فى العمارة، يدعـو إليها وينشرها ويدافـع عنها ، وهى الدعـوة إلى البناء بنفس مـواد البيئة المحلية من حجـارة وطين وبأقل التكاليف مما عـرف بعـد ذلك « بعمارة الفقـراء » .. إلى جـانب مـوقفـه الرافض للكتل الخرسـانية الصمّـاء التى تشـوه جمـال البيئـة فى الريف وترفع تكاليف المسكن. كما كـان يكتب ويحاضر ويؤلف الكتب عن أفكاره ودعـوته فتجمع حوله الأنصار الذين اعتنقوا أفكاره فى البناء والعمارة ، وتُرجمت

كتبه إلى اللغـات الأجنبية واختلف معه المعـارضون لأفكاره وهاجموها وأصبح له مريـدون يقلّدونه فى مصر والدول العربية وأوروبـا وأمريكا اللاتينية .

أمـا هذا المهندس العظيم الذى يجلس إلى جـوارى فى رحلة العـودة فهـو رجل أكـاديمى عبقرى أيضًـا درس واجتهـد وأبدع فى تصميماته، وأشرف على تنفيـذ مشروعـات كبرى فى عـدة دول، ولكن فى إطار السياق العام لقواعد فن العمارة السائدة . ولم تكن له معركة يحاربها ولا دعوة يدعو إليها .. لهذا طغت شهرة المبانى التى أقامها على شهرة اسمه هو نفسـه لأنها لا تثير حـولها جدلاً بين المؤيدين والمعـارضين كما كـان الحال مع حسن فتحى .

ورغـم ذلك فمازال عجبى قـائمًا : كيف لا يكـاد يعـرفـه أحـد بعد هـذا التاريـخ الحـافل مـن الإبـداع المعمـارى ؟ ولقد سألتـه بـالطبـع سـؤالى التقليـدى : لمـاذا لا تكتب مذكـراتك وتـروى لنا فيهـا قصـة حيـاتك ونبـوغك وإبداعـك وتجـاربك مـع الحيـاة والعمـل والأسرة إلـخ ؟

فأجـابنى للأسف بأنه لا يرى فى حياته مـا يستحق أن يعرفـه الناس وحتى لو رأى ذلك فما شـأنه هو والكتـابة وعنائهـا وهو رجل معمار وتصميمات هندسية وليس كاتبًا ولا أديبًا .

لكن لا يأس مـع الحياة.. صحيـح أننى لم أنجح فى إقناع أحد بعـد المستشـار الراحل ماهر برسـوم، لكنى لم أيأس ولن أكفَّ حتى النهـاية عن أن أقول لكل من أتوسم فيه الخبرة بالحيـاة وثراء تجربته معها : متى تكتب مذكراتك ؟



# فى الصباح الباكر

المثل الدارج يقول : « أخذوه من الدار للنار » !

بمعنى أنهم فاجأوه بالاستدعاء لمهمة عـاجلة، ولم يدعوا له الفرصة للتهيؤ لأدائهـا، فوجد نفســه على الفور فى قلب المعـركة بغير تدرج بين حالة الاسترخاء التـى كان عليها فى بيته، وحالة الاستنفـار التى قفز إلى أتونها دفعة واحدة !

وأحسب أن هذا أيضا كان حالى حين « أخذونى » من مطار أثينا إلى مقر رئـاسة الجمهورية اليـونانية لمقـابلة رئيس الدولة ، قبـــل أن أفتـح حقيبة سفرى وأبدل مـلابسى أو أنثر بعض الماء على وجهى لأزيل عنه وعثاء السفر !

لكن هكذا قضى بـرنامج زيارتى الأخيرة لليـونان الـذى أعـدته لى وزارة الإعـلام اليـونـانيـة، وأبلغنى به قبل السفـر بيـــومين المستشـار الصحفى بسفارة اليونان بالقاهرة الصديق قسطنطين باباس !

وحين فعل ذلك، لم أشأ أن أفصح له عن هواجسى ! وشكرته على ترتيبات الزيارة، واستعددت لمواجهة قدرى الذى اعتدته لأكثر من عشرين عاما كلما سافرت إلى أوروبا ! فمعظم رحلات الطيران المتجهة إليها تقلع من القاهرة فى الصباح الباكر ، وظروف عملى تضطرنى كلما اعتزمت السفر أن أحتجب فى البيت اليوم السابق له لإنهاء واجباتى الصحفية قبل الرحيل، فتكون النتيجة دائما هى أن أركب الطائرة فى الصباح الباكر ، ولما يُتَحْ لى أن أغفو لأكثر من ساعة قبل السفر .. وفى أحيان كثيرة أخرج إلى المطار بلا غفوة نوم واحدة ، معتمد على أن يومى الأول من الرحلة يكون غالبا خاليا من أية ارتباطات فى النهار، فأعوض فيه مافاتنى من نوم .

فما العمل هذه المرة.. وبرنامج زيارتى يقول إن الطائرة ستصل إلى أثينا فى الحادية عشرة صباحا، وإن مندوبة من وزارة الإعلام سوف تصطحبنى من المطار إلى الفندق لأضع حقيبتى فيه، وأتوجه معها إلى رئاسة الجمهورية.. هكذا.. «من المطار إلى النار» ؟!

«قررت» أن أبذل غاية جهدى هذه المرة للانتهاء من واجباتى الصحفية فى موعد يسمح لى باستراق ساعتين على الأقل من النوم.. لكيلا تفاجئنى غيبوبة النوم خلال لقائى برئيس جمهورية اليونان، فيحملنى رجال المراسم من مكتبه قبل أن يزعجه «شخيرى» !

وجلست إلى مكتبى فى البيت، وبدأت الكتابة بإصرار وجدية.. وكلما استشعرت بعض التراخى أو الرغبة فى الراحة استدعيت من الذاكرة البعيدة قصة الصبى الصينى التى قرأناها فى كتاب المطالعة القديم بالمدرسة الابتدائية، وكثيرا ما عيَّرونا بضعف إرادتنا وقلة جَلَدِنا على المذاكرة بالمقارنة به.

فقد تفتق ذهنه عن فكرة مبتكرة لكى يواصل المذاكرة خلال الليل بغير أن يغلبه النوم.. فربط خصلة من شعره الطويل بخيط فى مسمار فى الحائط الذى يجلس أمامه.. وانهمك فى الدرس.. وكلما غلبه النوم وتدلت رأسه على صدره، رفعها الخيط المشدود للمسمار، وأعاده إلى التنبه ومواصلة الدرس !

فرحت أغالب أنا أيضا التعب ، وكلما مالت رأسى على كتفى ، تذكرت موعد رئيس الجمهورية اليونانية فى اليوم التالى، وما ينبغى لى أن أكون عليه من حضور الذهن وتنبه الوعى خلال لقائى به، فأستعيد حماسى وأواصل الكتابة بلا كلل !

وبالرغم من كل ذلك فلم أستطع الانتهاء من عملى قبل الثالثة صباحا، ولم تسمح لى حالة التوتر واشتعال الذهن التى تصاحبنى خلال الكتابة وبعدها بأن أقتنص لحظة واحدة من النوم الخالص .. ونهضت من فراشى - ولا أقول من نومى !- بعد ليلة بيضاء أخرى بلا

نوم، لأركب الطائرة إلى أثينا.. وفى مطارها وجدت فى انتظارى السيدة «خريسولا» مندوبة وزارة الإعلام، والزميل «عبد العظيم درويش» مدير مكتب الأهرام هناك. ولم تدع لى «خريسولا» النشيطة أية فرصة لالتقاط الأنفاس .

ما إن وصلنا إلى فندق «جراند بريطانيا» الذى سأقيم به حتى أودعت حقيبتى المغلقة، وسرت إلى جوارها على الأقدام إلى مقر رئاسة الجمهورية.. فالمسافة بين الفندق والمقر بسيطة بمقاييس «خريسولا»!.. وقطعها على الأقدام يوفر نصف الوقت عما لو ركبنا سيارة إليها وسط زحام أثينا التى تعد من أكثر العواصم الأوروبية ازدحاما بحركة المرور، حتى لقد خصصوا يوما لسير العربات ذات الأرقام الفردية، ويوما آخر لسير العربات ذات الأرقام الزوجية.. فكانت النتيجة أن أصبحت معظم الأسر المتوسطة فيها تملك سيارتين، أرقام إحداهما زوجية، والأخرى فردية ! كما انتشرت فيها الدراجات البخارية بكثرة عجيبة لم أشاهدها فى أية عاصمة أوروبية أخرى، لأنه مسموح لها بالحركة فى شوارع العاصمة بغض النظر عن أرقامها !..

وفى شارع هادىء تظلله أشجار اللارنج بثمارها الصفراء التى تتساقط بكثرة على الأرض، ويؤول مصيرها إلى صناديق القمامة، لأن اليونانيين لا يأكلونها .. دخلت مع «خريسولا» مقر رئاسة الجمهورية من باب خلفى لا يقف عليه سوى جندى واحد .. وبعد حوار قصير

بينها وبينه سمح لنا بالدخول بغير الاطلاع على هُويتى.. ولا المرور عبر بوابة للكشف عن الأسلحة والمعادن.. ولا إجراءات أمن معقدة ! واستقبلنى أحد رجال المراسم مبتسما، وقادنى لمكتب رئيس الجمهورية السيد «كونستانتيونوس ستيفانوبولس» وهو يذكرنى بما سبق أن لفتت خريسولا انتباهى إليه، وهو أن لقائى مع رئيس الجمهورية ليس لإجراء حوار معه للنشر، لأنه لا يجرى حوارات صحفية أبدا، وإنما للتحية والترحيب وتبادل الرأى.. ويحق لى أن «أشير» إلى ما دار بيننا من مناقشات، ولكن دون أن أنسب إليه أية تصريحات مباشرة !

ودخلت إلى مكتب رئيس الجمهورية اليونانية، وتقدمت منه مصافحا ومحييا.. ولاحظت خلال المناقشة معه عمق ثقافته وسماحة طبعه، وجاذبيته السياسية التى أهلته لأن يُجْمع على ترشيحه لدورة رئاسية جديدة الحزب الحاكم وحزب المعارضة فى نفس الوقت، ربما لأول مرة فى تاريخ اليونان الحديث.. وهو ما تحقق بالفعل عقب زيارتى له بأيام.. ففاز فى انتخابات الدورة الثانية له من أول انتخاب، وبغير إعادة مع المنافسين.

ودار الحديث بيننا عن مصر والموقف الدولى والعلاقة بين اليونان وتركيا، وانبهاره خلال زيارتيه السابقتين لمصر بالأقصر وآثار وادى الملوك ومعابد الكرنك.. واستغرقت المقابلة - على غير المتوقع فى مقابلات المجاملة المماثلة - ٤٥ دقيقة .. وغادرت مكتبه وأنا أشكر

«الصبى الصينى» على ابتكاره القديم الذى نفذته مع نفسى خلال المقابلة.. معنويا وليس شكليا..

ومررت خلال عودتى للفندق - مشيا على الأقدام مرة أخرى مع «خريسولا» النشيطة - بمقر رئاسة الوزارة اليونانية، وشاهدت تجمع رجال الإعلام ومحطات التليفزيون بكاميراتهم عند مدخلها فى انتظار خروج رئيس الوزراء «سيميتس كونستانتينوس» ليحاصروه بالأسئلة قبل أن يركب سيارته .. ولم ألحظ مثل ذلك عند مغادرتى لمقر رئاسة الجمهورية - الذى لا يقيم فيه رئيس الدولة - على عكس المفروض حيث يفضل الرجل الإقامة فى شقة بعمارة مزدحمة بالسكان بإحدى ضواحى أثينا، لا يقف على بابها سوى جندى واحد.. وهو نفس الحال الذى شاهدته حين مررت بعد ذلك بعمارة سكنية أخرى فى قلب أثينا، فلقد رأيت أمامها جنديا واحدا، وقيل لى إن رئيس الوزراء يقيم بهذه العمارة مع غيره من السكان ! فالأمور فى هذه الناحية الأمنية أكثر بساطة فى اليونان منها فى دول أخرى .

ولم أعجب لعدم وجود رجال الإعلام أمام مقر رئاسة الجمهورية، فى حين يتزاحمون أمام مقر رئاسة الوزارة.. لأن السلطة الفعلية فى اليونان فى يد رئيس الوزارة كما هو الحال فى معظم الديمقراطيات الغربية - ما عدا فرنسا ..

وحين وصلت إلى الفندق وتركتنى «خريسولا» - على وعد باللقاء فى صباح اليوم التالى لتصاحبنى إلى احتفال افتتاح أول مترو للأنفاق فى أثينا، حللت خصلة شعرى المربوطة إلى مسمار الوعى والإرادة، ودخلت فراشى، عازفا - برغم الجوع الشديد - عن تناول الغداء واستسلمت لنوم ثقيل . وبعد ثلاث ساعات تنبهت من نومى، وبدأت زيارتى الحقيقية لليونان !

اليونان .. كم مرة جئت إليها من قبل ؟!

وكم مرة خُيِّل إلىَّ حين أتمشَّى فى أثينا أننى قد أصادف فى شوارعها الفيلسوف «سقراط» يمشى بين تلاميذه، وهو يمارس أسلوبه الفريد الذى عرف بالتهكم السقراطى ، ومن خلاله يصطنع الجهل مع من يحاوره، ويحاول إشعاره بأنه أقل منه ذكاءً .. إلى أن تكشف المحاورة للشخص الآخر فساد منطقه.. أو وهو يناقش كل من يقابله فى الطريق، ويرى أنه يتعلم بهذه الطريقة من الآخرين.. « لأن أشجار الريف ليس لديها ما تعلمنى إياه !».. كما كان يقول ! وإنما البشر هم الذين يمكن أن يتعلم منهم ويعلمهم !

بل .. وكم مرة توقعت خلال تجوالى فى أزقة حى بلاكا وشوارع كولانالى .. أننى قد ألتقى بأحد هؤلاء اليونانيين الطيبين الذين عرفتهم خلال الصبا فى مدينتى الصغيرة دسوق، وقد كانوا يملكون فيها المقاهى والمطاعم والفنادق، ثم رجعوا إلى بلادهم مع بداية السبعينيات.

اليـونان دولة متـوسطة .. يبلغ عـدد سكانها ١٠ مـلايين و٦٦ ألف نسمة فقط ، وقد أشار رئيس الجمهوريـة اليونانية فى حديثى معه إلى أن إحدى أهم مشاكل بلاده الآن هى ضعف معدل المواليد ، الذى لا يزيد عن ١,١٪، على عكس الحال «عندكم» !

وهى تتكون من أكثر من ٨ آلاف جـزيرة، ليس معمورا منهـا سوى ١٠١ جـزيرة فقط.. والبقيـة جـزر غير آهلة بـالسكان وصخـرية، وتستطيع إذا أردت أن تشترى واحدة منها وتدفـع ثمنها للحكومة، كما فعل من قبل المليـونير اليـونانى الشهير «أوناسيـس».. ومع ذلك فهى تتقبل كل سنة حوالى ١٥ مليون من السياح الأوروبيين الذى تستهويهم جزرها وشواطئها ونمط الحياة المختلف فيها عن بقية دول أوروبا .

و « التافرنا » ـ أو المطعم اليونانى - هو رمز الحياة فى اليونان.. ففيها أكبر عـدد يمكن تصـوره.. بالمقـارنة بعـدد السكان - مـن المطاعم والمقـاهى والبارات.. ومقـاهى أثينا عـامـرة دائما بالرواد فى عز النهـار وخـلال ساعـات العمل. واليـونانى يخرج من عمله إلى البيت فيتناول طعام الغداء، وينام بعض الوقت، ثم يخرج من بيتـه فى المساء إلى «البار» أو «التافـرنا» كل ليلة تقـريبا.. وهو يعشق السهـر، ويتأخر عن مـوعد العمل فى الصباح فى كثير من الأحيان، لأنهم من عشـاق الحياة والطعام والشراب على حسـاب أى شىء آخر ! لكن الأسرة اليـونانية مـا زالت شـديدة الترابط، وتنفـر من فكـرة استقـلال الأبناء بحيـاتهم فى مطلع

الشباب.. كما يفعلون فى دول أوروبية أخـرى.. وما زال كثير من قيمها العائلية شبيها بالقيم الشرقية فى بعض الوجوه.. غير أنك تشعر بالرغم من ذلك - وبالرغم من شهرة اليونان كـدولة سياحية كبيرة - بانغلاق اليونانيين على أنفسهـم، أكثر مما تشعر بـذلك بالنسبة لشعـوب أوروبية أخـرى.. كما تلمس بسهـولة أنهم - برغم تمتعهم بالحيـاة بكل السبل - من أكثر شعوب أوروبا ترددا على الكنيسة .

وفى صباح اليـوم التالى شهـدت مع «خريسـولا» حفل افتتاح مترو الأنفـاق بـأثينا.. و «سمعت» - ولا أقـول فهمـت !- خطب رئيس الجمهـورية بخطبة ألهبـت حماس الجمهور وتصفيقـه.. حين تحدث عن الإرادة اليونانيـة التى نفذت مشروع مترو الأنفـاق، بالرغم مما قيل عند بدايتـه إنه أكبر من أن تنفـذه دولة كاليـونان.. وتأكـدت لى فكرتى عن جـاذبيتـه السيـاسيـة وقـدرتـه على إثارة إحسـاس المواطنين بالكرامـة الوطنيـة.. أما «خريسـولا» فإنها لم تصدقنى فى البـداية حين قلت لها فى طريق العودة من الحفل : إن لدينا فى القاهرة «مترو» للأنفاق منذ حوالى ١٥ عاما، وإنه قد أصبحت له الآن ثلاثة خطوط .

فلقد كان احتفالهم بمترو الأنفاق احتفالا شعبيا صاخبا كأنه مناسبة وطنية كبرى .

ولقد مضت أيام الزيـارة القصيرة.. فى اللقاءات المماثلة، واستطلاع

الحياة فى العاصمة اليونانية.. وإعادة زيارة المعالم الأثرية الشهيرة، كاستاد أثينا الذى أقيمت فيه أول دورة أوليمبية فى العصر الحديث، وزيارة معبد «دلفى» لقديم الذى كانت تعلوه العبارة الشهيرة التى اتخذها سقراط شعارا لنفسه وهى : «اعرف نفسك بنفسك!».. ولقد سبقت لى محاولة زيارته قبل ٥ سنوات، وسافرت ٣٥٠ كيلو مترا من أثينا إليه .. فوجدت الطريق الصاعد إلى المعبد مغلقا بسبب إضراب العاملين بقطاع الآثار .

واليونان بالمناسبة من أكثر الدول الأوروبية تعاملا مع الإضرابات والمسيرات السلمية المطالبة بمطالب عمالية.. فصممت هذه المرة على زيارته، ونظمت لى وزارة الإعلام اليونانية رحلة إليه مع فوج سياحى صغير.. وقاومت تصلب المفاصل من أثر قلة الحركة والمشى، وصعدت مع الصاعدين إلى قمة الربوة التى يقع المعبد فوقها .. واستمعت إلى شرح المرشدة ، وخيالى يسرح إلى قمة جبل الأوليمب التى كانت مقام الآلهة اليونانية، وميدان معابثاتهم لبعضهم وبعض وللبشر فى الأساطير القديمة !

وشكرتُ للصبى الصينى إرادته التى ألهمتنى الإصرار على صعود ربوة معبد دلفى العالية، بالرغم من إجهادها لى.. ولم أعتب على هذه الإرادة عجزها عن أن تسعفنى بنفس القدر لكى أصعد هضبة معبد

الأكـروبول ودرجاتها التى تبلـغ ١١٠ درجات.. واستسلمت لحقـائق الـزمن ! واكتفيـت مـن الزيـارة هذه المرة بـالجلـوس بمقهى فى سفـح الأكـروبول.. وتأمل أطلال المعبـد من بعيد، واسترجـاع ذكـرياتى عنه حين صعدت إليه نفس هذه الدرجـات العالية فى عام ١٩٧٨ وتجرعت القهوة اليـونانية التى تتسم بخفة تركيزها فى المقهى منتظرا عـودة الفوج الذى صـاحبتـه ـ وصعـد نشطاؤه إلى المعبـد – لنعـود معـا بالأتوبيس السياحى إلى وسط المدينة..

وتعلمت من درس زيارتى السـابقـة لليـونان منذ خمس سنوات ألا أخطىء وأطلب من جارسون المقهى القهـوة «التركية» لكيلا أتلقى منه نظرة غضب صامتة لمجرد الإشارة إلى تركيا فى الحديث.. ولو على سبيل القهوة !

فالعداء التاريخى بين البلدين قديم .. وإن كانت العلاقات السياسية بينهما قد بدأت تتجـه الآن إلى التحسن – كما قال لى الرئيس اليـونانى فى حوارى معه .

ومـا أجمل أن يجىء يومٌ – ولو فى أحـلام اليقظة – يحل فيـه السـلام والمحبة بين جميع البشر .. بغير استثناء !

# كتب للمؤلف

| | | | |
|---|---|---|---|
| ١ ـ أصدقاء على الورق | قصص إنسانية | الطبعة الثانية | ١٩٩٨ |
| ٢ ـ يوميات طالب بعثة | أدب رحلات | الطبعة الأولى | ١٩٨٧ |
| ٣ ـ هتاف المعذبين | قصص إنسانية | الطبعة الثانية | ١٩٩٨ |
| ٤ ـ صديقى لا تأكل نفسك | مقالات وصور أدبية | الطبعة السادسة | ٢٠٠١ |
| ٥ ـ نهر الحياة | قصص إنسانية | الطبعة الرابعة | ٢٠٠١ |
| ٦ ـ العصافير الخرساء | قصص إنسانية | الطبعة الرابعة | ٢٠٠١ |
| ٧ ـ صديقى ما أعظمك | مقالات وصور أدبية | الطبعة الرابعة | ٢٠٠١ |
| ٨ ـ افتح قلبك | مقالات وصور أدبية | الطبعة الرابعة | ٢٠٠١ |
| ٩ ـ اندهش يا صديقى | مقالات وصور أدبية | الطبعة الرابعة | ٢٠٠١ |
| ١٠ ـ أزواج وزوجات | قصص إنسانية | الطبعة الثالثة | ٢٠٠١ |
| ١١ ـ أرجوك لا تفهمنى | قصص إنسانية | الطبعة الثانية | ٢٠٠١ |
| ١٢ ـ رسائل محترقة | قصص إنسانية | الطبعة الثانية | ٢٠٠١ |
| ١٣ ـ أماكن فى القلب | قصص إنسانية | الطبعة الثانية | ٢٠٠٠ |
| ١٤ ـ لا تنسنى | قصص رومانسية | الطبعة الثالثة | ٢٠٠٠ |
| ١٥ ـ نهر الدموع | قصص إنسانية | الطبعة الثانية | ١٩٩٦ |
| ١٦ ـ أقنعة الحب السبعة | قصص إنسانية | الطبعة الرابعه | ٢٠٠٠ |
| ١٧ ـ مكتوب على الجبين | قصص إنسانية | الطبعة الثانيه | ٢٠٠٠ |
| ١٨ ـ أوراق الليل | قصص إنسانية | الطبعة الثانية | ٢٠٠٠ |
| ١٩ ـ طائر الأحزان | قصص إنسانية | الطبعة الثانية | ٢٠٠٠ |
| ٢٠ ـ أعط الصباح فرصة | مقالات وصور أدبية | الطبعة الثانية | ٢٠٠٠ |
| ٢١ ـ الحب فوق البلاط | قصص قصيرة | الطبعة الثانية | ٢٠٠٠ |
| ٢٢ ـ سائح فى دنيا الله | أدب رحلات | الطبعة الثالثة | ٢٠٠١ |
| ٢٣ ـ قالت الأيام | قصص إنسانية | الطبعة الثانية | ٢٠٠١ |
| ٢٤ ـ صورٌ من حياتهم | مقالات وصور أدبية | الطبعة الثانية | ١٩٩٧ |
| ٢٥ ـ أهلا . . مع السلامة | مقالات وصور أدبية | الطبعة الثانية | ٢٠٠١ |
| ٢٦ ـ قدمت أعذارى | خواطر وتأملات | الطبعة الثانية | ٢٠٠١ |
| ٢٧ ـ أيام السعادة والشقاء | قصص إنسانية | الطبعة الأولى | ١٩٩٩ |

● **كتب للمؤلف من إصدارات « الدار المصرية اللبنانية »**

| | | | |
|---|---|---|---|
| ٢٨ ـ حصاد الصبر | قصص إنسانية | الطبعة الأولى | ٢٠٠١ |
| ٢٩ ـ صوت من السماء | قصص إنسانية | الطبعة الأولى | ٢٠٠١ |
| ٣٠ ـ العيون الحمراء | قصص إنسانية | الطبعة الخامسة | ١٩٩٨ |
| ٣١ ـ وقت للسعادة . . وقت للبكاء | مقالات وصور أدبية | الطبعة الرابعة | ٢٠٠٠ |
| ٣٢ ـ شركاء فى الحياة | قصص إنسانية | الطبعة الثالثة | ١٩٩٦ |
| ٣٣ ـ خاتم فى إصبع القلب | صور أدبية | الطبعة الثالثة | ١٩٩٩ |
| ٣٤ ـ وحدى مع الآخرين | مقالات | الطبعة الثالثة | ١٩٩٩ |
| ٣٥ ـ ساعات من العمر | مقالات وصور أدبية | الطبعة الثانية | ٢٠٠٠ |
| ٣٦ ـ عاشوا فى خيالى | مقالات وصور أدبية | الطبعة الثالثة | ٢٠٠٠ |
| ٣٧ ـ ترانيم الحب والعذاب | مقالات وصور أدبية | الطبعة الثانية | ٢٠٠٠ |
| ٣٨ ـ الثمرة المرة | قصص إنسانية | الطبعة الثانية | ٢٠٠٠ |
| ٣٩ ـ دموع القلب | قصص إنسانية | الطبعة الثانية | ٢٠٠٠ |
| ٤٠ ـ أرجوك أعطنى عمرك | مقالات وصور أدبية | الطبعة الثانية | ٢٠٠٠ |
| ٤١ ـ من المفكرة الزرقاء | صور ومقالات أدبية | الطبعة الأولى | ٢٠٠٠ |
| ٤٢ ـ الأرض المحترقة | قصص إنسانية | الطبعة الأولى | ٢٠٠٠ |
| ٤٣ ـ سلامتك من الآه | مقالات وصور أدبية | الطبعة الثالثة | ٢٠٠١ |
| ٤٤ ـ هو وهى والآخرين | قصص إنسانية | الطبعة الثانية | ٢٠٠١ |
| ٤٥ ـ حكايات شارعنا | | الطبعة الأولى | ٢٠٠١ |

# الفهـرس




7 & 10 شارع السلام أرض اللواء المهندسين

تليفون : 3256098 - 3251043

# سلامتك من الآه

يتميز أسلوب الأستاذ الكبير عبد الوهاب مطاوع بالقدرة الفائقة على تجسيد المشاعر الإنسانية الراقية فى شكل كلمات حانية تنبض بالحياة ، وتصور الإنسان حين تتقلب أحواله بين آلام المشاكل الاجتماعية والآمال المتفائلة فى التغلب على تلك المشاكل بالصبر والإيمان بقدرة الله على تحويل العسر إلى يُسر .. عملاً بقوله تعالى : ﴿ فإن مع العسر يسرًا * إن مع العسر يسرًا ﴾ .

ويتضمن هذا الكتاب «٢١» موضوعًا يدور جميعها حول «خيرية» الحياة ، وحول المثل العليا التى يجب أن يعتصم بها الإنسان حين تتلاطم من حوله أمواج الحياة بمشاكلها وشرورها .. وقد حرص المؤلف الكبير على دعوة القراء الكرام لكى يتعلموا كيف يحيون حياتهم بالطريقة الصحيحة .. وكيف يبتهجون بالحياة ويستمتعون بما فيها من أوجه الخير والحق والجمال .. بالرغم من كل الصعاب ، ومن كل ما يحيط بتلك الصعاب من آلام !.



- مدير تحرير جريدة الأهرام ورئيس تحرير مجلة الشباب .
- حصل على جائزة مؤسسة على أمين ومصطفى أمين الصحفية عام ١٩٩٢ كأحسن كاتب صحفى يكتب فى المسائل الإنسانية .
- يكتب باب « بريد الجمعة » الإنسانى فى الأهرام كل أسبوع بانتظام منذ عام ١٩٨٢ ، ويشرف على باب بريد الأهرام اليومى بصحيفة الأهرام .
- صدر له ٤٥ كتابًا ، يتضمن بعضها نماذج مختارة من قصص بريد الجمعة [illegible] عليها، ويتضمن [illegible] قصصًا قصيرة [illegible] ومقالات فى أدب [illegible]
- له ثلاث مجموعات [illegible] «أماكن فى القلب» [illegible] ، و«الحب فوق البلاط [illegible]



الدار المصرية اللبنانية